HISTOIRE
DES
MUSULMANS D'ESPAGNE
JUSQU'À LA CONQUETE DE L'ANDALOUSIE PAR LES ALMORAVIDES
(711—1110)

PAR

R. DOZY

NOUVELLE EDITION REVUE ET MISE À JOUR

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

TOME I
(LIVRE I, LIVRE II)

LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL S.A.
LEYDE — 1932



R. P. A. DOZY
Professeur à l'Université de Leyde.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة العربية

أما بعد فهذا كتـاب يتضمن فترة غير قصيرة من تاريخ أسـبانيا الاسلامية منذ أن دخلها العرب حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ومجيء المرابطين ، مع الاهتمام بوجه خاص بالملك الأسطورى الشاعر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ٠

لقد ألف هذا الكتاب المستشرق الهولندى « رينهرت دوزى » الذى اعتمد فيه على ما تيسر له الوقوف عليه ــ وهو كثير ــ من المصادر العربية واللاتينية والاسبانية التى عرضت كل واحدة منها لناحية معينة أو أكثر من تاريخ الاسلام فى اسبانيا والمغرب ، وقد تناول دوزى موضوع هذه المصادر بالعرض والنقد والتحليل والاستنباط ، شأنه فى ذلك شأن ما خلفه من تراث يتصل بالتاريخ الاسلامى وباللغة العربية التى كان حفيا بها حريصا عليها حرص أخلص أبنائها حتى وضع فيها معجما غير مسبوق اليه ولازال مرجعا أنفا قام به هو وحده رغم ضخامته ضخامة تنوء بها العصبة الأمجاد ٠

ولقد سبق أن نقلنا الى العربية القسم الأول من هذا الكتاب (١) الذى جعله مؤلفه مقدمة لبقية أقسامه ، مركزا اهتمامه على ما شب عليه العرب فى جزيرتهم من عصبيات قبلية لم يستطيعوا الفكاك منها حتى بعد انطلاقهم الى عالم يومهم الجديد ، ولم تكن هذه العصبيات لتخفى الا لتعود من جديد عنيفة ضارية مشبوبة الأوار تحرق ما حولها ، وتبير الجميع حتى من اضرموها وهكذا حافظ العرب عليهـــا لما وطئت أقدامهـــم التراب الأسبانى حفظ الشحيح على لما له فلم يفرطوا فيها وليتهم فرطوا ، فقد كان هذا الحرص الشديد من جانبهم عليها مؤديا الى ضياع دولتهم العظيمة ضياعا كريها مؤلما ، مع أن التاريخ يشهد ــ وهو صادق فى شهادته ــ أنهم بناة حضارة أكرمت الانســانية وســمت بالعقل البشرى ورفعت مكانة

(١) نشرته لنا دار المعارف بالقاهرة بعنوان « تاريخ مسلمى اسبانيا : الحروب الاهلية »

الانسان ، وأدانت شتى نواحى الحياة السياسية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ولازالت آثارها ــ أو بعض آثارها ــ شاهدة على أنها كانت قادرة على أن تصنع التاريخ على أحسن ما يمكن أن يصنع التاريخ، لو لم تعمل العوامل الشخصية على تقويض بنيانها الشامخ، فأتاحت هذه العوامل الفرصة للحاقدين عليها وعلى المسلمين عامة أن يجدوا الثغرة التى ينفذون منها الى ضربها واياهم فى الصميم فنفذوا وأعملوا معاول الهدم فى هذه الحضارة الشامخة العظيمة ، وكان نجاح هؤلاء المتربصين بها كبيرا اذ يشهد التاريخ على أنهم كشفوا عن وجوههم الكالحة القبيحة فلم تأخذهم بها رحمة ، ولقد كان من الممكن لهذه الحضارة (التى لك أن تسميها بالعربية أو الاسلامية أو الأندلسية) أن تصارع الزمن لا أن تصرعها تطورات أحداثه لو أن بناة هذه الحضارة تأقلموا للظروف الجديدة الزمانية والمكانية مع احتفاظهم بالروح الاسلامية ، ولكنهم لم يفعلوا بسبب غفلتهم وعدم تبصرهم بالعواقب القريبة والبعيدة ٠

لقد قسم « دوزى » كتابه عن تاريخ مسلمى أسبانيا الذى نترجمه اليوم باسم تاريخ الأندلس الى أربعة أقسام خص أولها ــ أو الجانب الأكبر منه ــ لما كان عليه من المنازعات العرقية ، من معدية ويمنية وقيسية وشامية وغيرها ، وأوضح كيف أن هذه المنازعات انتقلت معهم الى أسبانيا بانتقالهم اليها عند فتحهم اياها فتحا اتسم بسرعة انتشار الاسلام هناك ٠

أما بقية الكتاب ، وتقع فى ثلاثة أقسام فقد عرض المؤلف فى أولها (وهو الذى فى يد القارىء العربى الآن) لأوضاع الاسبان تحت حكم المتبربرين القوط الغربيين وما لاقوه على أيديهم من اضطهاد ، وما تحملوه من ظلم وعسف ، دون أن يحاول رجال الدين المسيحى محاولة جدية رفعه عنهم ٠ ولم يبذلوا أى جهد فى التخفيف منه عند ذوى السلطان والحكومة مما بث فى نفوس الأهالى روح التذمر من أصحاب السلطة الزمنية والروحية، فتأففوا من حكامهم وساداتهم : علمانيين كانوا أو دينيين ، مما يسر الفتح على العرب الذين ما لبثوا أن صادفوا حركات داخلية مضادة تمثلت فى المقاومة التى عبرت عن ذاتها فى اقدام بعض النصارى على ما عرف فى تاريخ الغرب بحركة الاستشهاد المسيحى لا سيما فى قرطبة ٠ وينتهى هذا القسم بعرض هذه الصورة واضحة وبعهد عبد الرحمن

ثم يتكلم المؤلف فى الجزء الذى يليه عن حكم الخلفاء وظهور بعض الشخصيات من غيرهم والتى غطت على الخلفاء أنفسهم ، وليس ببعيد عن الأذهان « المنصور بن أبى عامر » الذى كسف نوره أنوار غيره وسحب البساط من تحت أقدامهم ، فكانت له تجريداته الحربية الناجحة فى مواجهة

مسيحيي الشمال ، حتى أعاد للاسلام هناك بهجته وهيبته ، وللحكومة بأسها • على أنه قدر لهذه الفترة أن تتلاشى ، ولهذا البريق أن ينطفيء حين وسد الموت المنصور الثرى فأدرجت قوة الاسـلام هناك معه فى أكفـانه •

أما القسم الأخير من هذه السلسلة التاريخية الأندلسية ــ وهو الثالث فى تقسيمنا هذا ــ فقد جعله « دوزى » خاصا بتاريخ الحكام الصغار الذين خلعوا على أنفسهم من الألقاب الفخمة الطنانة ما أصبحوا معه سخرية التاريخ يوم عرض لتاريخهم ولأعمالهم ، وويل لمثل هؤلاء من سخرية التاريخ فهو لا يرحم حين يفتش عما عملوا وما قدموا لأمتهم فلا يجد الا خواء مظلما ، وسرابا لا طائل منه ، وحينذاك لا ينفعهم ما كانوا ينعتون به أنفسهم من ألقاب ليسوا أهلا لها ، وهى براء منهم ، يخادعون بها الناس وما يخدعون الا أنفسهم ، فكانت :

ألقـــاب مملكة فى غير موضـــعها
كالهر يحكى انتفـــاخا صـــولة الأســـد

ولقد عرف هؤلاء الأمراء أصحاب الهمم الوضيعة بملوك الطوائف فكانوا أقزاما على مسرح التاريخ الأندلسى الذى كانت تجرى يومه أحداث ضخمة فى العالم الأوربى ، وفى الجانب الآخر من عدوة افريقية ، وقد كشفت هذه الأحداث عن باطل هؤلاء المسمون بالملوك ، فطمع فيهم كل من حولهم من قوى نصرانية واسلامية فتية خرجت من بطن الصحراء الافريقية ، ولقد بلغ ملوك الطـوائف هؤلاء حدا من المهانة راحوا يسـتنجدون معه بأعدائهم ــ وهم جيرانهم المحليون المسيحيون ــ ويستعدونهم على اخوة لهم ، ثم بلغت المهانة ذروتها اذ سألوا « المرابطين » القدوم الى بلادهم نجدة لهم فكانوا شر نجدة وكانوا بئس النصير ، أما هم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فأحرقتهم ، وما كان ذلك العمل منهم الا ايذانا بانتهاء حكمهم وسقوط دويلاتهم وتمهيدا لطردهم من كل الأندلس ، والأنكى من هذا جميعه ضياع الاســلام ، ولم يستحق أحد من ملوك الطوائف أن يذكر ببعض التقدير الا المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، ويرجع الفضل فى ذلك التقدير الى أنه أقام للأدب دولة خلدته • وان كانت خاتمته أسوأ خاتمة تذكى الأسى فى النفوس ، وتغص بها اللهاة ، ولا يجدى معها البكاء ولا العزاء •

ولم يقف جهد « دوزى » عند عرض تاريخ هذه الحقبة الطويلة بل كان يعمد الى التحليل والنقد والاستنباط والتعرض بالبحث لكل فترة وللظروف البيئية ، فله رأيه الخاص فى النصارى الذين سلكوا سبيل المقاومة السلبية ، وله آراؤه الذاتية فى كل شخصية وتأثير البيئة والنشأة

والتربية وظروف الزمان والمكان ومدى استطاعة كل واحد التأقلم ، كما أنه يرجع الضعف الذى انتاب الأندلس الى « جمود النظم » وليس الى روح الاسلام ، وبذلك عرف الاسلام وجوهره فأنصفه .

★★★

هذه كلمة موجزة نقدم بها هذا التاريخ الأندلسى فى مجموعه ، وقد يحق للقارىء أن يقف على جانب من سيرة مؤلفه « دوزى » فنقول انه هولندى الجنسية يرجع الى اقليم « دويزى » d'Oisy الذى كانت تعيش فيه فى مطلع القرن السابع عشر الميلادى أسرة شريفة تسبت اليه ، ثم كان لهذه الأسرة فروع فى بعض نواحي هولندة ، حتى اذا كان يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٢٠ تزوج واحد من هذه الأسرة اسمه « فرانسوا جاك دوزى » من « سارة مارية » فأنجبت له ولدا سماه « رينهرت » هو مؤلف هذا الكتاب ، وفرح الوالدان بمقدم الوليد الذى ما كاد يبلغ التاسعة من عمره حتى أمه فأودعوه احدى المدارس التى تكفل له الحياة والتعليم ، ولم يكن الظن بهذا الطفل الا أن يكون كبقية أطفال المدرسة ، لكنه ما لبث أن أظهر من الذكاء ما دل على عبقرية مستغربة لمن كان فى سنه ، لذلك لم تكد تنقضى خمس سنوات (أى أنه ما كاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره) حتى قدموه لأستاذ لم يكن يختص الا بمن يتوسم فيهم النبوغ ، ذلك هو دكتور « خلدر » Gelder الذى كان يصطفى طائفة ممن يدرســون اللاهوت فيلقنهم العربية ومبادءها ، ولاحظ « خلدر » براعة هذا الصبى فعزم أن يعلمه هذه اللغة اذ أدرك انه نبتة طيبة ، لو تعهدها المسئولون بالعناية والرعاية والتثقيف لأنجبت رجـــلا يعتـــد به فى الغوص فى الكتب العربية .

وصدق « جلدر » فيما توسمه فى تلميذه « دوزى » الذى لم يكن يكتفى بما يلقيه اليه أستاذه من دروس فى لغة القرآن ، ولا شك أنه حفظ الكثير من آياته وتابع حفظه فاستقام لسانه فى هذه اللغة وتمكن من التعمق فى مطالعاته فيها ، ومضى الطالب « رينهرت » فى دراسته دراسة أهلته للالتحاق بجامعة ليدن ، وشاءت الظروف أن يلتقى فيها بالعالم اللغوى الكبير « فايرس » Weijers الذى كان ممن أسهموا بنصيب كبير فى دراسة النحو العربى ، والذى كان نعم المعلم لتلاميذه ، فتلقى « صاحبنا » دوزى على يده العبرية والسريانية فى اللحظات التى أظهر فيها ميلا شديدا للشعر العربى فراح يلتمسه فى مظانه ومصادره القديمة ، فنمت فيه حاسة تذوقه للشعر حتى كان من اليسير عليه أن يفرق بين غثه وسمينه ، ويتجلى هذا واضحا فى استعماله الشعر فى بيان أحوال عهد بنى عباد ، واتخاذه اياه مصدرا لتأريخه لهم بل ولمن سبقوهم . وربما كان ذلك داعيا اياه بعد حين للاهتمام بالشاعر المعتمد بن عباد ذى الأسلوب القويم الفصيح ،

وسيتجلى ذلك على وجه الخصوص فى القسم الأخير من كتابنا هذا فى عرضه لملوك الطوائف ، ولدراسته فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب للحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية بالاستعانة بهذا الشعر واستنطاقه اياه مما أمده بمادة غزيرة .... والشعر كان ديوان هذه الحقبة من الزمان .

واذا كان « دوزى » قد اهتم فى هذه السن المبكرة بالشعر فقد اهتم أيضا بمعاجم اللغة ، وواتته الفرصة لاظهار موهبته حين أعلن المعهد الملكى الهولندى عن مسابقة لوضع دراسة عن الملابس العربية فتقدم لها الطالب الشاب « دوزى » ، وأشفق عليه أصدقاؤه وبقية العلماء الضاربين بسهم فى هذا المجال ادراكا منهم للصعوبة التى لابد أن يلقاها اذ يقتحم هذا الميدان البكر ، ولم يكتموا عنه مخاوفهم لكنه لم يكترث بها :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وانكب على ما هو بصدده انكبابا صادقا خرج منه بعمل قل أن يخرج به سوى عالم كبير تكون الضاد لسانه الأصلى ، ويكون قد نشأ فى وسط عربى خالص .

على أن اقدامه على هذا العمل كان يتطلب توفر قدر كبير من المصادر وعيون الكتب العربية القديمة والحديثة كي تساعده على المضى قدما فيما هو بصدده بهمة لا تعرف الكلل ، ولا يعتورها الملل ، ولا يتسرب اليها الكسل ، غير أن ذلك تطلب منه الاطلاع على مصادر جمة لم تأل الجامعة جهدا فى توفيرها له ، لكنها أثقلت ميزانيتها اثقالا حملها على أن تطلب اليه ــ فى أسلوب مهذب وان شف عن بعض التذمر ــ تقديم ما يبرر هذا الاسراف فى الصرف ، فقدم ما أرادته منه لكن استاذه « فايرس » الذى اضطر لالتزام الحياد فى هذا الموضوع لم يجد بدا من أن يتخلى عن موقفه الحيادى هذا فساند تلميذه وأفهم المسئولين ضخامة العمل الذى يقوم به هذا الطالب الذى لم يخذل أستاذه فقدم الى الجامعة ما أنجزه من قاموسه عن الملابس فى صورته الأولى ، وان لم يكن راضيا عنها كل الرضا فيما بينه وبين نفسه ، ومن ثم دأب على اكمال المعجم حتى أخرجه بعد عامين (أعنى سنة ١٨٤٥ م) على الصورة التى هو عليها الآن ، ودفع به الى المطبعة فكان أول عمل ينشر له وسماه Dictionnaire detaillé de noms des Vêtements chez les Arabes وقد ترجم الى العربية حديثا فى العراق

ويشير هذا المعجم بوضوح تام الى ما عليه مؤلفه من الدقة المتناهية وسعة الاطلاع والنظر فى كتب كان أكثرها فى يومه لا يزال وهن المخطوطات

وهي مبعثرة في مكتبات هولندة وبعض الأقطار الأوربية الأخرى ، كما دل هذا المعجم على ما ينتظر صاحبه من تألق نجمه في عالم البحث والاستشراق مما يكسب الدراسات الاستشراقية في هولندا عالما جليلا يضاف الى سلسلة علمائها في هذا الميدان :

واذا رأيت من الهلال نموه   أيقنت ان سيصير بدرا كاملا

فلما كان العام التالي عام ١٨٤٥ م استعد « دوزى » للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة ليدن ، كما تزوج في نفس السنة من الآنسة « مارية كارولينا فاندين أوسترلينج Maria Carolina Vanden Osterlingh التى وجد فيها نعم الزوجة والرفيق والصديق طوال حياته ، والتى لم تكن تألو جهدا في توفير المناخ المنزلى الطيب لمساعدته ٠ ولو على حساب صحتها ، وكانت تنظر الى ما يعمله بعين ملؤها التعظيم والاعجاب بما تتمخض عنه قريحته ويخطه قلمه ، ادراكا منها أنها زوجة لرجل يبشر بمستقبل باهر رغم المضايقات التى يتعرض لها وان لم يأبه بها ، يقينا منه بأنها زبد سوف يذهب جفاء،وان ما هو بصدده ــ حين يتم ــ انما فيه نفع لطلاب العلم على اختلاف لغاتهم وألوانهم وجنسياتهم ودياناتهم ٠ وكان الحادث الوحيد الذى أزعجه كل الازعاج وعكر صفو حياته هو موت ولده الصغير فوجد عليه وجدا شديدا ، وكان من سخريات القدر انه في اليوم الذى عين فيه « دوزى » أستاذا للتاريخ في جامعة ليدن أصيب بفقد هذا الولد وذلك سنة ١٨٥٠ م ٠

ما أن تزوج « دوزى » من مارية كارولينا حتى انطلقا الى ألمانيا لقضاء شهر العسل ، ولكن ما طبع عليه من الانصراف الى العلم والبحث والتدقيق حمله على التفتيش في المكتبات الألمانية عما فيها من نصوص تتفق ودراساته الاسلامية ، وهنا تسنى له جمع مادة طيبة كبيرة من المخطوطات التى تتعلق ببنى عباد ، وربما كان من أكبر ما وفق اليه في شهر عسله هذا في ألمانيا تعرفه على العالم الألمانى والمستشرق الكبير « هنريخ فليشر » Heinrich Fleischer وسرعان ما توثقت بينهما عرى صداقة استمرت أكثر من ثلث قرن وان لم يخل الأمر من منازعات علمية بينهما ، لكنها لم تتمكن من تصديع بنيان صداقتهما أو تغمز قناة اكبار كل منهما للآخر على الرغم من عنف هذا النزاع في بعض الأحيان ، ذلك أن « فليشر » كتب اليه نقدا شديدا ــ وربما بدى للبعض ــ جارحا عن كتابه Analectes » لكن دوزى تلقى هذا النقد بصدر رحب دل على أستاذيته ، وأن العلم عنده فوق كل شيء ، ولم يغضبه ما قاله « فليشر » بل كتب اليه يشكره شكرا جزيلا ، ثم زاد على ذلك فنشر في سنة ١٨٦٧ م نقد « فليشر » في كتابه

ثم أعقب ذلك بمقال جعل عنوانه « رسالة Collections et Corrections الى فليشر » تتضمن ملاحظات عن نص المقرى ٠ والحق أن هذه المجادلات النقدية كانت دراسات أدبية وعلمية جادة تؤرخ سيرة النقد والنقاد وتصور التعاون بين علماء ذلك الجيل العظام الذين لازلنا نذكرهم ــ وسوف يظلون مذكورين ــ بالاجلال والاحترام ٠

على أن الحظ واتى « دوزى » فى زيارته هذه لألمانيا فوفق فى العثور فى مكتبة جوته ــ وكان ذلك بطريق الصدفة البحتة ــ على مخطوطة قيل انها للمقرى ، فنقلها وانكب على دراستها ، فتبين له بالبحث والتدقيق ــ أنها ليست للمقرى ولكنها من « ذخيرة ابن بسام » ، وتتعلق بالسيد « القمبياطور » ٠

وفى ربيع ١٨٤٥ م ــ وفى الشهور الأولى من زواجه ــ سافر « دوزى » الى انجلترا وذهب الى أكسفورد حيث وجد فى مكتبة « بودليان » ما روى ظمأه للبحث ، ونسخ من هناك ما أسعفه الوقت بنسخه ، كما اطلع على قدر لا بأس به من مخطوطات تتعلق بالاسلام والدول الاسلامية ، وان كان اهتمامه منصبا على وجه الخصوص على ما يتعلق بتاريخ الأندلس سياسيا وثقافيا واجتماعيا ٠ وظهر ذلك فى قيامه فى العام التالى (١٨٤٦ م) بنشر الجزء الأول من كتابه

Commentaire historique d'Ibn Badrun sur le poème d'Ibn Abdun.

ولم يقف جهده عند نشر المخطوطة بل تعداه الى قيامه بشروح كثيرة واضافات جمة وتعليقات تاريخية وفوائد لغوية ، كما زودها بملاحق ٠٠٠ كل ذلك فى وقت لم يكن النشر العلمى قد كملت له أدواته ، اذ كان يقوم على المجهود الذاتى الذى أسهم فيه المستشرقون الأوربيون عامة والهولنديون خاصة اسهاما كبيرا ٠

على أن « دوزى » وجد فيما عثر عليه من كتابات ابن بدرون ما يلقى كثيرا من الضوء على فترة دخول المرابطين الى الأندلس والظروف التى أحاطت بهذا الدخول ، كما عمل فى نفس السنة على نشر مخطوط لعبد الواحد المراكشى عثر عليه بمكتبة جامعة ليدن ٠

ان الفترة التى تنهى بسنة ١٨٤٩ م أتاحت له فرصة طيبة للجمع والتحصيل والنقد والتحليل لجوانب متعددة تاريخية وأدبية ، وللوقوف على ما صدر من كتب المستشرقين فى مجالات الدراسات الاسلامية ، وكان

يرى احتفاء علماء الأندلسيات العظيم بكتاب « ج ٠ أنتونيا كونديه » عن تاريخ احتلال العرب لاسبانيا

Historia de la Dominacion de les arabes en Espagna

احتفاء كبيرا يشير الى اهميته لا سـيما وهو يتناول موضـوعا فريدا قوذ لو اطلع عليه فى لغته الأصلية فعكف على تعلم الأسبانية حتى يتسنى له الاطلاع المباشر عليه لعله يهديه الى مزيد من المعلومات عن تاريخ العرب فى الأندلس ، لا سيما وانها من قلم كاتب من أبناء البلد وان تأخر به الزمن ، فلما طالع الكتاب ـ وقد تمكن هو من الأسبانية ـ وقارنه بما هو وارد فى المصادر الأصلية العربية سواء منها المخطوط أو المطبوع تبين له للأسف الشديد أن كتاب كونديه مليء بالأخطاء وبالمغالطات التاريخية التى أداه اليها عدم المامه بالعربية الماما صادقا ، كما أنه وجده قد عمد الى أمر لم يسعه السكوت عليه ، فالساكت عن الحق شيطان أخرص ، أما هذا الأمر الذى عمد اليه كونديه فايراده لأحداث وأخبار من ابتداعه هو ذاته ، ولا تجد لها مكانا قط فى التاريخ الأندلسى لأنها مصـنوعة ومزيفـة ، ولا يؤيده فيها المصادر العربية ولا الأسبانية ، وبلغت الجرأة بكونديه أنه راح يزعم أنه ترجمها من العربية اعتمادا على جهل القراء بهذه اللغة ، وانهم لن يفتشوا عن هذه المراجع ، وغضب « دوزى » أشد الغضب ان يقوم رجل يعد فى طليعة علماء ذلك الجيل بتزييف التاريخ على هذه الصورة المقوتة ، ورأى فيما فعله كونديه جريمة لا تغتفر ، وتدليسا حقيرا ، واستهانة بالعلماء والباحثين الذين اذا قرؤوا هذا الكتاب خرجوا بنظريات وآراء لا سند لها من الحقيقة التاريخية ، اعتمادا منهم على كونديه باعتباره عالما عارفا بالعربية ـ كما يظنون ـ وفى ظنهم حينذاك أنه رجع الى الأصول التاريخية فيها ، فلما رأى « دوزى » ما ارتكبه « كونديه » نشر فى سنة ١٨٤٩ م نقده أو تسفيهه لهذا الكتاب ومؤلفه فى الطبعة الأولى من الجزء الأول من كتـابه « أبحاث فى التاريخ السـياسى والأدبى فى العصر الوسيط Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le moyen-age.

وترتب على هذا النقد القائم على أسس علمية بحتة وعلى رغبة صادقة فى بيان الحقيقة أن قام العالم والفيلسوف الفرنسى رينان ـ صاحب المواقف والمجادلات المعروفة مع الأستاذ الشـيخ محمد عبده ـ بمهاجمة كونديه هجوما أعنف من هجوم « دوزى » عليه ، وكان رينان قاسيا أشد القسوة فى تجريح كونديه ، وكان هذا العمل منه شهادة لدوزى ودليلا على ثقته فيما يقولـه هذا العالم الهولندى صـاحب المؤلفـات والمخطوطات الجمـة والدراسات الكثيرة فى تاريخ الأندلس ٠

لم يكن « كونديه » وحده هو الذى تعرض لهجوم دوزى بل لم يسلم

صديقه المستشرق الأسبانى « دون باشكوال دى جايا نجوس » من نقده العنيف ، لكن نقد « دوزى » هذه المرة كان منصبا على اختلاف وجهات النظر وتباين الرأى بين الاثنين ، ولم يؤثر هذا النقد ــ وان كان مرا ــ على تقدير كل منهما للآخر فالخطأ فى الوصول الى النتائج و رد عند العلماء ولكن المرفوض هو التزييف والتدليس وخلق أحداث لم يكن لها وجود ٠

واذا كان « دوزى » قد هاجم العلماء الأسبان هجوما نراوح بين اتهام أحدهم بالتزييف ووقوع آخر فى أخطاء أداه اليها اجتهاده أو عدم تمكنه من الوصول الى النص الصحيح أو تقويمه فان ذلك كله لم يمنع اسبانيا من أن تختار « دوزى » عضوا مراسلا لأكاديمية التاريخ بمدريد ، كما أنعمت عليه بعد سنتين بلقب « فارس نظام شارل الثانى » ٠

★ ★ ★

ولقد عنى « دوزى » بتحقيق ونشر طائفة من الكتب العربية ما بين تاريخية وأدبية ، فاهتم مع بعض المستشرقين بنشر كتاب « نفح الطيب للمقرى » وصدر بعنوان Analectes sur l'histoire et la Litterature des Arabes d'Espagne واستغرق ذلك فترة قاربت ست سنوات من ١٨٥٥ حتى ١٨٦١ م ، على أنه خلال الفترة التى قام فيها بنشر المقرى نشر بضعة مقالات فى مجلة « دى خيدس « de Gides » وكانت من المجلات العلمية الجادة ، كما تسنى له أن يعثر على مخطوطتين للشريف الادريسى لنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، احداهما فى باريس والأخرى فى آكسفورد ، فنهض بتحقيقهما ومقارنة الواحدة بالأخرى ، ونشر نسخة مصححة مع ترجمة لها وكثير من الملاحظات النقدية وصدر ذلك بعنوان
Description de l'Afrique et de l'Espagne

وكان قد بدأ هذا العمل العظيم الذى قدر له أن يرى النور على يديه قبل سنة ١٨٦٤ م ثم أتمه بالتعاون مع تلميذه «دى خويه» (١٨٣٦ ــ ١٩٠٩) الذى كان ملما أدق الالمام باللسانين اليونانى واللاتينى ، والذى اذا ذكر ذكرت أياديه البيضاء فى نشر كثير من الكتب الجغرافية فى المجموعة المسماة بالمكتبة الجغرافية العربية ، كما قام بنشر مخطوطات أخرى فى التاريخ والأدب ، سواء ما نهض هو وحده بنشره ، أو شاركه فيه غيره من المستشرقين الهولنديين ٠

وكان « دوزى » قد نشر قبل هذا فى سنة ١٨٤٨ م الجزء الأول من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى مع مقدمة علمية دقيقة له وملحق وبعض الملاحظات النقدية ، ثم اتبعه بالثانى ثم قام المستشرق الفرنسى « ليفى بروفنسال » باصدار الجزء الأخير منه ٠

وتنوعت اصدارات « دوزى » ما بين مخطوط يحققه ، وموضـوع يبحثه ، وكتاب يؤلفه ، ودراسة ينشرها ، ومحاضرة علمية يلقيها ، ولم يكن اختياره أمينا لمكتبة الجامعة ناجما من فراغ ، بل انه كان أهلا لهذا المنصب الذى يعتبر فى أوربة منصبا لا يتطلع اليه الا العالم الكبير ، ولا يساق الا للعلماء الجهابذة الأفذاذ .

ثم لما كانت سـنة ١٨٥١ م نشر دوزى القسـم الأول من مقالاته التـاريخية والنقـدية فيما سـماه بملاحظـات عن بعض المخطوطات العربيـة Notices sur quelques manuscrits arabes وهـو عنـوان متواضع أشد التواضع بالنسبة الى ما احتواه الكتاب بين دفتيه من علم وتحقيق وبحث واطلاع .

ثم نشر بعد حين الجزء الثانى من أبحاثه Recherches، كما أعاد فى الوقت ذاته طبع الجزء الأول من هذا الكتاب لنفاذ طبعته الأولى ، وأجرى فى الطبعة الجديدة تعديلات جمة وتنقيحات كثيرة واضاف اليه اضافات جديدة وصحح فى بعضها بعض ما ورد فى طبعته الأولى .

★★★

لقد تتلمذ دوزى على يد « فايرس » الذى كان أستاذا بجامعة ليدن ، ونشر عدة مخطوطات أفصحت عن رسوخ قدمه فى هذا الميدان ، كما أتم تحت اشراف أستاذه هـذا وبتوجيهه أطروحته الجامعية للدكتوراه التى ضمنها مقتطفات من « مطمح الأنفس » و « قلائد العقيان » وكلاهما للفتح بن خاقان ثم طبعهما ما بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٦٣ م .

كذلك أتيح لدوزى ــ وهو أستاذ بالجامعة ــ أن يرد عددا غير قليل من الكلمات الهولندية الى أصولها الشرقية والعربية ، وذلك فى كتاب سماه « بالمشرقيات » Oostellingen بين فيه بجلاء أصول بعض الكلمات ــ وهى كثيرة ــ وهذه الأصول ما بين عربية وعبرية وفارسية وغيرها من اللغات الشرقية ، فدل ذلك على المامه الواسع بهذه الألسن ، وقد دفعه ذلك لأن يعاود النظر فى كتاب « انجلمان » الهولندى المعروف واضاف اليه ما اعتبر وحده كتابا مستقلا ، وقد أدى ذلك بأكاديمية الآثار والآداب الفرنسية الى منحه جائزة فولنى فى يوليو ١٨٦٩ م .

★★★

كان « دوزى » قبل ذلك ببضع سنوات ، أعنى سنة ١٨٦١ م قد وضع كتابه عن « تاريخ مسلمى اسبانيا » الذى نترجمه الى العربية وقد أفنى فى جمع مادته وترتيبها وعرضها ونقدها عشرين سنة من عمره ، كما أثار صدور الكتاب باللغة الفرنسية موجة عارمة من الغضب المكتوم

ضده في هولنده ، فقد رآى الهولنديون فى ايثار صاحبهم الفرنسية على لغتهم امتهانا للسانهم ، فغمزه بعضهم فى وطنيته ، وما علموا أنه بكتابته اياه على هذه الصورة ونشره باللغة الفرنسية قد كسب مجدا لوطنه ، وربما كانت حجته فيما بينه وبين نفسه فى هذا الاتجاه لنشره بالفرنسية أن يتيح له انتشارا أوسع فى الأوساط العلمية الكبرى وبين المستشرقين فى أوربة الذين كانوا يعرفون الفرنسية أكثر من الهولندية فيعود ذلك بالثناء على بلـده ·

على أية حال فقد ظل هذا الغضب مكتوما فى الصدور مدة عامين حتى نهض الأستاذ « فيث » Veth بالتنويه بالكتاب وصاحبه فى بحث مطول نشره فى مجلة « دى خيلد » عام ١٨٦٣ م وبين فيه أنه يحتل الصدارة فيما كتب عن هذا الموضوع ، غير أن هذا التقريظ لم يمنع صاحبه من أن يقول انه كان يتمنى لو أن « دوزى » كتب ما كتب بالهولندية اذن لوجد من الاشادة به ما هو قمين به وأهل له ، « ولكان عمله اذ ذاك يعد من مفاخر الأدب الوطنى » واذا كان هذا الاستدراك من جانب « فيث » يحمل فى طياته اللوم فانه فى الوقت ذاته يزيد من بيان قيمة الكتاب الجليلة والتقدير العظيم له ولصاحبه ·

ولقد ترجم هذا الكتاب الى الأسبانية مرتين كل منهما بقلم واحد غير الآخر ، كما ظهرت له ترجمة بالانجليزية بقلم Stockes طبعت مرتين ، ثم ترجم الى الألمانية ، وها هو اليوم يظهر فى العربية · بل ان هولنـده نفسها — فى العقد الرابع من القرن العشرين — أرادت كتابة تاريخ لاسبانيا وتألفت لجنة عهدت بها الى المستشرق الفرنسى « ليفى بروفنسال » العالم الحجة فى التاريخ الأسبانى الاسلامى ، فرأت اللجنة أن كتاب دوزى هذا الذى نترجمه واف من كل ناحية ليكون مرجعا — ويكاد يكون وحيدا — فى تاريخ مسلمى اسبانيا ، فقام ليفى بروفنسال باعادة طبعه فى هولنده بمكتبه بريل مع تصحيحات طفيفة وقدم له مقدمة موجزة ندرج ترجمتها هى الأخرى فى هذه الترجمة العربية ، ثم أضاف دراسة علمية موجزة عن المرابطين وقد ترجمناها هى الأخرى ، وسترد فى الملاحق المذكورة فى ختام الجزء الأخير من هذه الترجمة العربية ·

★★★

لم تكن كتابة دوزى لتاريخ مسلمى اسبانيا بالفرنسية بقادحة فى وطنيته ، وما كانت عن تقصير فى اتقانه للغته ، وقد اتبع ذلك بنشر كتاب بالهولندية عن « اليهود فى مكة » سماه Israeliten te Mekka كان أول دراسة علمية موثقة عن هذه الناحية الدقيقة أثارت من الثناء عليه مثل الذى أثارته من القدح فيه والهجوم عليه ، لا سيما من جانب اليهود فى

ألمانيا . وقد ترجم هذا الكتاب أيضا الى الانجليزية . وأقبلت عليه الأوساط العلمية الكبير اقبالا يشهد بأنه كان فتحا جديدا فى ميدان الدراسات العربية اليهودية فى شبه الجزيرة العربية حتى قبل الاسلام .

واذا كانت سنة ١٨٦٩ م قد شهدته وهو يودع وظيفته كأستاذ للدراسات الشرقية والتاريخ فى الجامعة بليدن الا أن هذه السنة ذاتها شهدت نشاطه العلمى الدفاق وقد أوفى على نصف قرن من عمره ، وكان فى مقدمة هذا النشاط ما نشره فى « الجورنال ازياتيك » جريدة العلماء الكبار من نقد دقيق لترجمة « دى سلين » لمقدمة ابن خلدون ، ثم ما أشرنا اليه من اصداره طبعة منقحة مزيدة من كتاب « انخلمان » عن الكلمات الأسبانية والبرتغالية المستمدة من العربية مع اضافات جديدة جمة كانت فى مجموعها وفى حد ذاتها هى الأخرى كتابا مستقلا قابلته الأوساط العلمية فى هولندة وفرنسا واسبانيا وألمانيا وروسيا وغيرها من البلاد التى فيها مجامع علمية بالاجلال والتعظيم .

لقد كان اهتمام « دوزى » باللغة العربية كلغة حية لها قدرها ومكانتها فى تطور الفكر الانسانى ، وما دخلها من غريب على مر الزمن جزءا منها حتى استعرب وتدثر بعباءتها ... أقول كان اهتمامه بهذا كله باعثا على وضع معجمه العظيم الذى يكل الكثيرون عن تبييضه بل تأليفه ، وهو المعجم المعروف باسم الذيل أو الملحق للمعاجم العربية
Supplement aux dictionnaires Arabes

وهو معجم يشهد لصاحبه بانه أمة فى هذا الميدان ، وقد طبع فى هولندة سنة ١٨٨١ م ثم أعيد طبعه فى بيروت بالتصوير منذ بضع سنوات ، ويدل فى ضخامته وغزارة مادته واستشهاداته الجمة واشاراته المتعددة الى المصادر المختلفة الى تمكن صاحبه من العربية ومن غيرها من اللغات التى ربط بينها المؤلف وبين الألفاظ المستحدثة والدخيلة فى الضاد ، وكان « دوزى » سعيدا كل السعادة بهذا المعجم الذى ذكر أنه عمل فيه فى ساعات عافيته وسقمه ، وكان يخشى أن توافيه منيته قبل أن ينجزه ، ولكن الحمد لله أن أنجزه ورآه مطبوعا وهو « حى بين الأنام ، ولم تكن لمخاوفى أساس » ، ثم رآه فى أيدى الناس مدة عامين مات بعدهما وهو قرير العين بما أتم ، وليس من شك فى أنه عمل جليل رائع يشكره عليه جميع المشتغلين بعلوم اللغة العربية ، وسيظل شكرهم اياه موصولا على الدوام ما دام ثم اهتمام بهذه اللغة وآدابها وعلوم القرآن والحديث .

لقد كان أول من أثنى عليه المستشرق الألمانى « فليشر » فقد اعتبره أعظم قاموس فى لغة الضاد ظهر بعد معجم لين ، وفى هذا المدح لمعجم

« دوزى » من مثل هذا العالم الألمانى ما يفصح عن سمو مكانة المؤلف والمؤلف وعظيم قدريهما ، حتى لقد هنأه به تلميذه العالم اللغوى المستشرق « دى خويه » وهو من أعظم الدارسين لفقه العربية وأصولها .

والخلاصة أن أعمال « دوزى » فى مجال التاريخ والأدب وتحقيق المخطوطات النادرة بهذه الصورة العلمية الدقيقة وما نشره من أبحاث ودراسات ونقود ، ومحاضراته العلمية فى ميادين الأدب العربى والتاريخ والسياسة الاسلامية الأندلسية والعلاقات بين المجتمع العربى والمجتمعات الأخرى وفى الفلسفة ما يجعل منه قمة فى كل هذه الميادين ، وتجعل منه العالم الألمعى والباحث اللوذعى البعيد عن التعصب الا للعلم الصحيح ، فقد كان يعنيه أن يخلف من بعده تراثا غير مغموز ، فكان له ما أراد ، وحسبه هذا من ثواب لا يبلى ، ولا ينفد .

ولقد اكبرت أكثر من حكومة والمجالس العلمية والأكاديميات فى أوربة ما قدمه دوزى من الآثار الفكرية التى كانت مصابيح فى طريق التنوير ، فقامت اسبانيا — كما أشرنا — باختياره عضوا مراسلا لأكاديمية التاريخ الأسبانية بمدريد ، وكرمته بلجيكا فاختارته عضوا فى أكاديمية العلوم بكوبنهاجن ، ثم تلتها روسيا القيصرية فجعلته العضو المراسل لأكاديمية العلوم فى سنت بيترسبرج .

ثم شهد العام التالى (١٨٧٩ م) عالمنا المؤرخ « رينهرت دوزى » يقتعد مكانه عضوا فى الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية Deutsche Morgenlandische Gesellschaft ، ثم اختير عضوا مراسلا فى ١٨٨٠ م بالأكاديمية فى رومة المعروفة فى الأوساط العلمية باسم Academia dei Lincei ثم اختير أستاذ شرف فى المعهد الأسبانى الشهير Istitucion libre de Ensenanza واذا لم يكن قد نال حظه فى المجامع العربية فها هو ذا اليوم بعد موته بأكثر من قرن يكتب لاسمه أن يكون مذكورا على ألسنة الناطقين بالضاد فى ترجمته لكتابه عن الأندلس الاسلامية ، ومن ثم فهو حى بأبحاثه ومؤلفاته ومترجماته وتحقيقاته . والذكر للانسان عمر ثانى .

ان هذا الرجل الذى أدان التاريخ بما تركه من آثار فكرية ، ولم يكن ليهدأ لحظة الا ليعود فيتابع نشاطه المرموق قد غلبه الموت فأطفأ شعلة حياته المتقدة يوم ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م فطويت صفحة ناصعة مشرقة لمستشرق كان أول من اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية تأليفا وتحقيقا وتدريسا ونقدا .

لقد مات دوزى قبيل انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولى فى لندن ، والذى كان مقدرا أن يرأسه ، وانعقد المؤتمر ودوزى تحت الثرى ، ولكن قرىء بحثه الذى كان قد أعده ليلقيه فى هذا الجمع من كبار العلماء ، وبذلك ظل صوتهفى المجامع العلمية حيا وميتا ٠

فتحية تقدير لهذا المستشرق لما ترك من آثار علمية سعد بها من قرأوه مؤلفا ، وعرفوه محققا ، وتتلمذوا على مؤلفاته فى حياته وبعد موته ٠

وهنيئـــا لهولنـــدة أن أنجبت هذا العـــالم الفذ والمؤرخ الحجة واللغوى الكبير والباحث المدقق الذى ظهر تأثره بالروح العربية الاسلامية فى أنه نعت نفسه فى بعض ما كتب « بالعبد الفقير الى رحمة ربه » ٠ وانا جميعا لفقراء الى رحمة الله تعالى ٠

وما لنا الا أن نقول رب انى لما انزلت الى من خير فقير ٠

القاهرة ١٩ رجب ١٤١٥ هـ / أول يناير ١٩٩٤ م

د ٠ حسن حبشى

مقدمة المؤلف دوزى

للطبعة الأولى من كتابه الذى نترجمه الآن

لقد ظل تاريخ اسبانيا ــ لا سيما مسلميها ــ مجال دراستى الأثير الذى صرفت همتى لانجازه على مدى عشرين سنة كاملة من غير انقطاع ، وأمضيت قبل الشروع فى وضع هذا الكتاب الحالى ردحا غير وجيز من عمرى فى جمع مادته المبعثرة فى مكتبات أوربة التى قل أن تخلو احداها منها ، ثم عمدت الى النصوص المتعلقة بالموضوع فقارنت بعضها ببعض ، وقمت بنشر عدد ليس بالقليل منها ٠

ومع ذلك فانى لاأقدم هذا التاريخ للقارىء الا وأنا وجل غاية الوجل ، وهائب كأشد ما تكون الهيبة نظرا لجدة موضوعه ٠

وقد أشرت فى موضع (١) غير هذا الى أن الكتب التى عالجته قد جانبتها الدقة لاعتمادها أساسا على كتاب « كونديه » ، وهو رجل لم يكن فى متناول يده من مادته الا التافه الضئيل والنزر اليسير ، كما كانت تعوزه معرفة اللغة العربية معرفة صحيحة تمكنه من فهم ما تحت يده ، هذا الى جانب أنه كان يفتقد الحاسة التاريخية فقدانا تاما ، ومن ثم لم تكن مهمتى قاصرة على القاء الضوء على الحقائق التى فسرها من سبقونى تفسيرا خاطئا وأدت بهم الى الخروج منها بنتائج مغايرة ، بل رأيت الضرورة تلزمنى بالغوص حتى أصل الى الأصول الأولى لموضوع مسلمى اسبانيا اذا ما أردت أن أجعله ــ ولأول مرة ــ ينبض بالحياة على صفحات التاريخ ، واذا كانت جدة هذا الموضوع واحدة من العوامل التى تجذب النفوس اليه فان هذه الجدة كانت فى الوقت ذاته مصدر كل الصعاب التى صادفتها ٠

وأعتقد أنى لا أكون مجانبا الحقيقة ان قلت انى أكاد أكون قد رجعت تقريبا الى معظم المخطوطات الموجودة فى أوربة ، المتعلقة بتاريخ مسلمى الأندلس رجوعا مكننى من دراسة موضوعى والالمام به من شتى جوانبه ٠

---

(١) وأقصد بذلك الطبعة الأولى من ابحاثى عن تاريخ اسبانيا وادبها فى العصر الوسيط :

Recherches sur l'histoire et la literature de l'Espagne pendant le moyen âge.

ولما لم يكن هدفي هو كتابة مؤلف علمي جاف أقصره على طبقة معينة من الناس فقد حرصت على ايراد جميع الأحداث التي وصلت الى،وتحاشيت اتخام صفحات كتابي هذا بالتفاصيل الزائدة المملة • كما عنيت من جانب آخر بالالتزام بالمقاييس الأدبية التي تجعل الصدارة في التأليف التاريخي لحقائق طبقة معينة يكون كل ما عداها تبعا لها ، ولهذا فكثيرا ما وجدت نفسي مضطرا ليس فقط لأن أجمل في سطور قليلة ثمرة اطلاع أسابيع عدة بل وجدتني مرغما – زيادة على ذلك – على السكوت عن أمور جمة ليست بذات أهمية كبيرة لا يتمشى ادراجها هنا مع خطتي العامة •

ولقد رميت من ناحيه أخرى الى أن أضع بين يدى القارىء في وضوح تام كل الأحداث التي خيل الى أنها أصدق ما تكون لرسم صورة صحيحة لأزمانها ، لذلك لم أتردد في بعض الأحيان من أن أهدهد وقع مأساة التاريخ السياسي بأحداث عارضة ، وفي رأيي أن التاريخ في مجموعه يبدو باهت الصورة ممجوجا لا تقبل عليه النفوس اذا خلا من هذه التفاصيل المشوقة لما تلقيه من أضواء جانبية على العادات التي عاصرت هذا التاريخ ، كما أنني قنع بأنه لا يلائم موضوعي تلك الأســاليب التي يعمد اليها ذلك النفر من المؤرخين الذين يجعلون الصدارة فيما يكتبون للعموميات الواسعة الفضفاضة ، ولا يكترثون بالشخصيات العامة ولا الآراء أو الميول التي تعبر عن ذواتهم •

وبالاضافة الى ذلك فاني لم أدخر جهدا في الالتزام في « تاريخي » هذا بالواقعية الدقيقة لقناعتي بأن مزيدا من التوسع لن يسبغ عليه مزيدا من الحيوية والرونق ، لذلك تجنبت الاطالة السقيمة حتى لا تطفىء هذه الاطالة ما يجدر بهذا التاريخ من الوضوح ، ومن ثم لم أكثر فيه من الملاحظات ، ولم اثقله بالنصوص ، ولم أتخمه بالاقتباسات ، اذ ينبغي أن يكون المكان للحقائق وحدها ، والتزمت بالأسلوب العلمي فحرصت أشد الحرص على بيان المصــادر التي قامت عليها الحقائق التي توصــلت اليهــا •

★ ★ ★

وانه لمن الحق أن أشير الى أن أقساما من هذا الكتاب قد تمت كتابتها قبل ظهور أبحاث جديدة معينة أفادت النقد التاريخي ، فالفصول الأولى مثلا من مجلدى [عن الفتن الأهلية] قد تمت كتابتها قبل ظهور المقال القيم عن « محمد وأصول الاسلام» في مجلة Revue de deux Mondes بقلم الصديق العظيم العلامة رينان ، فقد كان كثير من الخواتيم التي توصل اليها كل منا تطابق الواحدة منها الأخرى الا أن كلا منا كتب ما كتب مســتقلا عن الآخر •

كذلك بقى فى عنقى واجب كريم هو أن أشــكر هؤلاء الأصــدقاء الأســاتذة : مــول ، ورايت ، وديفر يميرى ، وتورنبيرج ، ودوجـات ، وكالديرون ، ودى سلين الذين وضع بعضهم المخطوطات تحت تصرفى ، أو تفضلوا فى رقة وفضل فأمدونى ببعض المقتطفات والمقارنات بين بعض المخطوطات والبعض الآخر ٠

ليدن فبراير ١٨٦١ م ر ٠ دوزى

كلمة المستشرق الفرنسي

ليفي بروفنسال

(في تقديمه للطبعة الجديدة من تاريخ دوزى عن تاريخ الأندلس الذى نشرته مكتبة بريل بليدن ، واشرف على طبعه والذى اعتمدناه فى ترجمتنا العربية باجزائها المختلفة) ٠

يجمع المستشرقون والمؤرخون على أن ظهور كتاب « تاريخ مسلمى اسبانيا » للعالم الهولندى البارز « رينهرت دوزى » الذى تقوم دار بريل بطبعه ، والذى أوشكت ثلاثة أرباع قرن تمضى على ظهوره ـ هو خطوة كبيرة للالمام بفترة من تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، وكان تاريخ تلك الحقبة مقبورا فى الظلام الدامس ٠

لم يكن الأمر قاصرا على أن يبعث هذا الموضوع بأكمله ، بل لأنه كان عمـــلا تدعمـــه دعمـــا قـــويا أســس علميـــة جادة كل الجد ، لأنه خلاصـــة العـــديد من مطالعات دوزى ذى القـــدرة على ما بذله من جهد انتزع الاعجاب به حتى اليوم ، وذلك برجوعه فى مادته الى الأصول الأولى فى الحوليات العربية واللاتينية والاســبانية ، والتى كان معظمهـا لا يزال غير منشور ومطويا رهن المخطوطات المبعثرة فى أوربة وكانت هذه الأصول قادرة على القاء شيء من النور على تاريخ الاســلام الســياسى والاجتماعى فى شبه جزيرة ايبريا ٠

***

ولقد ظل تاريخ « دوزى » منذ صدوره عام ١٨٦١ م كتابا من عيون الكتب الكلاسيكية ، كتبه صاحبه بالفرنسية بالأسلوب الذى ربما كان متأثرا قليلا بروح العصر واعتورته هنات طفيفة ، ثم قيض له ان يترجم الى الألمانية مرة ، وأخرى الى الانجليزية ، ومرتين الى الاسبانية ، ودلت هذه الترجمات على خطورته ، كما دلت الفترات الفاصلة بين كل ترجمة وأخرى على قدر هذا الكتاب العظيم ، الذى نفدت طبعته الأولى الأصلية الموضوعة بالفرنسية وأصبحت نادرة الوجود ٠

كان هذا هو السبب الذى حدا بمكتبه أ · ج · بريل (التى اشتهرت منذ أزمنة بعيدة بالدراسات الشرقية متجلية فى مطبوعاتها الهامة) ، أقول كان هذا السبب الذى حدا بهذه الدار الى اعادة طبع نفس كتاب تاريخ دوزى ، فطلبت الينا أن نتحمل عبء اعداد هذه الطبعة الجديدة ، وكان دورنا في هذه الهمة متسما بالدقة والتروى والاكتفاء باعادة تقويم ما يحتاج الى تقويم كلما وجدنا ذلك ممكنا وجعله مطابقا لأسلوب وقتنا ، وكذلك تعديل رسم أسماء الأعلام العربية طبقا للرسم الذى تآلف المستشرقون عليه ·

كما عنينا بأن نضع في الملاحق ترجمة النصوص العربية التى لم تتوفر لدوزى للانتقال بها · ولقد كان شاغلنا الشاغل على الدوام هو ألا تجرى الا فى أضيق الحدود ما يلزم من التعديل فى المظهر العام لهذا العمل الجليل الذى سيظل الى مدى طويل محافظا على قيمته ، ولن يسقطه مرور الزمن ولا القدم من مكانته العالية التى يتبوؤها ·

أ · ليفى بروفنسال

كلمة شكر

ليس بشاكر الله من لا يشكر الناس ٠

أرى لزاما على ان أتقدم بالشكر الى الأستاذ الدكتور سمير سرحان الذى لا يألو جهدا فى امداد القارىء العربى ـ أيا كانت ثقافته ـ بكل ما هو ثمين فى شتى مجالات التنوير الفكرى ٠

كما أشكر الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان الذى كان حريصا على أن أقدم هذه الترجمة قبل غيرها للنشر فاستجبت له سعيدا ٠

وأشكر الدكتور فريد ليمهاوس Dr F. Leemhuis مدير المعهد الهولندى للآثار المصرية والبحوث العربية بالقاهرة والسيدة أنيتا كايزرس Mrs. Drs. A. Keizers أمينة المكتبة لتيسيرهما لى كل المراجع والأبحاث التى احتجت الرجوع اليها ٠

وأشكر زوجتى السيدة بدرية محمود الدخاخنى لمراجعتها معى بعض فصول هذه الترجمة واعدادها كل ما ترجمته للطبع ٠

القاهرة أول يناير ١٩٩٤ حسن حبشى

الفصل الاول

بيان موضوع هذا الجزء من الكتاب • طبقات المجتمع الاسبانى قبل الفتح وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية • فساد النظام الادارى • فوضى المتبربرين الذين حكموا اسبانيا وفصائلهم • مقاومة اتباع القديس اوجستين لهم • اهتمام الكنيسة بمصالحها الخاصة وتقديمها اياها على أوضاع الشعب التابع لها • انتشار الرق واستفحال شأن الاسترقاق • اضطهاد اليهود •

الفصل الأول

اسبانيا وقت الفتح العربى

موضوع هذا الجزء هو بيان الأحوال التى يسرت على المسلمين فتح اسبانيا ، وتلخيص النتائج الهامة التى تمخض عنها هذا الفتح ، واستعراض مافرضه الفاتح من وضع على السكان النصارى ، وأثر حكمه فى مصير طائفة بائسة وفيرة العدد ونعنى بها طائفة الرقيق والعبيد ، وتفصيل خبر المقاومة الطويلة العنيفة التى نهضت بها شتى طبقات المجتمع والتى كان قوامها طوائف النصارى والمولدين والحضريين والجبليين وملاك الأراضى الأثرياء والعبيد الطلقاء ، وساعد عليها تعصب الرهبان وحماسة نساء لبسن مسوح التقوى والشجاعة ، وظهور جيل جديد كان أقوى من الجيل الواهى الذى سبقه والذى كان موجودا بأسبانيا فى فجر القرن الثامن للميلاد .

***

كانت أسبانيا وقت أن تطلعت اليها أنظار المسلمين شديدة الضعف ، ميسرة تماما على من يغزوها ، ويرجع ذلك الى ما كان عليه مجتمعها من وضع مؤلم ، يتسم بالوهن الذى لم يكن جديدا عليها بل كان متأصلا فيها منذ وقت بعيد ، فلم تكن تفترق فى شىء — أيام كانت ولاية رومانية — عن بقية الأجزاء الأخرى من الامبراطورية أيام أن كانت تحت حكم القياصرة الأواخر من حيث الوضع المحزن ، حتى ليقول أحد (١) كتاب القرن الخامس للميلاد انه لم يعد للامبراطورية من كل ما كانت تملكه سوى الاسم » .

أضف الى هذا أننا نجد فيها قلة من الأثرياء يملكون مساحات شاسعة من الأراضى المعروفة باسم « لاتيفوندیا » شبه الاقطاعية ، وتقوم الى جانبهم فئة ضخمة من البرجوازية المنهارة والعبيد ورقيق الأرض .

على أن الأثرياء وأصحاب افمتيازات وجميع الذين يشغلون المناصب السامية فى الامبراطورية وهم الذين انفردوا وحدهم دون سواهم بأن

يســـموا بالأمراء ، والذين كانوا ينفردون بأن تســاق اليهم ألقــاب الشرف ، وكان هؤلاء كلهم معفون من جميع أنواع الضرائب التى تحملت عبأها الطبقة الوسطى وحدهـا ، كما كان هؤلاء المتميزون يتقلبون فى مطارف النعيم ، ويعيشون عيشة الترف والبلهنية فيســكنون القصور المطلة على الأنهار الجميلة ، والواقعة على ســفوح تلال تلاصقها كرمات العنب وأشجار الزيتون ، وحيث يقضى أصحابها أيامهم فى اللهو والسباحة والمطالعة والقنص والولائم •

أما قصــورهم فقد كسيت أبهاؤها بالطنــافس الشامية والايرانية المطرزة الموشاة ، فاذا حلت ساعة الأكل أثقل الخدم الموائد بأشهى أنواع اللحوم و فخر الأنبذة ، وترى الضيوف متكئين على سرر مغطاة بمفارش أرجوانية يتطارحون الشعر ، ويلقون السمع الى أجواق العازفين ويتطلعون الى الراقصات (٢) •

ولم تؤد حياة البلهنية هذه الا الى مضاعفة بؤس العدد الكبير من أهل البلاد ، ومع أن العامة من أهل المدن الذين يقومون بالاضطرابات لم يكونوا شديدى الشعور بهذا الوضع الا أن علية القوم كانوا يخشون شرهم ويراعون شعورهم فيطعمونهم على حساب سواهم من المواطنين ، ويعللونهم بالمناظر المثيرة المبتذلة السوقية •

***

أما الطبقة الوسطى المعروفة بالكوريال (أو صغار الملاك) الذين يسكنون المدن ويقومون بتصريف الامور المحلية فقد كانوا فى أشد حالات الضيق من جراء الضرائب الرومانية •

أما النظام الادارى الذى كان مفروضا فيه حماية الناس من الطغيان فقد أصبح وسيلة لتحقيق جميع أنواع الاغتصاب والابتزاز ، بل صار ضحية له ، ذلك أن قسطنطين الأول قطع المصدر الرئيسى لدخل المـدن والولايات باستيلائه على ممتلكاتها فى نفس الوقت الذى تضخمت فيه المصروفات الحكومية نظرا لازدياد البؤس العام ، ومع ذلك فقـد كان مقدرا فى أعضاء الكورى ــ وأعنى بهم سكان المدينة المالكين لعقار يزيد على خمسة وعشرين فدانا ولا ينتمون للطبقة ذات الامتيازات ــ أن يقوموا بسداد ما يعجز عن سداده الملزمون وذلك بدفعهم اياه من جيبهم الخاص • وعجز صغار الملاك عن تحطيم هذا الالتزام الذى تأصل وأضحى كلا موروثا الى حـد غدوا معه مرتبطين بالأرض ارتباطا لا يستطيعون معه بيعها دون ترخيص من الامبراطور الذى كان يعد نفسه المالك الحقيقى لجميع أراضى الامبراطورية ويعتبر رعاياه عمالا بها ، وكثيرا ما دفع اليأس صغار الملاك

الى ترك وطائفهم وقراهم للانخراط فى سلك الخدمة الحربية أو الاسترقاق. غير أن الحكومة ـ بعينها النفاذة ويدها الحديدية ـ كانت قلما تفشل فى كشف أمرهم وان كشفتهم أعادتهم قسرا الى طائفتهم ، فان لم يقدر لها النجاح فى ذلك أحلت مكانهم رجالا ذوى سمعة سيئة أو أشرارا أو هراطقة أو يهودا أو رجالا من طريدى العدالة ، ذلك لأن مرتبة صغار الملاك أو الكوريال التى كانت فى السابق مرتبة شرف وامتياز أصبحت سبة وعقوبة (٣) .

أما بقية الشعب فكانت اما مزارعين أو عبيدا ، وان لم تكن العبودية الزراعيه قد تلاشت غير أنه منذ مستهل العهد الاستعمارى أخذ الاسترقاق فى الانتشار بسبب عاملين أحدهما ما عاناه الريفيون الأحرار من الفقر والضيق الشديد ، وثانيهما هو ارتقاء أحوال عبيد الأراضى ، ومن ثم كانت هذه الحال وسطا بين الحريه والاسترقاق ، الذى لم يكن له فى بادىء الأمر من قانون سوى العرف أو التعاقد ، ثم أصبح منذ عهد دقلديانوس (٤) ـ مسألة نظام عام ومهمة حكومية وموضوعا يشغل على الدوام بال الدولة التى اضطرت ـ بأى ثمن ـ أن تدفع الفلاحين الى المزارع المهجورة ، وبالجند الى الجيش ، ومن ثم صار لهذا النظام أسلوبه الذى يميزه عن سواه وأصبح له عسكره وقوانينه الخاصة به ، أما عمار الأراضى الذين عهد بهم الى مالك الأرض الذى كانوا يأخذون جزءا معينا من غلته ـ فقد أصبحوا من بعض الوجوه ـ فى حال أحسن من الرقيق ، اذ أبيح لهم الزواج الذى حرم على الرقيق ، وصار فى استطاعتهم امتلاك الأراضى دون أن يتمكن سيدهم من مصادرة أملاكهم وان حرم عليهم التصرف فيها بالبيع دون رضاه ، ثم انهم كانوا فى نظر القانون فى مرتبة فوق مرتبة الأقنان ، فكانوا يدفعون للدولة ضرائب شخصية ، وينخرطون فى سلك الجيش ، لكنهم كانوا يشبهون العبيد فى توقيع العقوبات الجثمانية عليهم ولا يحق لهم التحرر ، ولم يكونوا عبيدا للشخص بل للأرض فتراهم مرتبطين بالأرض ـ التى يزرعونها ـ برباط غليظ موروث لا تنفصم عراه ، ومن ثم لا يستطيع المالك أن يبيع أرضه من غير عمارها ، أو العمار من غير الأرض (٥) التى هم عليها .

***

أما أشد الطبقات بؤسا فكانت طبقة الرقيق الذين يباعون أو يتهاداهم أصحابهم كالأنعام والمتاع وكان عددهم ضخما اذا قيس بالأحرار ، حتى ليقول سنيكا « ان البعض اقترح ذات مرة فى مجلس الأعيان تمييز الرقيق بلباس خاص بهم ، فرفض القوم اقتراحه » مخافة الا يأبه به رقيقنا » .

وقد حدث فى عهد اوجستوس (٦) أن طليقا كان يملك ما ينيف على أربعة آلاف عبد على الرغم من نكباته الجسام التى منى بها أيام الحروب الاهلية ، وقد أخذ عدد الرقيق فى التزايد ـ بدلا من النقصان فى أخريات أيام الامبراطورية ، وكان عند أحد أهالى غالة (٧) المسيحيين خمسة الاف منهم ، وعند آخر ثمانية آلاف ، يعاملون أقسى معاملة(٨) ، فقد أمر أحد السادة بجلد عبد له ثلاثمائة جلدة لأنه تركه ينتظر الماء الساخن ، غير أن الآلام التى كان يذوقها هؤلاء التعساء على يد ساداتهم كانت لا تقاس قط بما يلاقونه على أيدى رفاقهم الموكول اليهم مراقبتهم (٩) .

***

لم يكن أمام عمار الأرض وصغار الملاك والرقيق لتجنب اضطهاد سادتهم وظلم كبار الملاك والحكومة لهم سوى سبيل واحد هو الهروب الى الغابات وتكوين العصـــابات وقطع الطرق ، وعاشـــوا فيها عيشـة الانسان البدائى واقتصوا من ظالميهم لما تحملوه على يدهم من الآلام وذلك بنهب دورهم الفخمة ، وأخذوا يتفننون فى عقاب الغنى الذى يوقعه سوء طالعه فى أيديهم (١٠) ، وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن تنضم أعداد كبيرة من تلك العصابات بعضها الى بعض ، ويؤلفون من بينهم جمـاعة واحدة لا تكتفى بقطع الطرق بل تهدد المدن والمجتمع نفسه ، وحدث فى عهد الامبراطور دقلديانوس أن اتخذت هذه العصابات فى غالة موقفـا تهديديا مما حمل أولى الأمر على ندب أحد القياصرة للزحف عليهم بجيش ضخم (١١) .

***

كان لابد لمثل هذا المجتمع الذى نخرته الفاقة أن يسقط عند أول ضربة هجـوم (١٢) عليه ، وكانت غالبية القوم لا تعبأ أن تلاقى هذا الضغط وذلك الظلم على يد الرومانيين أو غـيرهم ، وكان الذين يعنيهم بقاء الأمور على ما هى عليه هم أصحاب الامتيازات وكبار الملاك والأغنياء الذين دب الفساد فى معظمهم وانغمروا فى المفاسق ففقدوا كل مظهر النشاط ، ومع ذلك فقد أبدى بعضهم شيئا من الوطنية ـ أو شيئا من الأنانية فى قول آخر ـ حين اجتاح المتبربرون الولايات الرومانية ، لكن ذهبت أدراج الرياح محاولة أشراف «رقونة» فى وقف تقدم القوط (١٣) الغربيين .

وحـــدث فى عهـد هونوريوس أن عبـر «الالان» و «الوندال» و «السويف» نهر الراين وأعملوا القتـل والدمار فى غالة ، وهـددوا اسبانيا التى ظلت جمهرة سكانها ترقب مصيرها فى كثير من عدم المبالاة

مع الهدوء والسكينة ، دون أن يبذلوا أية محاولة لصد الخطر ، غير أن آخر شريفين من الأثرياء وهما « ديدم » و « فرنيان » فرقا السلاح فى عمار الأرض (١٤) وتحصنا معهم فى ممرات البرانس ، وحالوا جميعا بين المتبربرين وبين دخول اسبانيا ، وبذلك كان من السهل الدفاع عن هذا القطر ، لكنهما وقعا فى الأسر وقتلا على يد قسطنطين منازع قيصر اذ رفضا الاعتراف به حين وكل حماية البرانس الى « الهونوريين » ، أعنى الى فريق من المتبربرين الذين أدخلتهم رومة فى خدمتها لمقاومة غيرهم من الجرمان ، واذ ذاك مضى هؤلاء الهون ينهبون البلد الذى عهد اليهم بالدفاع عنه ، ثم أرادوا التخلص من العقاب الذى لابد وأن ينزل بهم لقاء ما اقترفته أيديهم فعتحوا الممرات سنة ٤٠٩ م أمام المتبربرين الذين نهبوا أهل غالة ومن ثم لم يعد أحد يفكر فى المقاومة ٠

وعند قدوم المتبربرين الفوضويين الذين اجتاحوا البلاد كالسيل الجارف كان علية الأهالى عاكفين على الملذات آخذين بأسباب المباذل ، وفى الوقت الذى كان العدو فيه يطرق أبواب البلد كان الأغنياء يملأون بطونهم بالخمر وشهى الطعام ويرقصون ويغنون ويتبذلون مع الجوارى ، طابعين بشفاههم المرتعشة قبلات الهوى على أكتافهن العارية ٠

أما العامة فقد بدت وكانما ألفت منظر الدماء وسكرت برائحة القتل فادمت أكفها تصفيقا للمتصارعين، يقتل بعضهم بعضا على مسرح(١٥) البلاد ، ولم تكن هناك قط مدينة اسبانية واحدة لديها الشجاعة لتحمل الحصار ، وكأن أبواب المدن كانت تفتح من تلقاء ذاتها على مصراعيها أمام القبائل الجرمانية التى لم تجد أية مقاومة فى دخولها فانصرفت لتخريبها واضرام النار فيها ، لكن لم يكن ثم ما يدعوهم للقتل الذى لم يكن هناك ما يحملهم على اقترافه الا رغبتهم فى اشباع شهواتهم الدموية ٠

***

كانت هذه أوقاتا عصيبة ، ومع أن مسلك ذلك الجيل فى جبنه وانحطاطه وفساده كان يبعث على الاشمئزاز منه الا أن المرء لا يملك نفسه من العطف عليه والرثاء له رغم ارادته،ذلك أن الاستبداد الرومانى بفظاظته القاسية لم يكن شيئا مذكورا اذا ما قيس بوحشية المتبربرين نظرا لما انطوى عليه استبداد القياصرة المستنير من شىء من النظام ٠ أما الجرمان فقد استقلتهم الرعدة والغضب الشديد فلم يدعوا شيئا فى طريقهم الا حطموه وصرعوه دون وعى ، ونزلت بالمدن والريف نكبة ليس بعدها نكبة ، وتلت تلك الانقلابات موجات أخرى لعلها أشد من سابقتها خطرا ، تلك هى المجاعة والوباء ، فكنت ترى أمهات جائعات(١٦) دفعهن الجوع لذبح أطفالهن وأكل لحومهم ٠

واجتاح الوندال (١٧) جزائر البليار وقرطاجنة وأشبيلية حاملين معهم الخراب والدمار ، على أنه من حسن حظ اسبانيا أن هؤلاء الوندال غادروها الى افريقية سنة ٤٢٩ م مع الشرذمة الضئيلة من « الألان » الذين قدرت لهم النجاة من سيوف القوط ٠

بيد أن « السويف » المتوحشين الذين كانوا لا يعرفون سوى القتل والتخريب استقروا في « غاليسيا » (١٨) وأستولوا فترة من الزمن على حكومه « بتيك » وقرطاجنة ، وبهذا شمل تخريبهم جميع ولايات اسبانيا على التقريب ، ألا وهى « لوزيتانيا » و «قرطاجنة » و« بتيك » و « طرقونة » و « بشكنس » ٠ وعمت الفوضى المرعبة الولايتين الأخيرتين ، وانضم الى العصابات جمهور كبير من عمار الأرض والفلاحين المنكوبين الذين عملوا على نشر الذعر في شتى النواحى ، واذ كانوا خصوم رومة الألداء فقد كانوا يقفون موقف العداء من المتبربرين ان ساعد المتبربرون رومة ولكنهم يحالفوتهم ان هم ناجزوها الخصومة ، وحدث أن خرجوا بقيادة « بازل » الشجاع فى اقليم « تراجنواز » وهاجموا كتيبة من المتبربرين كانت تعمل فى خدمة رومة وقتلوا رجالها على بكرة أبيهم فى كنيسة « تيرازون » ، وكان مطرانها من ضحاياهم ، ثم انضم بازل الى السويف ونهب معهم ضواحي «سرقسطة» وأغار على «لاردة» وأسر سكانها ، كما انضم هؤلاء السويف بعـــد ذلك بخمس سنوات الى الرومانيين لاستئصال شأفة هذه العصابات ٠

ولقد ذاقت غاليسيا ــ أكثر من باقى الولايـات الأخرى ــ بطش السويف وتخريبهم اياها اذ اتخذوها ملجأ لهم ومقرا لعملياتهم ، وظلوا دائبين فيها على النهب والقتل أكثر من ستين عاما حتى عيل صبر الغاليسيين التعساء فسلكوا طريقا كان من الواجب عليهم أن يسلكوه منـذ البداية فحملوا السلاح وتحصنوا فى القلاع القوية ، وكان الحظ يواتيهم بين آونة وأخرى حين يأسرون جمـاعة من العـدو ثم يتراضى الفريقـان ويتبادلان الأسرى والرهـائن ، لكن سرعـان ما ينقض السويف السلم ويعودون للنهب ، ولم يلق الغاليسيون نجاحا كبيرا فى طلبهم النجدة أو التدخل من جانب حكام غالة الرومان أو من القسم الأسبانى الذى كان لا يزال رومانيـا ٠

ثم جاءت أخيرا طائفة متبربرة أخرى هى القوط الغربيون فانقضوا على السويف وألحقوا بهم هزيمة نكراء على شواطىء « أرفيجو » سـنة ٤٥٦ م ، فلم تنفع هذه الهزيمة الغاليسيين بل عرضتهم لخطر جديد اذ خرب هؤلاء القوط الغربيون الجدد « براجا » ، وهم وان لم يهرقوا فيها الدماء

الا أنهم سبوا جماعة من أهلها ودنسوا الكنائس باتخاذهم اياها مرابط لدوابهم ، وجردوا الكهنة من كل ما يملكون حتى من ملابسهم ، وحذا سكان براجا وضواحيها حذو أهل « تراجنواز » فنظموا من بينهم العصابات وجماعات لقطع الطرق ولم يكن القوط الغربيون فى « أستروجا » أقل قسوة منهم فى غيرها اذ كانت المدينة فى يد زمرة تزعم أنها تحارب من أجل رومة فى اللحظة التى دق فيها القوط أسوارها ، ونجح الأخيرون فيما طلبوه من السماح لهم بدخولها كأصدقاء لكنهم ما لبثوا أن أعملوا مذبحة مروعة وسبوا النساء والأطفال ورجال الدين الذين كان من بينهم اثنان من المطارنة ، كما هدموا المذابح ، وجعلوا الدور طعمة للنيران ، وخربوا ما حولها من الحقول ، وألحقوا ببلنسية ما ألحقوه بغيرها ، ثم مضوا بعدئذ فحاصروا قلعة قريبة من « أوستروجا » غير أن اليأس بعث فى الغاليسيين قوة وحمية فاستبسلت حامية ذلك الحصن فى الدفاع عنه ، وأظهرت الصبر الجميل فى هذا الحصار الطويل ٠

***

عاد القوط الغربيون الى غالة فتابع السويف لصوصيتهم وشراستهم، وقد حدث فى « لوجو » أن قامت احدى عصاباتهم بمهاجمة القاعة التى انعقد بها المجلس المحلى اطمئنانا من أعضائه بأنهم فى أسبوع القيامة المجيد ، فقتل هؤلاء التعساء عن آخرهم ، كما أن هناك عصابة أخرى نقضت المعاهدة المبرمة حديثا وساقت جميع سكان «قنبرة» أسرى (١٩) ، وهكذا غزى القوط اسبانيا كلها شيئا فشيئا ، وعلى الرغم من اخراج أهلها من ثلثى أرضهم الا أنهم رحبوا بهذا الاحتلال بالقياس الى ما كابدوه من الآلام الفظيعة على أيدى السويف ٠

***

فى وسط هذه النكبات الجمة وتلك الفوضى الشاملة كانت هناك حفنة من الرجال لا تزال محافظة على شجاعتها ، ولم تأسف كثيرا على زوال العهد القديم ، بل دفعتها ظروف خاصة للوقوف الى جانب المتبربرين ضد مواطنيهم الرومان : تلك هى الصفوة المختارة من الكهنة الكاثوليك أتباع مدرسة القديس « أوجستين » ، فقد تحمل أولئك القسس منذ بداءة الغزوات عذابا شديدا فى سبيل فل غارب بطش المغيرين ، وأظهروا التفاؤل الشديد ازاء هذا الطوفان من النكبات ، ويدعى الكاهن الأسبانى « بول أوروز » تلميذ مطران « هيبون » (٢٠) — اذ أهدى اليه كتابه التاريخى وكان معاصرا لغزو الالان والسويف والوندال — أقول يدعى هذا الكاهن أنه لما استقر المقام بهؤلاء المتبربرين فى شبه الجزيرة بعد تقسيمها فيما

بينهم عاملوا الأسبان كحلفاء وأصدقاء .وكان لا يزال هناك ــ حتى سنة ٤١٧ م ــ وهى السنة التى وضع فيها كتابه هذا ــ أسبانيون يؤثرون العيش فى ظل المتبربرين أحرارا وفقراء على حياة الاضطهاد فى كنف رومة وفرضها الضرائب الباهظة عليهم . ثم جاء بعده (٢١) بعشرين أو ثلاثين سنة قسيس آخر هو « سلفين المرسيلى » فذهب الى أبعد من ذلك ، وبنى رأيه على أساس متين ، وان ما جاء فى كتابه « أوروز » الذى لم يكن يتجاوز رغبة فئة قليلة مستضعفة قد أصبح ــ على قلم قسيس مرسيليا ــ عقيدة تعتنقها الأمة بأجمعها (٢٢) ، وليس هناك شىء أكثر منافاة لطبيعة الأمور أو أشد فسادا من ذلك الارتياح الذى أبداه الناس •

لكن يجب أن نقول ــ انصافا للحق ولشرف الانسانية ــ أن احساس الكرامة الوطنية لم يكن قد انحط الى هذا الدرك عند شعوب رومة الذين مروا بمحنة محزنة مفجعة دونها الاستبداد نفسه ، وسواء أكانوا أضعف أم أجبن من القيام بطرح النير عنهم الا أنهم كانوا فى قرارة أنفسهم يكرهون المتبربرين ويمقتونهم ، وقد كتب « سيدون الأبولى » الى أحد أصدقائه يقول له : « انك تتجنب المتبربرين الذى يقال لهم الأشرار ، وأما أنا فأتجنب الجميع حتى من يسمونهم بالأخيار » ، ولعل تفسيره للشعور الوطنى أحسن من تفسير القسس الذين يحاولون تعليل الغزو بأنه نقمة من الله . غير أن لهؤلاء القسس العذر فيما كتبوا ، ذلك أنهم لم يعرفوا أبدا ما هى الوطنية ، وكانوا يجهلون كل شىء عن الوطن الذى يخطرون فوق أرضه ، فالوطن عندهم هو الآخرة ، كما أنهم لا يدركون الحنان ، فلم يحرك النهب ولا القتل منهم ساكنا حتى ان « اوروز » (٢٤) ليتساءل : « ماذا يهم المسيحى الطامع فى الحياة الأبدية والارتفاع عن هذه الدنيا الدنية أن يعرف كيف ومتى يترك هذه الحياة ؟ » ، وقد قال ذلك بعد أن اعترف ــ رغم أنفه ــ أن السويف وحلفاءهم قد ارتكبوا كثيرا من جرائم القتل (٢٥) •

لم يكن يشغل بال رجال الكنيسة سوى مصلحة الكنيسة وحدها ، ومن ثم كان حكمهم على كل حادثة سياسية متأثرا بمقدار ما يعود على الكنيسة من فائدة أو ضرر ، ولما كانوا هم أبطال النصرانية فقد احتقروا الوثنيين وجمهورا كبيرا من المسيحيين الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم، حين عزوا المصائب التى حاقت بالامبراطورية الى تركها العبادة القديمة وقالوا ان المسيحية أضرت بالعظمة الرومانية القديمة التى كانت آلهتها الوثنية يومئذاك احفظ لهذه العظمة ، فرد القسس على أولئك الكفرة بالبرهنة لهم على أن نكد الطالع قد لازم العالم الرومانى على الدوام ، وأن سوء الأحوال ليس من الخطورة بالدرجة التى يزعمونها (٢٦) ، وهذا قول كبير القسس المعروف صاحب كتاب « مدينة الله » •

أخذ رجال الدين بعد ذلك يؤكدون الحقيقة القائلة بأن الحاجة الى بث أفكار جديدة كالأفكار المسيحية تتطلب رجالا غير رجالات العهد القديم أو طبقة الأشراف الرومانيين الذين تظاهروا بالنصرانية منذ أن صارت النصرانية دين الدولة ، ولكنهم كانوا فى الواقع أبعد الناس عن الامتثال للناحية الخلقية الجادة التى نادى بها هذا الدين ، كما كانوا أشد الخلق كفرا بعقائده ، فلم يشغلوا أنفسهم بغير المآدب والملذات والترويح عن النفس ، وأنكروا كل شيء حتى خلود الروح (٢٧) . ولقد كتب «سالفين» وهو فى سورة غضبه الدينى يقول : « ان القوم هنا يؤثرون الملاهى على الكنائس ، ويولون ظهورهم للمذابح ، ويقبلون على الملاهى ، فهم يحبون كل شيء ويحترمون كل شيء الا الرب فهو فى المنزلة الدنيا عندهم ، حتى لتراهم يضيقون بكل شيء يمت الى الدين بصلة ما » (٢٨)

***

لم تكن أخلاق المتبربرين سوى هذه الأخلاق مرتبة ، واضطر الكهنة للاعتراف بأنهم ظلمة أشرار ، وخونة فجار ، أو بكلمة واحدة أنهم أشد ايغالا فى الفساد من الرومانيين (٢٩) ، ولقد صدقوا اذ قالوا ان هناك تشابها قويا بين رذائل كل من المتبربرين والفسقة ، لكن قد يكون من احقاق الحق أن نقول ان المتبربرين كانوا أكثر من الرومان تمسكا بالتعاليم التى يلقيها اليهم كهنتهم (٣٠) ، كما كانوا متدينين بطبيعتهم ، فان ألم بهم الخطر لم يطمعوا فى غير رحمة آلهتهم ، وكان ملوكهم يلبسون مسوحهم قبيل المعركة ويصلون ، مما كان مدعاة سخرية القواد الرومان بهم ، فان كتب لهم النصر نسبوا الفضل الى الله ، ثم انهم كانوا يحترمون رجال الدين سواء كانوا من الأريوسيين أم من الكاثوليك الذين يحتقرهم الرومان الهازئون بكل ما هو كاثوليكى (٣١) ، أفعجيب بعد ذلك اذا اجتذب المتبربرون عطف القسس عليهم ؟؟ ...

لا مشاحة فى أنهم كانوا وثنيين يتلقون تعاليمهم على أيدى « معلمين رديئين » (٣٢) ، لكن ما الذى يدعو الكهنة الكاثوليك لليأس من هدايتهم ؟ ترى أى مستقبل زاه كان يمكن أن يتفتح أمام الكنيسة لو أنها نجحت فى تنصيرهم ؟

لقد كان ذلك أمل بعيدى النظر من أهل كل ولاية ، ولم يكن ذلك أدنى للتحقيق فى مكان ما منه فى أسبانيا منذ أن جب الملك « ريكارد » ورجاله القوط الغربيون الوثنية الأريوسية واعتنقوا الكاثوليكية سنة ٥٨٧ م ، ومن ثم اصطنع رجال الدين كل الوسائل لتهذيب القوط وهدايتهم ، وكانوا قبل مجيئهم الى أسبانيا قد ألموا بشيء من مبادىء

التهذيب الروماني نظرا لتجولهم مدى نصف قرن من الزمان في ربوع الولايات الرومانية ، فأدركوا فوائد الحضارة والنظام ، ولقد كان من العجيب أن ترى سلالة المتبربرين الذين كانو يذرعون غابات ألمانيا يعكفون على الكتب تحت ارشاد المطارنة ، ولدينا مراسلة فريدة بين الملك « ركسفنت » وبين « بروليون » مطران سرقسطة يشكره فيها الملك على تفضله بتصحيح كتاب بعث به اليه ، ويتحدث الملك الى المطران عن الخطأ والسهو وتصحيف الناسخين (٣٣) ·

غير أن الأساقفة لم يقصروا نشاطهم على هداية الملوك وتثقيفهم في الدين بل أخذوا على عاتقهم أيضا وضع القوانين للدولة والتشريع للحاكم ، فقالوا في فتاويهم (٣٤) ان المسيح قد اصطفاهم دون غيرهم مهذبين الأنام ·

وحدث في أحد اجتماعاتهم في مجمع طليطلة أن خر الملك ساجدا باكيا أمام رجال الدين وهو بين عظماء دولته ، متوسلا اليهم أن يشفعوا له عند الرب ، وأن يمنحوا الدولة القوانين الرشيدة (٣٥) ، وأفهمه المطارنة أن التقوى من أولى فضائل الملوك الذين عليهم أن يتيقنوا أن الامتثال لأوامر الأساقفة هو التقوى (٣٦) ، حتى لقد كان أشد الملوك خلاعة يلزم نفسه بالصبر على الفروض الدينية في الاحتفالات العامة(٣٧)·

***

بهذه الوسيلة ظهرت قوة جديدة في الدولة ابتلعت جميع القوى الأخرى ، وظهرت كأنها تهذب الأخلاق والنظم ، وتطلع الرقيق اليها عساها تكفكف دموعهم وتمسح بكفها آلامهم ، وكانوا موضع عطف الكهنوت الكاثوليكي ومحبته الأبوية ابان سيادة الهرطقة الأريوسية ، ففتح لهم مستوصفاته ، ووهب « ملسون » أسقف ماردة التقى أوشاب كنيسته مبلغا كبيرا من المال حتى يستطيعوا أن يحيطوا به في عيد القيامة في ثياب حريرية ، ولما حضرت الوفاة هذا القديس حرر من رق العبودية أخلص رجاله بعد أن ضمن لهم موارد العيش الملائم (٣٨) ، وكانت العقيدة السائدة أن الكهنوت ماضون في محو الرق باعتباره مخالفا لروح الانجيل على الأقل ان لم يكن لنصه · وكان من المؤكد أن تحقق الكنيسة تحقيقا عمليا ــ وقد أصبحت قوية ــ هذا المبدأ النبيل الذى بشرت به عاليا أيام ضعفها (٣٩) ·

لكن يا للغلطة العجيبة !! ··

لقد تناسى الكهنوت ــ حين وصلوا الى القوة ــ المثل العليا التى نادوا بها وقت فقرهم كما تناسوا سخرية الناس بهم واضطهادهم وتشردهم، أما وقد أصبح الأساقفة ملاك أراض واسعة وقصور رائعة حافلة بالعبيد

فقد رأوا أنه لم يحن بعد زمن تحرير العبيد الذى يجب أن ينتظر تحقيقه قرونا لا يعرف عددها . واذا كان القديس « ايزيدور » قسيس الفرما فى صحراء البرية بقفر مصر قد تعجب من أن يسترق مسيحى تابعا له ويجعله ملك يمينه فان هناك قسيسا آخر هو « ايزيدور » أسقف أشبيلية المعروف (الذى ظل أمدا طويلا روح مجامع طليطلة وكان مجد الكنيسة الكاثوليكية كما سماه الآباء أعضاء المجمع الثامن) أقول ان هذا القسيس لم يقتبس فى كلامه عن الرق عبارات سميه بل اقتبس مبادىء حكيمى العصر القديم وأعنى بهما أرسطو وشيشيرون فقد قال الفيلسوف اليونانى « ان الطبيعة خلقت البعض ليحكموا وخلقت الآخرين لطاعتهم » وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس من الظلم أن يقوم بالخدمة قوم لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وجاء نفس الشىء على لسان « ايزيدور » الاشبيلى (٤٠) ، غير أنه ناقض نفسه لأنه أقر بأن جميع الناس متساوون أمام الله ، وأن خطيئة الانسان الأولى التى اعتبرها أصل العبودية قد كفر عنها بالفداء ، ونحن أبعد ما نكون عن التفكير فى لوم الكهنوت لعدم تحريرهم العبيد أو محاربة فكرة أولئك الذين يصرون على أن العبد لم يكن أهلا للحرية . ولسنا نرغب فى مجادلتهم ولكنا نكتفى بأن نقرر أمرا تمخض عن نتائج هامة جدا ألا وهو أن عدم تبصر الكهنوت أدى بهم الى ألا يحققوا أبدا أمل الرقيق التعساء الذين ازدادوا شقوة بدلا من أن تتحسن أحوالهم ، ولقد فعل القوط الغربيون فعل بقية الشعوب الجرمانية الأصل فى الولايات الرومانية الأخرى حيث فرضوا السخرة على الرقيق .

***

ثم ان هناك ظاهرة بينة وان خفيت — كما يبدو — على الرومان وهى أن العائلة المسترقة كانت تؤدى فى الغالب لمولاها خدمة معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء كزراعة الأرض حينا ، والصيد حينا آخر ، ورعى الأغنام تارة ، والتجارة تارة أخرى ، وفى غيرها الحدادة ، وهكذا دواليك (٤١) .

ويستحيل على العبد أو القن أن يتزوج دون رضاء مولاه ، ويبطل زواجه ان تم بغير الحصول على موافقة سيده ، ويحال بينه وبين امرأته بالقوة ، واذا اقترن أحد الأرقاء بامرأة فى خدمة سيد آخر تقاسم السيدان بالتساوى الأولاد الناتجين عن هذا الزواج . وكان قانون القوط الغربيين فى هذه الأحوال أقل انسانية من قانون الامبراطورية ، ذلك أن الامبراطور قسطنطين [الأول] حرم فصل النساء عن أزواجهن ، والأولاد عن أبويهم ، والاخوة عن أخواتهم (٤٢) . وعلى وجه العموم فليس يخامر أحدا الشك فى أن وضع الطبقة المسترقة لم يكن محتملا أيام القوط ، ويتجلى ذلك عندما يتأمل الانسان قوانينهم العديدة الفظة ضد العبيد

والرقيق الهاربين ، حتى اننا نرى فى القرن الثامن أن العبيد الأشتوريين الذين بقيت ظروفهم مماثلة لظروف غيرهم فى جميع نواحى أسبانيا قد انقلبوا ضد ساداتهم ٠

واذا كان الأساقفة تقاعدوا عن عمل شيء ما للأخذ بيد العبيد فانهم لم يؤدوا أية خـدمة للطبقة الوسطى ، اذ ظل الكوريال ـ كما كانوا فى الماضى ـ مرتبطين بالأرض ، أضف الى ذلك أنه لم يكن من حق أى حضرى بيع أملاكه (٤٣) ٠

كذلك ورث ملوك القوط عن الأباطرة فكرة الأموال الأميرية مع بقية التقاليد الرومانية الأخرى ، والظاهر أن التلاميذ قد بزوا أساتذتهم ، ومن ثم بقيت الطبقـة الوسطى تعيسة مهضومة الجـانب باعتراف المجامـع ذاتها (٤٤) ، وهكذا ظلت حية جميع مبادىء العهد الرومانى من تركيز الثروات الضخمة فى أيدى فئات قليلة ، كما استمر الرق ، وبقيت السخرة العامة التى كان الفلاحون بمقتضاها مرتبطين بالأرض ، والملاك بالأملاك ويا ليت الأمر اقتصر على أن هؤلاء الذين ادعوا أن المسيح اختارهم لهداية البشر قد أبقوا الأمور على ما هى عليه بل انهم للأسف اضطهدوا ـ وهم فى سورة تعصبهم ـ جنسا كانت له الكثرة العددية فى اسبانيا وأسرفوا فى اضطهاده ، وكان ذلك من الأمور المتوقعة ٠

***

ولقد أصاب [ميشيل] أحد ثقات المؤرخين محجة الصواب حين قال : « كلما خطر لانسان من أهل العصور الوسطى أن يتساءل كيف أن هذه الجنة المثالية فى عالم خاضع للكنيسة لا تتحقق فى عالمنا الأرضى هذا الا على شكل جحيم بادرت الكنيسة الى خنق روح المعارضة اذا أحست بها قائلة : « ذلك من سخط الرب وتلك جريمة اليهود٠٠ان قتلة سيدنا لم ينالوا عقابهم بعد » ، واذ ذاك يثب الناس على اليهود ٠

ولقد بدأت الاضطهادات سنة ٦١٦ م زمن سيسبوت Sisebut فصدر الأمر بتنصير اليهود فى مدة عام واحد ، فاذا انتهت المدة المضروبة وبقى أحدهم على ملته جلد مائة جلدة ونفى وصودرت أملاكه ٠ ويقال ان هناك أكثر من تسعين ألف يهودى تعمدوا بدافع الخوف ، ولكنهم كانوا أقلية اذا قيسوا بمن ظلوا على نحلتهم ، ولسنا فى حاجة لأن تقول بأن تنصر هؤلاء المتنصرين انما كان فى الظـاهر ، فقد استمروا على ختـان أطفالهم خفية ، وممارسة بقية شـعائر الديانة الموسوية سرا . ومن ثم ألا يحق لنـا أن نقول ان محاولة اصطناع الشـدة فى سبيل حمل هذا الشعب الكثيف على اعتناق النصرانية بالقوة كانت محاولة فاشلة ؟

والظاهر أن أساقفة مجمع طليطلة الرابع قد أدركوا ذلك الأمر من تلقاء أنفسهم فسمحوا لليهود بالبقاء على دين أسلافهم ، لكنهم أشاروا بانتزاع أطفالهم منهم لينشئوا على المسيحية ، ثم مالبث الكهنوت أن تخلوا عن هذا الجزء الضئيل من التسامح فعادوا ينهجون أفظع الاجراءات معهم حين نص مجمع طليطلة السادس على عدم السماح للملك ما بتصريف أمور المملكة ما لم يقسم — قبل كل شيء — على اصدار مراسيم عامة ضد ذلك الجنس « المرذول » .

لكن على الرغم من جميع تلك التشريعات والاضطهادات بقى اليهود في أسبانيا ، وامتلكوا الأراضى بطريقة غريبة (٤٥) غير عادية مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن القوانين التى وضعت ضدهم كانت قلما تنفذ بحذافيرها ، وذلك لأن الرغبة الصادقة كانت تعوزها القوة الكافية للتنفيذ .

ولقد ظل اليهود أكثر من ثمانين عاما يتجرعون غصص الآلام صابرين ، حتى اذا عيل صبرهم أزمعوا على الثأر من مضطهديهم ، فما وافت سنة ٦٩٤ م — أعنى قبل الفتح العربى لأسبانيا بسبع عشرة سنة — حتى أضرموا ثورة شاملة مع اخوانهم اليهود الذين يسكنون الجانب الآخر من العدوة الذى ينزله كثير من القبائل البربرية التى تدين بالموسوية ، وحيث كان هذا الجانب ملجأ لليهود المنفيين من أسبانيا ، لذلك اتفقوا فيما بينهم على أن تثور عدة نواح دفعة واحدة فى اللحظة التى يرسو فيها يهود افريقية على شواطئ أسبانيا ، بيد أن الحكومة علمت بالمؤامرة قبل موعد تنفيذها ، سرعان ما اتخذ الملك « ايجيكا » EGICA الاحتياطات اللازمة ، ثم عقد مجمعا فى طليطلة وأفضى الى أعضائه الروحانيين والعلمانيين بمشاريع اليهود « الاجرامية » ، وكلفهم باستعمال الشدة فى معاقبة هذا الشعب « الملعون » ، فلما استمع الأساقفة الى بيانات بعض اليهود التى تتلخص فى أن المؤامرة كانت ترمى الى تهويد اسبانيا اشتد بهم الغضب منهم والسخط عليهم ، وصادروا جميع أملاك اليهود وحرموهم حريتهم ، وجعلهم (٤٦) الملك عبيدا للنصارى بل ولأولئك الذين كانوا حتى هذه اللحظة عبيدا لليهود ثم حررهم الملك (٤٧) ، وفرض على السادة ألا يسمحوا لعبيدهم الجدد بممارسة شعائر الدين القديم ، وأمرهم بانتزاع أبنائهم منهم حين بلوغهم السابعة من عمرهم ، ثم ينشئونهم على النصرانية ، كما حرم التزاوج بين اليهود بعضهم وبعض ، فلا يستطيع العبد اليهودى أن يتزوج الا من أمة نصرانية ، ولا تتزوج الجارية اليهودية الا عبدا مسيحيا (٤٨) .

***

لا مشاحة في أن هذه المراسيم قد طبقت بحذافيرها اذ لم يعد الأمر قاصرا هذه المرة على عقاب «الكفرة» بل شمل المتآمرين الخطرين أيضا ، ومن ثم ففي الوقت الذى غزا فيه المسلمون شمال افريقية الشرقى كان يهود اسبانيا يرزحون تحت نير شديد الوطأة قل أن يحتمل ، فكانوا يتطلعون فى لهفة الى لحظة خلاصهم ، فلا عجب ان رأوا أن العناية الالاهية قد قيضت لهم منقذين هم الفاتحون [العرب] الذين فرضوا عليهم جزية تافهة ، وردوا عليهم حريتهم ، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم جهرا (٤٩) ٠

***

كان اليهود والرقيق والطبقة الوسطى المعوزة أعداء ألداء لهذا المجتمع المتصدع الذى كانت عوامل التخلل تنخر فيه من كل النواحى ، ومع ذلك فلم يكن لأصحاب الامتيازات قوة يدفعون بها الغزاة غير أولئك العبيد من النصارى واليهود ٠

ولقد رأينا آنفا أنه فى أواخر أيام الامبراطورية الرومانية انخرط رقيق الأرض فى سلك الجيش وأبقى القوط على هذا النهج ، ولم تكن هناك أية ضرورة تدعو لتحديد عدد العبيد الذين ينبغى على كل مالك أن يقدمهم طالما كانوا محافظين على روحهم الحربية ، لكنهم حينما مالوا فيما بعد للاثراء من وراء عمل العبيد والرقيق صار من الضرورى جعل التجنيد فى الجيش اجباريا ، وذلك ما شعر به الملك « فامبا Wamba » اذ تشكى فى أحد مراسيمه من أن الملاك المهتمين بزراعة أراضيهم لايكادون يجندون واحدا من عشرين من عبيدهم حين تدعو الضرورة الى حمل السلاح ، وأمر أن يجند كل مالك ــ قوطيا كان أم رومانيا ــ عشر عبيده (٥٠) ٠

والظاهر أنه قد صدر أمر بعد ذلك يقضى بتجنيد نصف (٥١) عبيد كل مالك ، وبذلك زاد عدد العبيد فى الجيش على عدد الأحرار حتى ليمكن أن يقال ان الدفاع عن الدولة أصبح موكولا فى جوهره الى أولئك الذين كانوا يؤثرون الاتفاق مع العدو على الدفاع عن مضطهديهم ٠

***

الفصل الثانى

حركة موسى بن نصير التوسعية • ضعف قبضة بيزنطة على ممتلكاتها • خبر الكونت يوليان وابنته مع الملك لذريق آخر ملوك القوط الغربيين • الحملة على الجزيرة الخضراء • حملة طارق بن زياد واصطدامه بلذريق الذى استعان بابنى غيطشة وأتباعهما الناقمين عليه • انتصارات العسكر الاسلامى • الأوضاع العامة بعد دخول العرب مباشرة • حرية الملكية للمسيحيين الاسبان • تحسن ظروف الحياة العامة للطبقات الدنيا وللعبيد • الأحوال العامة بعد قرن من الفتح • تذمر طبقة المولدين وتحركاتهم الثورية •

الفصل الثـانى

فتح العـرب لأسبانيا

لقد رأينا آنفا كيف أن حالة أسبانيا ازدادت سوءا فى عهد القوط عما كانت عليه زمن الرومان ، وذلك لأن جرثومة الانحلال أخذت تنخر منذ زمن بعيد فى جسم الدولة التى بلغت غاية قصوى من الضعف حتى أصبح من اليسير سحق البلد فى طرفة عين بجيش قوامه اثنا عشر ألف رجل تساعده الخيانة (١) .

ولقد مد موسى بن نصير والى أفريقية حـدود الدولـة حتى بلغت المحيط ، ولم تستعص عليه غير مدينة « سبتة » التى كانت تابعة اذ ذاك للامبراطورية البيزنطية التى كانت تسيطر من قبل على ساحل أفريقية بأجمعه ، غير أن بعد الامبراطور [البيزنطى] عنها بعدا عظيما جعله عاجزا عن مد يد المساعدة الفعالة اليها مما عمل على توطيد علاقة سبتة مع اسبانيا [أكثر من توطيدها مع بيزنطة] ، وقد حدث أن أرسل يوليان (٢) — حاكم سبتة — ابنته الى بلاط طليطلة لتنشأ نشأة تتكافأ وشرف أصلها ، غير أنها لسوء الحظ راقت فى عينى الملك لذريق فثلم شرفها (٣) ، فدفعت سورة الغضب العارم أباها يوليان لموادعة موسى بن نصير وفتح أبواب أسبانيا له بعد أن عقد معه معاهدة يستفيد منها . ثم حدثه يوليان عن اسبانيا ، وأغراه بالوثوب عليها لفتحها ، وتعهد له بوضع سفنه تحت امرته ، فكتب موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه فى الفتح ، فتخوف الوليد من المشروع ، ورد على موسى آمرا اياه أن يغزو اسبانيا بجند خفاف ، وحذره من أن يعرض جيشا كبيرا للخطر فيما وراء البحر .

وحينـذاك ندب موسى أحد مواليه واسمه « أبو زرع طريف » الى اسبانيا فى أربعمائة رجل ومائة فارس ، وعبرت هذه الحملة المضيق فى أربع سفن أمدها بها يوليان ، فنهبت أرباض « الجزيرة الخضراء » ثم عادت

الى أفريقية فى يوليو سنة ٧١٠ م [= ٩١ هـ] ، فلمـا كانت السنة التالية اغتنم موسى بن نصير فرصة ابتعاد لذريق عن أسبانيا لانشغاله باخماد ثورة الباشقاوية ، وندب لها مولى آخر من مواليه هو طارق بن زياد قائد مقدمـة جيشه ، وعقد له الرايـة على سبعة آلاف مسلم معظمهم من البربر ، وصحبهم يوليان ، وتمكنوا من عبور المجاز بعضهم اثر بعض على السفن الأربعة التى استعملها طريف من قبل اذ لم يكن للمسلمين سواها ، ثم جمع طارق صحابه على الجبل الذى لا يزال يسمى الى اليوم بجبل طارق والذى تقوم على سفحه مدينة قرطاجة (٤) Carteya التى سير طارق ضدها كتيبة بقيادة أحد الضباط العرب القلائل الموجودين فى جيشه وهو عبد الملك من قبيلة معافر (٥) ، فما لبثت قرطاجة أن سقطت فى يـد المسلمين (٦) ·

حينذاك تقدم طارق الى الأمام حتى اذا بلغ « البحيرة » (٧) تناهى الى سمعه أن الملك لذريق زاحف عليه بجيش كالدبى كثرة ، ولما لم يكن عنده طارق سوى أربع سفن فقد كان من العسير عليه العودة بجيشه الى افريقية لو أنه فكر فى ذلك ، لكن هذا الخاطر لم يدر أبدا بحسبانه ، فقد تكاثفت الرغبة والطموح والحماسة على دفعه للتقدم ، فطلب من موسى المدد فأمده موسى بخمسة آلاف رجل من البربر أركبهم السفن التى دأب على بنائها منذ رحيل قائده ، وبذلك بلغت قوة طارق اثنى عشر ألف رجل ، وهم قلة اذا قيسوا بجند لذريق الكثيف ، غير أن الخيانة كانت متفشية فيه فأضرته وساعدت المسلمين ·

***

كان لذريق قد أغتصب التاج الذى على مفرقه ، واذ كان اعتماده على كثير من الأمراء فقد خلع عن العرش سلفه « غيطشة » ، والظاهر أنه قتله مما أدى الى تكوين حزب مناهض له يحركه ويغذيه اخوة الملك السابق وبنوه · وسعى لذريق فى ضم وجوه هذا الحـزب الى جانبه ، فدعاهم لمساعدته وهو ماض لقتال طارق ، فأجابوه لطلبه امتثالا للقانون الذى يحتم عليهم طاعة الملك ، وان كانت صدورهم منطوية على كراهيته وعداوته وعدم الثقة به : فاتفقوا فيما بينهم على التخلى عنه حين مواجهة العدو ، ولم يكن معنى ذلك أنهم يرغبون فى تسليم وطنهـم الى البربر ، اذ ما كان لهـذا الخاطر أن يدور قط بخلدهم لا سيما وهم يتطلعون لاسترداد السلطان والعرش مما لا يتسنى لهم اذا هم أسلموا البلد للأفريقيين ، اعتقادا منهم ــ عن حق ــ أن البربر لم يطؤا أرض المملكة للاستقرار ولتأسيس دولة لهم ، بل كانوا يحسبونهم قدموها للسلب فقط ، فكانوا يقولون : « ان

كل ما ينشده هؤلاء الأغراب انما هو الغنيمة فحسب ، فان هم أصابوها عادوا أدراجهم الى افريقية » ٠

ثم ان هؤلاء المتمردين كانوا يطمعون أن يفقد لذريق فى الهزيمة سمعته كقائد شجاع منتصر مما يزكى مطلبهم فى التاج ، فان قتل كان ذلك أجدى لهم ٠ والخلاصة أن أنانيتهم سيطرت عليهم فلم ينظروا الى المستقبل البعيد ، فكان تسليم وطنهم للعرب فوق ارادتهم وعلى غير هواهم ٠

***

وبدأت المعركة عند شاطىء بكة (٨) « يوم ١٩ يوليو سنة ٧١١ م (= ٩٢ هـ) وكان ابنا غيطشة على جناحى الجيش الاسبانى ، وكان معظم رجالهما من عبيدهما الذين استجابوا لأوامر سادتهم فما لبثوا أن ولوا العدو ظهورهم ٠

أما القلب فقد قاوم فترة من الوقت ، وكان بقيادة لذريق نفسه الذى لم يلبث هو الآخر أن فر ، واذ ذاك استحر القتل فى صفوف رجاله على يد محاربيهم ٠ والظاهر أن لذريق ذاته كان بين القتلى اذ كان هذا آخر العهد به ، وبقيت البلاد بلا ملك يسوسها فى وقت كانت أحوج ما تكون فيه الى من يدبر أمورها ٠

واغتنم طارق هذه الفرصة فأخذ فى التوغل فى البلاد بدلا من العودة الى افريقية كما كان المتوقع وكما أمره موسى ، ولقد ساعد هذا التوغل على سرعة انهيار الامبراطورية الواهية ، كذلك يسر الأمر على الغزاة موقف المتذمرين والمضطهدين والعبيد الذين لم يحركوا ساكنا خشية أن يؤدى الأمر الى نجاة سادتهم ٠ كما أخذ اليهود فى الثورة فى كل مكان وفى التمرد على الاسبان ، وراحوا يعاونون المسلمين ٠

وانتصر طارق انتصارا آخر قرب استجة ECIJA ومن ثم زحف بمعظم جيشه على طليطلة ، وبعث السرايا ضـــد قرطبة و « أرشذونـة » و « ألبيرة » فاستسلمت أرشذونة دون مقاومة وهرب سكانها الى الجبال واعتصموا بها ، وخضعت ألبيرا ELVIRA بعـــد مقاومة عنيفة فعهد بحراستها الى حامية قوامها اليهود والمسلمون ، كما أن أحد الرعاة العبيد مكن العرب من الاستيلاء على قرطبة اذ دلهم على ثغرة نفذوا منها الى المدينة، وخان اليهود المسيحيين فى طليطلة ، وهكذا ضربت الفوضى بأجرانها على جميع النواحى وخيل الى الناس أن الأشراف والقسس فقدوا وعيهم حتى ليقول مؤرخ مسلم(٩) ان الخوف ملأ قلوب الكفار ، والواقع أن الاضطراب كان عاما ، وخلت قرطبة من الأشراف اذ غادروها ، ولم يعد لهم أثر فى

طليطلة فقد التجأوا الى « غاليسيا » حتى ان المطران نفسه غادر أسبانيا والتمس النجاة في رومة · أما الذين لم يحاولوا الهرب فقد طمعوا فى الحصول على الأمان أكثر من طمعهم فى الدفـاع عن أنفسهم ، ومن هذا الفريق أمراء بيت غيطشة ، ولما كانوا يعدون خيانتهم لأبناء جنسهم دليلا على ترحيبهم بالمسلمين فقد أجابهم العرب الى ما سألوهم اياه من استرداد أملاك التاج التى لا يحق أن يتمتع بها أحـد سوى الملوك ، وكانت هذه الأملاك تتألف من ثلاثة آلاف مزرعة ، ثم اختير « أوباس » ــ أحد اخوة الملك ــ حاكما على طليطلة ·

وهكذا شاءت الصدفة الطيبة أن تؤدى الغزوة البسيطة الى الفتح ، واستاء موسى لهذه الخاتمة أشد الاستياء ، فهو وان كان يتطلع الى فتح اسبانيا الا أنه كان يطمع فى أن يتم هذا الفتح على يديه هو لا على يد أحد سواه ، فحسد طارقا على ما ساقه هذا الغزو له من البطولة والخير . وكان من حسن حظه أنه لا يزال فى شبه الجزيرة مجال للعمل اذ لم يكن قد تم لطارق الاستيلاء على جميع المدن أو احتجان جميع ثروات البلد ، فصمم موسى اذ ذاك على الذهاب الى اسبانيا ، وما وافى شهر يونيو سنة ٧١٢ م [= رمضان ٩٣ هـ] حتى عبر المضيق وفى صحبته ثمانية عشر ألف عربى استولى بهم على مدينة شذونة ، واتفق معه من انضم اليه من الاسبان على تسليمه «قرمونة» فجاءوا مسلحين الى أبوابها متظاهرين بأنهم هربوا من العدو ، وسألوا أهلها الاذن لهم بدخولها فأدخلوهم ، ثم ما لبثوا أن اغتنموا فرصة الظلام ففتحوا أبوابها للعرب ·

لقى العرب مشقة فى الاستيلاء على اشبيلية التى كانت أكبر مدن أسبانيا ثم استسلمت بعد حصـار دام شهورا عدة ، كما قاومت « ماردة » مقاومة عنيفة وان انتهت بالاستسلام فى أول يونيو ٧١٣ م [= رمضان ٩٤ هـ] ، فزحف موسى بعدئذ الى طليطلة ومضى طارق لمقابلته مظهرا له آيات الود والولاء وترجل من بعيد حين رآه ، غير أن موسى كان متلففا له على ضيق وضغن فجلده وسأله عما دعاه الى مخالفته اذ واصل الزحف الى الأمام وقد أمره بأن يعود الى افريقية غداة الغزو ·

وتم فتح أسبانيا ــ عدا بعض ولايات الشمال ــ دون صعوبة اذ لم تكن ثمت جدوى تعود على البلاد من المقاومة فى وقت ليس لديها فيه من ملك يدبر أمورها ، ومن ثم تأتى للاسبان الحصول على الشروط الملائمة ، على حين أنهم كانوا يفقدون أملاكهم لو أنهم حاولوا الوقوف فى وجه المغير ثم انتهى الوقوف الى الاستسلام (١٠) له ·

لم يكن الفتح على وجه العموم نكبة كبرى ، وليس من شك فى أنه قد صحبه فى البداية شىء من الاضطراب كما حدث ابان غزو القبـائل

الجرمانية من نهب كثير من النواحي واحراق بعض المدن وشنق الأشراف الذين لم يسعفهم الوقت بالنجاة والفرار وقتل الأطفال ، لكن سرعان ما أخمدت الحكومة العربية هذه الاضطرابات وقضت على الأساليب الوحشية فعادت الطمأنينة ترفرف على الناس ، وقابل الشعب المتذمر في هدوء ما قدر له أن يلقاه ، والواقع أن الاحتلال العربي كان أخف كثيرا من وطأة الاحتلال القوطي ، اذ أبقى الفاتحون للمغلوبين قوانينهم وقضاتهم، ورأسوا عليهم قوامس أو حكاما من نفس جنسهم وكلوا اليهم جمع الضرائب الواجب دفعها ، وعهدوا اليهم بفض المنازعات التي قد تنشب فيما بينهم ·

أما أراضي المناطق التي فتحت قسرا كأملاك الكنيسة والأشراف الهاربين الى الشمال فقد تقاسمها الغزاة وان بقي بها العبيد الذين كانوا فيها من قبل ، وسار العرب على هذا المنوال في كل ناحية ، واقتصر عمل الأهالي على ممارسة (١١) الزراعة التي ترفع الفاتحون عنها ، وفرضوا على العبيد ما كانوا يقومون به في الماضي من الفلاحة ، على أن يسلموا الى الملاك المسلمين أربعة أخماس الغلة وغير ذلك مما يزرعون ·

أما الذين استقروا فيما امتلكته الحكومة ــ وهو شيء كبير لاشتماله على خمس الأراضي المصادرة ــ فلا يقدمون سوى ثلث المحصول الذي كانوا يدفعونه من قبل لخزانة الدولة ، ثم تبدل الأمر فيما بعد فتحول قسم من أملاك الحكومة الى اقطاعيات أقطعت للعرب الذين جاءوا للاستقرار في أسبانيا ، والى رفاق السمح ، والى الطلعة البلجية الشامية ، ولم يكن هناك فارق بينهم وبين المزارعين النصارى في تلك الناحية سوى أنهم كانوا يقدمون ثلث غلة أرضهم الى أصحاب الاقطاعيات بدلا من تقديمه للحكومة ·

أما بقية المسيحيين فقد توقفت حالتهم على المعاهدات التي تمكنوا من عقدها والتي استفادوا من بعضها فائدة كبرى ، فاحتفظ سكان « ماردة » ــ مثلا ــ الذين كانوا بها وقت الاستسلام بجميع ما يملكون ، ولم يأخذ الفاتحون سوى متعلقات الكنائس وتحفها ، كما أنهم لم يأخذوا شيئا قط من نصارى الولاية التي كان يحكمها « تدمير » ولا من مدنها « لورقه » و « ميلة » Mula و « لقنت Orihuela » بل كان كل ما هنالك أنهم تعهدوا بدفع الجزية على شكل مال وثياب (١٢) ·

وعلى وجه العموم فانه يمكن القول بأن المسيحيين احتفظوا بمعظم أملاكهم ، بل لقد أصبح لهم الحق في التصرف فيها بالبيع وهو حق كان محرما عليهم أيام القوط ، غير أن الحكومة فرضت عليهم دفع جزية سنوية

تدوها ثمانية وأربعون درهما عن الغني ، وأربعة وعشرون عن المتوسط ، واثنا عشر درهما عن العامل(١٣) ، وكانت الجزية تقسم على أقساط ، يدفع كل قسط منها في نهاية كل شهر قمرى (١٤) ، بيد أنها رفعتها عن النساء والأطفال والرهبان والزمنى والعمى والمرضى والمتسولين • أضف الى ذلك أنه كان مفروضا على الملاك دفع « الخراج » وهو ضريبة تجبى عن المحصول وتحدد طبقا لطبيعة أرض كل كورة ، وكان متوسطها فى العادة عشرين فى المائة ، ووضعت الجزية عمن يسلمون ، أما الخراج فيستمر رغم اسلام المالك •

لم تكن حال النصارى فى ظل المسلمين شديدة الوطأة اذا هى قورنت بما كانوا عليه من قبل ، زد على ذلك أن العرب كانوا شديدى التسامح فلم يضيقوا الخناق قط على أحد ما فى الناحية الدينية ، ولم تكن الحكومة تميل لدفع المسيحيين الى اعتناق الاسلام حتى لا يخسر بيت المال الشيء الكثير (١٥) ، ثم انها لا تعمد الى ذلك الأمر الا اذا كانت شديدة التعصب وهو شيء نادر قليل الحدوث ، ولم يجحد النصارى جميلها هذا ، فكانوا راضين عنها لتسامحها واعتدالها ، وآثروا حكمها على حكم القبائل الجرمانية والفرنجة (١٦) ، فانعدمت الثورات أو كادت طوال القرن الثامن للميلاد ، ولم يشر المؤرخون الا الى ثورة واحدة قام بها نصارى « باجة » الذين يظهر أنهم كانوا آلة فى يد زعيم عربى طماع (١٧) ، ويبدو أن القسس أنفسهم لم يكونوا ناقمين على الحكومة – ولو فى البداية على الأقل – رغم ما تدفعهم طبيعتهم اليه من نقمة عليها ، ويمكن للمرء أن يكون لنفسه فكرة عن وجهة نظرهم حين مطالعته لحوليات لاتينية ألفت فى قرطبة سنة ٧٥٤ م [= ١٣٧ هـ] وهى الحوليات المنسوبة خطأ لإيزيدور الباجى ، وعلى الرغم من أن مؤلف هذا السفر من رجال الكنيسة الا أنه أميل للمسلمين من أى مؤلف أسبانى آخر من أهل القرن الرابع عشر ، ولا يعنى هذا أنه كانت تنقصه الوطنية بل كان على العكس من ذلك يندب سوء طالع اسبانيا ويمقت الحكم العربى ، غير أن كراهيته للفاتحين تتلخص فى أنه يراهم رجالا من غير جنسه أكثر مما يكره فيهم أنهم على دين غير دينه • كذلك نرى أن الأمور التى أثارت غضب رجال الدين فى فترة أخرى لم تدفعه هو لقول أية كلمة تنطوى على ذمهم ، فهو يشير مثلا الى زواج عبد العزيز بن موسى من أرملة لذريق دون أن يستنكره أو يتأفف منه ، بل الظاهر أنه كان يراه أمرا طبيعيا (١٨) •

وكان الفتح العربى – من بعض الوجوه – خيرا على اسبانيا فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة وقضى على شطر كبير من المساوىء التى كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون ••

أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضاءل الى حد التلاشى ، وظهرت الملكيات الصغيرة نظرا لتوزيع الأراضى المصادرة على عدد كبير جـدا من الناس مما انطوى على الخـير العميم ، وكان من أحد الأسباب التى أدت الى ازدهار الزراعة فى اسبانيا العربية ٠

كذلك عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا ، وكان الاسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد الذين يئسوا من تحريرهم على أيدى القسس أيام الحكم القوطى ، فقد أمر الرسول [صلعم] تنفيذا للشريعة بعتق الرقيق ، وذكر أن تحرير رقبـة عبد عمل يثاب المرء عليه أعظم الثواب وغالبا ما يعتق العبد بعد بضع سنوات من شرائه لا سيما اذا اعتنق الاسلام (١٩) ٠

كذلك تحسنت حال رقيق الأرض الموجـودين فى أملاك المسلمين فأصبحوا زراعا وتمتعوا بنصيب من الاستقلال وصار لهم مطلق الحرية فى زراعة الأرض وفق ما يشتهون لعدم تنزل سادتهم الى احتراف الفلاحة ٠

أما الطبقـات الأخرى من النصارى فقد يسر لها الفتح سبيل التحرر اذ لم يكن عليها ـ اذا شاءت ـ سوى الهروب الى أرض مسلم والنطق بهذه الكلمات « أشهد ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » ، وبهذه الوسيلة ازداد عدد الطلقـاء ، واذن فـلا محل للعجب للسهولـة التى جبوا بها المسيحية ٠

***

على الرغم من سلطان القسس العظيم الذى تمتعوا به منذ زمن القوط الا أن النصرانية لم تتأصل فى اسبانيا التى كانت خالصة الوثنية وقت أن اتخذ قسطنطين المسيحية دينا للدولة ، ثم بقيت اسبانيا زمنا مقيمة على الولاء للعبادة القديمة حتى لقد كانت الوثنية والنصرانية تتنازعان البلد وقت الفتح العربى مما دفع القسس الى تهديد « عباد الآلهة الكاذبة » واتخاذ الاجراءات الحازمة ضدهم (٢٠) ٠ أما أولئك المسمون بالمسيحيين فقد كانت النصرانية كلمة تجرى بها شفاههم أكثر مما تمس شغاف قلوبهم، فقد احتفظ سلالة الرومان بالشك الذى امتاز به أسلافهم ٠ أما أبناء القوط فلم يشغلوا أنفسهم كثيرا بالمسائل الدينية الا بمقدار ما شغل به الاريوسيون أنفسهم ، اذ سرعان ما تكثلكوا حين تكثلك الملك ريكارد ٠

أما سادة المملكة القوطية الأغنيـاء الذين شغلتهم أمور غير هذه الأمور والذين رفضوا الهرطقة وتنازعوا فيما بينهم فى العقائد والأسرار وحكم الدولة واضطهاد اليهود فلم يجدوا وقتا يصرفونه فى « أن يجعلوا

أنفسهم صغارا مع الصغار ، فى التحدث اليهم فى المبادىء الأولية للحقيقة الا بمقدار سعادة الأب بالتمتمة مع طفله ، كما يقول سانت أوجستين ، ومع انهم اعتنقوا النصرانية الا أنهم لم يكونوا يميلون اليها .

ومن ثم فليس عجيبا أن يستسلم العبيد عن طيب خاطر لما عرضه عليهم الفاتحون [المسلمون] من الحرية لقاء اعتناقهم الاسلام ، وكان بعض هؤلاء التعساء لا يزال على وثنيته ، أما البقية فلا تعرف عن النصرانية الا التافه الضئيل ، ذلك أن التعاليم الدينية التى تلقوها كانت بدائية جدا لا تنقع غلة ولا تبل ظمأ ، وكانوا لا يدركون أسرار الكاثوليكية ولا الاسلام (٢١) ، وكان كل ما عرفوه وأدركوه ادراكا تاما هو أن القساوسة فجعوهم فيما منوهم به فى بعض الأيام ألا وهو التحرر من الرق والعبودية ، وكان كل ما يتطلعون اليه هو التخلص بأى ثمن من النير الذى يرسفون فيه ، ولم يكونوا هم وحدهم الذين نبذوا العبادة القديمة بل فعل فعلهم كثيرون من الخاصة مدفوعين الى ذلك اما برغبتهم فى التخلص من دفع الجزية أو المحافظة على أملاكهم ما دام الفاتحون لا يقيمون وزنا للمعاهدات ، واما لأنهم كانوا مؤمنين ايمانا صادقا بقدسية الاسلام .

***

لم نشر حتى هذه اللحظة الا الى التحسن الذى أحدثه الفتح العربى فى أوضاع البلد الاجتماعية ، غير أن الانصاف يقتضينا أن نقول انه اذا كان لهذا الفتح محاسنه من عدة وجوه فله أيضا مساوؤه من وجوه أخرى .

كانت الحرية الدينية مطلقة .

لكن كانت الكنيسة مقيدة تقاسى المذلة الصارمة ، فقد انتقل حق دعوة المجامع للانعقاد وتعيين الأساقفة وخلعهم من أيدى ملوك (٢٢) القوط الى سلاطين العرب (٢٣) ، كما انتقل فى الشمال الى ملوك الاستوريين (٢٤) ، وكان هذا الحق الخطير مصدرا دائما للشرور والعيوب والفضائح للكنيسة حين أصبح فى أيدى أعداء المسيحية ، ذلك أنه لو حدث أن رفضت جماعة من القس حضور مجمع من المجامع فانه يكون فى قدرة السلطان أن يحل مكانها رهطا من اليهود والمسلمين (٢٥) . كما كانت وظيفة الأسقف تمنح لمن يغلى فى الثمن ، وبذلك يعهد النصارى بأعز مصالحهم ومقدساتهم الى هراطقة وفسقة ممن كانوا ينصرفون عن أعياد الكنيسة الرسمية الى موائد رجال الحاشية من العرب ، وعهدوا بها الى ملاحدة كفار يجاهرون بنكران الحياة الثانية ، والى ساقطين لا يكتفون ببيع أنفسهم بل يقدمون على بيع أتباعهم (٢٦) . وقد حدث فى احدى

المرات أن شكا جباة الضرائب من نجاح كثير من نصارى مالقة في التهرب من دفع الجزية بالاختفاء ، وحينذاك تقدم « هوستجيسيس » أسقف أبرشية مالقة وتعهد بتزويد الجباة بثبت كامل بأسماء جميع الملزمين بدفع الجزية ، وأوفى الأسقف بعهده ، وفي أثناء جولته السنوية سأل أبناء أبرشيته أن يوافوه بأسمائهم وأسماء أقاربهم وأصدقائهم زعما منه أنه يسجلها في ثبت عنده ليدعو الله لكل فرد من أفراد رعية كنيسته ، فجازت الحيلة على النصارى الذين لم يظنوا ظن السوء في نوايا راعيهم ، وبذلك لم يتأت لشخص ما أن يهرب من الجزية ، ومن ثم عرف الجباة جميع من يجب عليهم دفعها ، وكان الفضل في هذا راجعا الى سجل الأسقف « هوستيجيسيس » (٢٧) .

***

لما ثبتت دعائم الاحتلال الأجنبي لم يعد العرب يراعون العهود كما كانوا يراعونها وقت أن كانت قوتهم لا تزال مزعزعة ، يؤيد ذلك ما حدث في قرطبة فقد هدمت جميع كنائسها عن آخرها ، ولم يبق لمن بها من النصارى سوى الكاتدرائية المهداة الى القديس « فنسانت » والتي كان استثناؤها بعد عقد معاهدة ظلت مرعية الجانب بضع سنوات (٢٨) ، غير أن قرطبة ما لبثت أن ازداد سكانها بمن قدم اليها من عرب الشام ، فضاقت مساجدها بهذا العدد الوفير من المصلين،فرأى الشاميون أن يفعلوا بقرطبة ما فعلوه بدمشق (٢٩) وحمص (٣٠) وبعض البلدان الأخرى في وطنهم حيث أرغموا من بها من النصارى على التنازل لهم عن نصف كنائسهم لتحويلها الى مساجد ، واستصوبت الحكومة وجهة نظرهم هذه فأرغمت المسيحيين على التخلي عن نصف بيعهم ، وكان هذا بلا شك انتهابا ونقضا للعهد المبرم بين الجانبين .

ثم حدث فيما بعد في سنة ٧٨٤ م [١٦٨ هـ] أن طلب عبد الرحمن الداخل من النصارى أن يبيعوه النصف الآخر فأصروا على رفض طلبه قائلين انهم لو باعوه ما أراد لما بقي لهم مكان يؤدون فيه شعائر دينهم ، ثم تم الاتفاق على أن يتنازل له النصارى عن احدى الكنائس نظير مائة ألف دينار (٣١) بعد أن أذن لهم باعادة بناء الكنائس التي هدمت (٣٢) ، وأنصف عبد الرحمن القوم هذه المرة الا أنه لم يتبع هذه الخطة على الدوام، فقد كان هو الذي نقض المعاهدة التي أبرمها أعداء غيطشة مع طارق والتي أقرها الخليفة ، كما صادر أراضي « أردبست » أحد أشراف الأمراء لا لسبب الا لأنه رآها أكبر من أن تكون لمسيحي (٣٣) ، كما تناول التغيير والتعديل معاهدات أخرى بطرق قسرية حتى لم يكد يبقى لها أثر ابان القرن التاسع ، زد على ذلك أن الفقهاء أخذوا ينادون بأن الحكومة ينبغي أن تظهر تحمسها للدين بزيادة الضرائب المفروضة على المسيحيين (٣٤) ،

فبالغت فى ذلك ، وما جاء القرن التاسع الا وقد أملق كثير من الجماعات النصرانية ومن بينهم نصارى قرطبة (٣٥) ٠

ومجمل القول أنه حدث فى اسبانيا ما حدث فى جميع البلدان التى فتحها العرب ، اذ امتاز حكمهم فى البداية باللين والانسانية ثم تحول الى عنف مرهق (٣٦) ٠

***

ومع ذلك لم يكن النصارى أكثر الناس تذمرا بعد قرن واحد من الفتح بل كان أشـــد المنكوبين به أولئك العلوج الذين ســماهم العرب بالمولدين ، ولم يكن الأعلاج جميعهم على نمط واحد من التفكير فكان فيهم من يسمون بالنصارى (٣٧) التوابين Ch ristiani Occulti ونعنى من أسرفوا فى الندم على ردتهم ، وكانوا أشد القوم تعاسة لعدم استطاعتهم العودة الى النصرانية اذ لا يعرف الشرع هوادة ازاء الردة ، فالعلج اذا أسلم ــ وقد يكون ذلك فى لحظة يأس أو ضعف أو انهيار عزيمة أو فى لحظة ضنك لا يجد فيها المال لدفع الجزية (٣٨) ، أو اذا خاف أن يحكم عليه بما يدنسه (٣٩) ــ أقول اذا أسلم العلج تحت ظرف من هذه الظروف عد مسلما على الدوام ، فان ارتد جرم وسفك دمه ، وكان ينكل بأبناء العلوج اذا هم رغبوا فى العودة الى حضن الكنيسة ، وبذلك يضرس الأبناء بما فعله الآباء لأن الشرع يعتبرهم مسلمين ما داموا قد ولدوا على فراش أب مسلم ، ويحق عليهم القتل ان هم جبوا الاسلام ٠

لذلك كان من الطبيعى أن يتذمر المولدون ويرمضهم الندم ، غير أنهم كانوا أقلية ضئيلة العدد ، أما معظمهم فكانوا صادقى التعلق بالاسلام وان كان لهم أيضا ما يحملهم على الشكوى ، وقد يبدو ذلك عجيبا لأول وهلة ، اذ كيف يتأتى لهؤلاء المولدين ــ وأغلبهم من الطلقاء الدين حسن الفتح أحوالهم ــ أن ينقموا على العرب ؟ ٠٠٠ ليس ذلك بمستغرب أبدا « فالتاريخ ملىء بأشباه هذه الحوادث ، اذ ليس من الضرورى دائما أن يكون السير من سوء الى أسوأ هو الدافع الى الثورة ، وكثيرا ما يحدث أن يتحمل شعب من الشعوب أشد النكبات وكأنه غير شاعر بها ، وتفرض عليه أصرم القوانين فلا يئن منها ، لكنه لا يلبث أن يثور حالما تنتهى هذه الحال » (٤٠) ٠

أضف الى هذا أن الوضع الاجتماعى أثقل كاهل العلوج وأمض نفوسهم، فقد جرى العرب على منعهم من الوظائف ذات الرواتب الكبيرة فى جميع دواوين الحكومة لشكهم فى صدق ايمانهم ، وأسرفوا فى التعالى عليهم ، ولما كان خاتم العبودية لا يزال واضح المعالم على جباه جماعة تحررت منذ زمن قريب ، فقد كان العرب يسمونهم بالعبيد أو أبناء العبيد (٤١) على الرغم من أنه كان بينهم كثيرون من أشراف البلد وأثرى ملاكه ، فأنف

المولدون من تلك المعاملة ، وكانوا يشعرون بمكانتهم وبما لديهم من القوة المادية لأنهم يؤلفون غالبية الشعب ولم يقبلوا أن تكون القوة وقفا على فئة قليلة منطوية على ذاتها ، وعز عليهم أن يظلوا فى هذا الوضع الاجتماعى المهين ولم يعودوا يحتملون احتلال جماعة من الجند الأغراب ينزلون فى معسكرات بعيد بعضهـا عن بعض ، ومن ثم حملوا السلاح وشرعوا فى نضالهم العنيف ·

واتخذت ثورة العلوج التى ساهم فيها النصارى على قدر طاقتهم مظهرا يخالف مظهر كل ثورة أخرى فتمردت جميع الولايات والمدن الكبرى ، كل على حدة ، وفى أوقات مختلفة ، بيد أن هذا الاختلاف كان عاملا على طول الصراع وشدته كما سيرى القارىء فيما بعد ·

***

الفصل الثالث

أوليات عهد عبد الرحمن الأول الطيبة • الأمير هشام يختار قضاته من تلاميذ مالك بن أنس • الفقيه يحيى بن يحيى البربرى وازدياد شأنه • انقلاب الفقهاء على الأمير • تآمرهم عليه ومحاولتهم عرض الحكم على ابن شماس ولكنه يغدر بهم • القبض على بعض المتآمرين • وقوف غربيب الشاعر ضد الحكم • أطماع عمروس الشخصية تدفعه للتآمر على بنى جلدته • الخيانة ـ المذبحة فى شيوخ طليطلة •

الفصل الثالث

يوم الحفرة ونتائجه

كان عدد المولدين (١) عظيما في العاصمة وكان معظمهم من الطلقاء الذين يمارسون فلاحة الأرض التي اشتروها أو ممن يعملون في أراضي العرب (٢) ، وقد مكنهم حذقهم وقوتهم واقتصادهم من أن يصيبوا حظا من الرفاهية ، يتجلى ذلك في سكنهم على الخصوص في الربض (٣) الذي كان من أجمل ضواحي المدينة ، غير أنه كانت تسيطر عليهم نزعات ثورية ، كما أسلموا قيادهم — في عهد الحكم الأول — الى الفقهاء الطامحين الذين جروهم الى ثورة أدت الى نكبة فظيعة وقعت بهم ٠

لقد كان عبد الرحمن الأول أحرص على سلطانه من أن يأذن للفقهاء ورجال الدين بممارسة أي سلطة للتدخل في أساليبه الاستبدادية ، لكن نفوذ هذه الجماعة ما لبث أن ازداد زيادة كبيرة أيام ولده وخليفته هشام الذي كان في حقيقته رجلا متدينا ومثلا للفضيلة ، والذي تساءلت رعيته وقت اعتلائه العرش عما اذا كان يؤثر الخير أو نقيضه اذا خير بينهما ، ذلك أنه كان يظهر الطيبة والسماحة في بعض الظروف (٤) ، ويبدي في ظروف أخرى رغبة في الثأر ويجنح للقسوة (٥) ، غير أن الشك تلاشى في هذه الناحية حين تنبأ له أحد المنجمين (٦) بالموت المبكر (٧) ، فعزف منذ هذه اللحظة عن جميع الملذات الدنيوية ولم يعد يشغل نفسه الا العمل لأخراه وأخذها بالاحسان ، فراح يقتصد في ملبسه ويذرع بمفرده شوارع العاصمة مخالطا الأهالي ، ويعود المرضى ، ويدخل أكواخ الفقراء ٠ ودفعته الشفقة الزائدة الى الاهتمام بكل ما يتعلق بآلامهم وحوائجهم وطالما كان يخرج من قصره متسربلا بالظلام — والسماء تمطر — يحمل الأدوية لعيادة ناسك متدين ويجلس الى جوار فراشه يؤانسه (٨) ، وكان حرصه الشديد على التزام فرائضه الدينية قد دفع رعيته للاقتداء به ، وكان يصر الصرر

بالأمـوال يبعث بهـــا فى الليـــالى المطرة المظلمة الى المساجد فتعطى لمن نعمرها (٩) .

★★★

فى هذا الوقت بالذات قام فى الشرق مذهب فقهى جديد على رأسه فقيه المدينة : مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة السنية فى الاسلام (١٠) ، وكان هشام شديد الاحترام له (١١) ، وكان مالك شديد الكراهية لساداته العباسيين منذ أن جرموه لنصرته أحد العلويين ضدهم فضربوه حتى انخلعت كتفه (١٢) ، ومن ثم راح يكتم اعجابه بالسلطان الأندلسى — منافس جلاديه — قبل أن يعرف الى أى حد يستحق هذا الحاكم تقديره ، بيد انه مال اليه كل الميل حين أخذ تلاميذه الأندلسيون يمجدون أمامه تقوى هشام وفضائله حتى عده المثل الكامل لما يجب أن يكون عليه الامير المسلم ، وجاهر بأنه الشخص الوحيد الجدير بالجلوس على عرش الخلفاء (١٣) ، فلم يفت تلاميذ مالك أن يحملوا الى مولاهم التقدير العظيم الذى شهد به له أستاذهم ، فعمل هشام بكل ما وسعه الجهد للدعوة فى الأندلس لمذهب مالك وحمل العلماء على السفر للدراسة فى المدينة ، كما آثر اختيار قضاته وأئمته من بين تلاميذ مالك .

وبلغت المدرسة الجديدة ذروة القوة وقت أن قبض الموت هشاما سنة ٧٩٦ م [صفر ١٧٠ هـ] فانخرط فى سلكها كثير من الشبان اللبقين الطموحين والجسورين أمثال يحيى بن يحيى (١٤) [البربرى] الذى لم ير مالك تلميذا يبزه فى ملازمته اياه ، والأخذ عنه ، وحدث ذات مرة أن مر بالشارع فيل والامام آخذ فى التدريس فغادر حلقته مستمعوه جميعهم لمشـاهدة هذا الحيـوان العجيب عن كثب غير يحيى فقد لازم مكانه ، فاستولت الدهشة على الأستاذ الوقور الذى لم يؤلمه أن يهجره تلاميذه ويؤثرون على مجلسه دابة ذات أربع قوائم غير يحيى فسأله فى رقة : « مالك لا تخرج فتراه فانه لا يكون بالأندلس ؟ » فأجابه يحيى : « انما جئت من بلدى لأنظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجىء لأنظر الفيل » ، فسر مالك من رده وسماه منذ ذلك الحين بعاقل أهل الأندلس ، وطبقت شهرة يحيى آفاق قرطبة حتى لقد كانوا يقولون انه أعلم علماء البلد (١٥) . الا أنه كان الى جانب علمه الغزير كثير الزهو ، وبذلك جمع هذا الرجل الفذ بين حمية الثورى الحديث وبين تطلع سيد العصور الوسطى الرومانى الى السيطرة (١٦) .

★★★

كان طبع السلطان الجديد مخالفـــا لطبع يحيى وبقيــة الفقهـاء المالكيين ، ولسنا نقصد بذلك أنه كان غير متدين ، فهو قد تأدب على يد رجل حج الى مكة (١٧) ، وكان مولى من موالى جده ، فنشأ منذ نعومة أظفاره

على احترام الدين ورجاله ، حتى لقد كان يأنس لمحاورة فقهائه ، وكان شديد التوقير لشيوخه ، نازلا على مشورة قضاته حتى ولو حكموا ضد ذوى قرباه وأقرب أصدقائه اليه (١٨) بل وحتى ضده هو نفسه (١٩) ، ولكنه كان لا يستطيع استساغة حياة النسك التى يريدها له الفقهاء نظرا لطبيعته المرحة التى تفيض بالرغبة فى التمتع بالحياة ، وكان يعشق الطراد الذى يمجونه وراحوا يكثرون من تسفيهه لديه ٠

واذا جاز لهم أن يغفروا له كل ذلك فما كان لهم أن يغفروا له استئثاره بالسلطة حين أبى أن تكون فى أيديهم السيطرة التى أرادوها للتدخل فى أعمال الدولة ، أفهل تراه لم يفهم أن الفقهاء المرتبطين بتحالف قوى ورباط جديد [وهو المذهب المالكى] انما كانوا سابقا عصب الدولة وكانوا قوة يعتمد عليها السلطان ويعتد بها ؟

وانقلب الفقهاء الى معارضين أشداء حين فجعوا فى آمالهم بعد أن انتفخت أوداجهم بالتيه القوى الكامن تحت ستار الخشوع ، فأخذوا يلعنونه ويفتزون عليه شتى الافتراءات ، حتى اذا فرغت جعبتهم راحوا يعرضون به كلما ذكر اسمه ، فأمروا المصلين أن يسألوا الله له الهداية بأمثال هذه الدعوات (٢٠) : « يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون فى أمر ربه : أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك ٠٠٠ !! » ٠

وكان علوج قرطبة على استعداد للمشاركة فى هذا الاتجاه كما هى عادتهم ، فاستسلموا للفقهاء الذين أخذوا فى بادىء الأمر يستغفرون للمذنب الكبير ، ثم أسرفوا فرجموه ذات يوم وهو سائر فى شوارع العاصمة ، الا أن السلطان تمكن هو وحرسه من أن يشقوا لأنفسهم طريقا بحد السيف بين الجموع ، وانقمعت الفتنة (٢١) ، وذلك سنة ٨٠٥ م [= ١٨٩ هـ] ٠

حينذاك تآمر يحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار (٢٢) وغيرهما من الفقهاء مع جماعة من أهل المدينة ووجوهها ، وعرضوا السلطان على ابن شماس (٢٣) ابن عم الحكم الذى أبدى لهم رغبته فى معرفة أسماء من يستطيع الاعتماد عليهم قبل موافقته على طلبهم ، فوعده المتآمرون باعداد القائمة ، وحددوا له ليلة يجيئونه فيها ، فلما غادروه انفلت ابن شماس سرا الى قصر السلطان وقص عليه جميع ما جرى ، فأنصت له السلطان وهو يكاد لا يصدق ما يسمع ، ثم قال له غاضبا : « أردت أن تغرينى بأعلام بلدى؟ والله لتصححن هذا عندى أو لأضربن عنقك ٠٠٠٠ !! » فقال ابن شماس : « ابعث الى أمينك ليلة كذا » ، فوعده الحكم بذلك ، فلما كانت الساعة المحددة أنفذ الى بيت ابن عمه كاتم سره « ابن الخدا » وغلامه الحبيب « برلنت » (٢٤) وكان أسبانيا مسيحيا ،

فاجلسهما ابن شماس خلف ستار ثم أدخل المتآمرين وسألهم : « من معكم في هذا الأمر ؟ » وأخذ كاتبه يدون أسماء المتآمرين وهم يذكرونهم ، وفيهم جماعة من المعروفين بأنهم أخلص القوم للسلطان ، فخاف « ابن الخدا » أن يذكروه هو ذاته ، فرأى من الحكمة أن يفهمهم بوجوده فصوت بالقلم في الرق ، فلما سمع القوم صرير القلم هبوا فزعين وصاحوا بابن شماس : « فعلتها يا عدو الله !! » ، ونجح كثيرون منهم في النجاة اذ أسرعوا بمغادرة العاصمة وفيهم عيسى بن دينار ويحيى الذى ذهب يلتمس النجاة في طليطلة التى كانت قد تحررت من نفوذ السلطان ، وفشل بعض المنكوبين فوقع في أيدى عمال الحكومة اثنان وسبعون منهم ، فيهم ستة من وجوه قرطبة فصلبوا عن آخرهم (٢٥) ٠

وجاء العام التالى ٨٠٦ م [١٩٠ هـ] فاغتنم أهالى قرطبة فرصة مغادرة الحكم العاصمة لاخماد الثورة التى قامت بها « ماردة » ضده وأضرموا نيران فتنة جديدة (٢٦) تفاقم خطرها تفاقما حمل السلطان على الاسراع في العودة حيث أخمد النائرة ، وراح فيها أخطر العصاة ما بين مصلوب وقتيل (٢٧) ٠

اذا لم تكن أحداث القتل الكثيرة هذه كافية لبث الخوف في نفوس القرطبيين فان المصير المروع الذى ألم بعد قليل بالطليطليين قد أفهمهم ان الحكم لا يتورع عن الغدر أو القتل اذا آمن بضرورتهما لردع الثوار ، وهو الذى كانت طبيعته الخيرة آخذة في السخط شيئا فشيئا من الروح الثورية التى بدأت تضطرم في نفوس رعاياه ٠

بقيت عاصمة القوط القديمة (٢٨) عند الفاتحين «مدينة الملوك» (٢٩) وبزت سواها من المدن في أهميتها السياسية والدينية بفضل الشرذمة القليلين من العرب والبربر (٣٠) الموجودين داخل أسوارها وبفضل صيتها القديم ودراية علمائها ونفوذ فقهائها ، كما عرف أهلها بحبهم للاستقلال لما انطبعوا عليه من الأنفة والبطولة حتى ليؤكد أحد المؤرخين العرب أنه لم يتهيأ لحاكم آخر رعية لها ما لهذه الرعية من روح الحرية والثورة (٣١) ٠

أما غربيب الشاعر (٣٢) (الذى كان من أسرة مولدة ومحبوبة من الجميع) فقد عملت رسائله وأشعاره على ابقاء النار مشبوبة الأوار حتى لقد خافه السلطان الذى لم يجرؤ على اتخاذ شيء ما ضد طليطلة طيلة حياة هذا الشاعر ، فلما مات أفضى الحكم الى علج من « وشقة » اسمه عمروس بكل ما يشغل باله ضد أهل طليطلة الذين أوغلوا في الغى والفتنة وقال له : « لم يعد لى أمل في الانتصاف من أهل طليطلة الا على يدك اذ رجاء ميلهم اليك للدعوة التى أنت منها » ثم عرض عليه خطته التى وافقه عليها عمروس رغم ما انطوت عليه من فظاظة ووعده بتنفيذها ، وكان هذا الرجل

عبدا لأطماعه لا يزجره ايمان ولا يردعه قانون ولم يتورع عن أن يقدم مواطنيه قربانا من أجل حصوله على معاونة السلطان له ، ثم استولت على مشاعره فيما بعد فكرة تأسيس امارة تحت حماية فرنسا فخان السلطان عند ابن شرلمان (٣٣) .

عين الحكم حينئذ عمروسا حاكما لطليطلة سنة ٨٠٧ ميلادية [= ١٩٢ هـ] وكتب الى الأهالى فى نفس الوقت رسالة ضمنها قوله لهم : « انى اخترت لكم عمروسا وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » .

وعمل عمروس الحيلة فى كسب ثقة الأهالى به واطمئنانهم اليه ، وتظاهر لهم باهتمامه الشديد بالمصلحة الوطنية ، وأخذ يؤكد لهم مرارا عديدة كراهيته الشديدة للسلطان وللأمويين والعرب عامة ، حتى اذا محضه الأهالى عطفهم قال لزعماء سكان المدينة : « ان سبب الشر بينكم وبين أصحاب الأمير انما هو اختلاطهم بكم ، وقد رأيت أن أبنى بناء خارج البلد أعتزل فيه أنا وأصحاب السلطان رفقا بكم فتسلموا من شرهم » .

لم يكتف أهل طليطلة بقبول العرض الذى تقدم لهم به ابن جلدتهم فقد كانت ثقتهم به كبيرة حتى لقد ألحوا عليه بوجوب تشييد الحصن فى وسط المدينة وليس خارجها ، فلما تم البناء استقر فيه عمروس بجنده ، وأخبر السلطان الذى بادر لساعته فكتب الى قائد من قواده قائم بحراسة الثغر الأعلى يطلب اليه أن يمده بالرجال ، فصدع القائد بالأمر وشرعت قوات قرطبة والمدن الأخرى فى الزحف ، واستعمل عليها ثلاثة وزراء ، وابنه عبد الرحمن الذى لم يكن يتجاوز حينذاك الرابعة عشرة من عمره ، ثم أسلم أحد قواده خطابا على ألا يطلع عليه الوزراء الا حين اجتماعهم بعمروس .

حين قارب الجيش طليطلة بلغه الخبر بتقهقر العدو (٣٤) ، واذ ذاك أفهم عمروس أشراف قرطبة أن الكياسة تقتضيهم أن يصحبوه لزيارة ولى العهد ، فنزلوا على ارادته ، وبينما الأمير الصغير يتحدث اليهم ويحاول كسب مودتهم بما يبديه لهم من ضروب المعاملة المستحبة خلى عمروس بالحجاب الذين جاءوا لسماع رسالة السلطان التى ترشد كلا منهم الى ما يجب عليه عمله ، وكانت البقية كافية لمعرفة مضمونها لأن كل شىء كان يسير وفقا لارادة الحاكم .

عاد عمروس الى أشراف طليطلة فوجدهم مسحورين بحسن مقابلة الأمير لهم ، فقال لهم : « اسألوا ولد الحكم الدخول الىكم ليرى هو وأهل عسكره كثرتكم ومنعتكم وقوتكم ، وليكرمكم بذلك وتكونوا من خواصه

فهلل الطليطليون لهذه الفكرة • والواقع أن كل شيء كان يسـير بدقة واحكام ، فقد ولى السلطان عليهم رجلا اسبانيا [هو عمروس] ومنحهم الحرية التي كانوا شديدى الصبوة اليها ، كما أن حسن لقاء عبد الرحمن لهم أطمعهم فى أن هذا الأمير — حين يتولى العرش — سوف ينهج معهم منهج أبيـه ، ومن ثم رغبوا اليه أن يشرف مدينتهم بالزيارة ، فتمنع عبد الرحمن فى بادىء الأمر اذ كان أبوه قد نصحه بعدم التسرع ، ثم تظاهر أخيرا بالنزول على توسلاتهم ودخل معهم الحصن بعد أن أمر باعداد العدة لمأدبة تقام فى الغد ، وأرسلت الدعوة الى رجال فى الحاضرة والريف كانوا وجوه القوم : ثروة ومولدا •

وفى صباح اليوم التالى وفد المدعوون زرافات الى الحصن وان لم يدخلوه الا فردا فردا من أحـد أبـوابه ، وصرفت دوابهم الى البـاب الخلفى (٣٥) فى انتظارهم ، وكان فى الساحة حفرة يأخذون منها الطين المعد لبناء الحصن ، ويقوم على شفير هذه الحفرة سيافون يضربون عنق كل داخل ، واستمرت هذه المجزرة المروعة عدة ساعات ، ومن المستحيل تحديد عدد القتلى الذين لقوا مصرعهم فى ذلك اليوم المشئوم الذى عرف بيوم الحفرة ، وان كان بعض المؤرخين يذكر أن القتلى بلغوا السبعمائة (٣٦)، ويزعم آخرون أنهم أكثر من خمسة آلاف (٣٧) •

ولما صارت الشمس فى كبد السماء كان هناك رجل حكيم لم ير أحدا قط يخرج من الباب الخلفى أو الأمامى فثارت شكوكه ، وسأل الجمهور الواقف عند باب الحصن عما حدث للضيوف الذين وفدوا من الصباح الباكر فأجابوه : «انهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر» ، فقال الرجل : « مالقينى منهم أحد » ، ثم تمعن فى الدخان المتصاعد فوق الأسوار وصاح بهم : « يا أهل طليطلة : السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخة ! » •

وهكذا حرمت طليطلة — مرة واحدة — من أغنى أبنائهـا وأعظمهم نفوذا ، وخيم عليها ذهول الحزن ولم يتحرك بها أحد قط للثأر لقتلى يوم الحفرة (٣٨) •

الفصل الرابع

السلطان يستعمل المماليك الخرص • تطاول العامة على السلطان وعلى جنده • الفقيه يحيى يؤلب الناس على الحاكم • نشوب معركة بين الأهالى وبين جند السلطان • هجوم عبد الله البلنسى على الثوار • حيلة الحكم فى هزيمة الثوار • هدم الربض والأمر بمغادرة أهله الأندلس • مغادرة أكثر أهل الربض الأندلس الى اسكندرية وكريت • ترحيب الأدارسة بالمنفيين وانزالهم مدينة فاس الجديدة • الحكم يعود فيعفو عن الفقهاء ويردهم الى سابق مكانتهم • قصة اختفاء الفقيه المعافرى عند أحد اليهود • أبو البسام يشى بالفقيه طالوت وينضى بخبره الى السلطان ويسلمه اليه • السلطان يواجه طالوت ويحاوره ثم يعفو عنه ويطرد أبا البسام من مجلسه • السلطان يدافع عن نفسه شعرا • ويبرر شدته •

الفصل الرابع

تــولى الحــكم الأول

تركت مذبحة يوم الحفرة تأثيرا عميقا في نفوس علوج قرطبة فركنوا الى الهدوء سبع سنوات تلاشى بعدها أثر هذه النكبة لاسيما حين قامت طليطلة من جديد فحطمت القيد وازداد التقارب يوما بعد يوم في العاصمة بين أعلاجها وفقائها وتواصوا بالشجاعة ، ولم يعد في قوس صبرهم منزع لنقمة مولاهم السلطان الذى يظهر انه أخذ على عاتقه افهامهم استحالة قيامهم بأية ثورة ، فأحاط المدينة بالحصون الشامخة ، واستكثر في حرسه من الفرسان المماليك المسمون بالخرص لأنهم كانوا من الزنوج أو العبيد الأعاجم الذين لا يعرفون العربية (١) .

غير أن هذه الاحتياطات كانت أدعى الى هياج النفوس منها الى حملها على الطاعة ، فتزايدت كراهيــة المتذمرين قولا وعملا لاسيما في المنطقة الجنوبية التى زخرت بما لا يقل عن أربعة آلاف شخص ما بين فقيه وطالب فقه ، وما كان أنكد حظ الجند الذين تحدثهم أنفسهم بالسير فرادى أو في جماعات صغيرة في شوارع هذه الناحية الضيقة الملتوية ، اذ لا يكاد الناس يرونهم حتى يأخذوا في سبهم وضربهم ولا يحجمون عن قتلهم دون أن يأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى لقد كانوا يتطاولون على « الحكم » نفسه وتنطق الألسن بلعنته ، واذا صعد المؤذن للصلاة سمع الحكم ــ الذى كان عليه الحضــــور الى المسجد ــ أصـــــواتا بين الصفوف تقول (٢) : « الصلاة : يا مخمور الصلاة » ، وكانت هذه الصيحات تتردد كل يوم دون أن يفلح رجال السلطة في الضرب على أيدى المدبرين لها ، وقد حدث ذات مرة أن تطاول رجل من العامة فجابه السلطان بالسب فتعالى تصفيق الجماعة له ، فذهل الحكم وأسخطه تعرض سيبته الملوكية لهذه الاهانات الوضيعة ، فعمد الى عشرة من زعماء مثيرى الفتنة وصلبهم . ثم أعاد على الغلال العشور التى كان أبوه قد رفعها ، غير أن هذا الاجراء لم يزل

القرطبيين ولم يزعزع عنادهم ، بل أخـذ محرضوهم العـاديون فى اثارة مشاعرهم ، وعاد يحيى الى العاصمة ، وكان له من خطبه وذيوع صيته ما مكنه من قيادة الحركة وتوجيهها ، وأصبح الناس قاب قوسين أو أدنى من الثورة التى شاءت الصدفة أن تعجل بها أسرع مما كان ينتظر .

ففى شهر رمضان (٣) من سنة ١٩٨ هـ [= مايو ٨١٤ م] اغتنم الوعاظ فرصة الصيام لزيادة اضرام حقد الشعب على السلطان ، وحدث أن ذهب أحد مماليكه للبحث عن صيقلى فى الربض وناوله سيفه ليصقله له ، فطلب اليه الانتظـار قليلا حتى يفرغ مما فى يده ، فأنكر الجندى الانتظار وأمره أن يستجيب له فى لحظته فلم يجبه الصانع بل أفهمه وجوب التريث حتى يحين دوره ، فغضب الجندى وضرب الرجل بسيفه ضربة صرعته ، فلما شاهد القوم هذا المنظر استبد بهم الغضب وتعالت صيحاتهم بأن قد دنت اللحظة التى يتخلصـون فيها من هؤلاء الجند السفلة ومن مستأجرهم الطاغية ، وسرت حماسة الثورة الى الضواحى الأخرى فزحف على القصر جمهور كبير سلح نفسه فى أقصر وقت بكل ما وصلت اليه يداه ، ومضى يلعن جند السلطان ومواليه وعبيده الذين كانوا يعرفون ألا أمل لهم فى الحياة ان هم وقعوا فى أيدى الثائرين ، وفروا من أمامهم للاحتماء وراء أسوار قصر السلطان .

وأشرف الحكم من سطح قصره على هذه الجموع المزمجرة التى تهدر غضبا كأنها أمواج البحر المزبدة ، وتصرخ صرخات مفزعة ، فرأى السلطان أن العنف كفيل بتبديد شملها وسرعان ما فوض ذلك الى فرسانه ، لكن ما كان أشد خيبته حين لم يتزحزح القوم كما كان يأمل ، بل استبسلوا فى مقاومة الضغط وتكاثروا على الفرسان وأرغموهم على الارتداد (٤) .

وبلغ الخطر غايته .

وعلى الرغم من تحصين القصر الا أنه لم يكن من المنعة بالدرجة التى تمكنه من مقاومة هجمات الثوار طويلا ، ودب اليأس فى قلوب المدافعين الشجعان الذين أدركوا انهم سيقتلون بلا رحمة ان ظفر بهم الثوار ، وبقى الحكم وحده ــ رغم يأسه هو الآخر من نجاح المقاومة ــ يرقب الأمور ثابت الجنان ، ثم دعى غلامه النصرانى «برلنت» ، وأمره أن يذهب الى امرأة له سماها له وأن يطلب منها قارورة الغالية ، فوقف الغلام مبهوتا ظنا منه أن السلطان أخطأ فى منطقه ، واتهم الخادم سمعه ، فكرر عليه الأمير كلامه قائلا : « انطلق يا ابن اللخناء فعجل !! » فمضى برلنت وعاد بالقارورة الى السلطان الذى أخذها منه وأفرغها على رأسه ولحيته فى هدوء يخيل لرائيه معه أنه فى موقف يتأهب فيه للذهاب الى احدى جواريه بالقصر ، فاختلط الأمر على برلنت الذى لم يستطع كتمـــان دهشـته وقال له : « يا مولاى ... أهذا يوم الغالية ؟ أهذا يوم تتطيب فيه يا سيدى وقد

ترى ما نحن فيه ؟ » فحنق الحكم وسبه وأتم تعطير نفسه ثم قال له : « بما يعـرف رأسي ـ ان قطع ـ من رءوس العـــامة ان لم يكن مضمخا بالغالية ؟ ۰۰۰ امض فاطلب جديرا (٥) الى هنا (٦) ! » ۰

كان حدير قائما بحراسة حبس الدويرة الذى زج فيه الحكم بكثير من الفقهاء ممن قبض عليهم ابان الثورات السابقة لكنه أبقى على حياتهم ، أما فى هـذه المرة فقد رأى أن الفقهــاء والشعب يعملون على حرمانه من الحياة ، ومن ثم قرر ألا يبقى هؤلاء السجناء من بعده ، فلما قدم اليه حدير حيث هو قال له : « اذا أظلم الليل أخرج هؤلاء المشايخ واضرب رقابهم وصلبهم ، فاضطربت أوصال حدير فزعا من سماعه الجريمة التى يأمره مولاه باقترافها فقال له : « يا مولاى والله انى لأكره لك ولنفسى أن أكون غدا أنا وأنت فى زاوية من زوايا جهنم ، تهر الى وأهر اليك ، لا تنفعنى ولا أنفعك » ، فغضب الحكم من كلامه وأعاد عليه أوامره فى لهجة قاطعة ، ولما رأى استحالة تغلبه على مخاوفه خلعه من منصبه واستدعى اليه ابن نادر [البواب] وكان صاحب حدير وأقل منه ترددا ، فتعهد [ابن نادر] بتنفيذ أوامر السلطان بكل دقة (٧) ۰

ونزل الحكم من على السطح متدرعا من رأسه الى قدميه وطاف بجنده ثابت الجنان ، وردت كلماته النارية اليهم شجاعتهم التى ولت ، ثم استدعى اليه ابن عمه عبيد الله [البلنسى] أبسل محاربى ذلك العصر ، وطلب اليه أن يقود كتيبة ممتازة من جنده يشق بها طريقه بين الثوار ويضرم النار فى الربض ، مقدرا ان سكان هذا الحى سيتركون أماكنهم حين يرون منازلهم تحترق فيمضون اليها سراعا لاخماد النار ، واذ ذاك يمضى عبيد الله فيهاجمهم من الأمام ، وينسل الحكم بمن بقى من جنده فيكر عليهم من الخلف ۰۰ وما أشبه هذه الحيلة الناجحة بالحيلة التى ضمنت النصر لمسلم فى وقعة الحرة مما لم يفت المؤرخين العرب (٩) ۰

وفتح باب القصر بغتة وخرج منه عبيد الله ، فرد القوم ناحية باب الجسر ، وسار بفرقته مهاجما الشارع الكبير والرملة وعبر النهر عند مخاضة فيه بعد أن ضم الى جانبه جنود « القنبانية » الذين رأوا ما صنعه الحكم منذ بدء الفتنة ، فأضرم النار فى دور الربض الجنوبى ، وصدق الحكم فيما توقعه فقد غادر الأهالى أماكنهم من أمام القصر حيث شاهدوا تصـاعد اللهب [من دورهم] وخفوا لانقاذ نسائهم والذرارى ، واذ ذاك أحيـط بهم فجأة من خلفهم وقدامهم ، فـدب الذعر فى نفـوس هؤلاء المنكوبين ، وجـرت فيهم بعدئذ مذبحة شـنيعة ، وذهبت أدراج الرياح توسلات القرطبيين ولم يجدهم القاؤهم السلاح نفعا ، فقد لقى المئات منهم حتفهم على أيدى أولئك الخرص القســـاة ، والأعاجم الذين لا يفهمون توســلات المغلوبين على أمرهم ، ولم يبقوا الا على ثلاثمائة من وجوههم

أخذوهم الى السلطان كمظهر من مظاهر ولائهم له ، أما البقية الباقية منهم فقد أمر السلطان بصلبهم منكسى الرؤوس على طول شاطئ النهر (١٠) .

***

مضى الحكم بعد ذلك يشاور وزراءه فيما ينبغى عليه اتخاذه : أيعفو عن الثوار الذين نجوا من الموت ؟ أم يأخذهم أخذ عزيز جبار فيقتلهم على بكرة أبيهم ؟ ... فتشعبت الآراء ، غير أنه مال للأخذ برأى المعتدلين(١١) الذين أشاروا عليه ألا يسرف فى انتقامه ولكنه أمر أن يهدم الربض القبلى عن آخره ، وأن يغادر أهله الأندلس فى فترة ثلاثة أيام ، فان تخلف أحد منهم بعد ذلك صلب .

حمل أولئك المنكوبون ما استطاعوا حمله من المتاع وغادروا بنسائهم وأولادهم البقعة التى استقبلوا فيها الحياة والتى لن يقدر لهم أن يشاهدوها بعد ذلك أبدا ، ولم يسمح لهم السلطان بالخروج جميعا معا ، فمضوا فى شراذم صغيرة ، وتربص لهم فى الأخوار وخلف الصخور جماعات من الجند والشطار الذين راحوا ينهبون ما معهم ، حتى اذا بلغوا ساحل البحر الأبيض المتوسط أبحر بعضهم شطر غرب افريقية ، والبعض الآخر الى مصر ، وكان هؤلاء الأخيرون قرابة خمسة عشر ألف رجل غير النساء والأطفال ، ثم أرسوا على مقربة من الاسكندرية ، ولم تستطع الحكومه منعهم من ذلك لأن مصر التى كانت دائمة الثورة على العباسيين كانت فى هذه الفترة نهب الفوضى الشاملة .

ولم يجد المنفيون بدا من التقرب الى أقوى قبيلة عربية فى تلك الناحية ، وكان هذا ما فعلوه . لكنهم ما كادوا يشعرون بقدرتهم على التخلص من حماية هؤلاء البدو لهم حتى نقضوا عهدهم معهم ، وشبت الحرب بين الطرفين وهزموهم فى البرية ثم استولوا على الاسكندرية ، وعلى الرغم من أنهم هوجموا مرات عدة الا أنهم تمكنوا من البقاء فى تلك المدينة حتى سنة ٨٢٦ م [= ٢١١ هـ] حين أرغمهم أحد قواد الخليفة المأمون على التسليم له (١٢) ، واذ ذاك ركبوا البحر الى جزيرة أقريطش التى كانت لا تزال تابعة للامبراطورية البيزنطية ففتحوها ، وأقام شيخهم أبو حفص عمر البلوطى (١٣) دولة ظلت تحكمها حتى استردها اليونان (١٤) سنة ٩٦١ م [= ٣٥٠ هـ] .

***

أما الجماعة الأخرى التى كانت تتألف من ثمانية آلاف أسرة فلم تصادف مثل هذه المصاعب فى موطنها الجديد ، ففى هذا الوقت بالذات كان الأمير ادريس يعمل فى بناء عاصمة جديدة سميت فيما بعد بفاس وقد بذل جهده لجذب الأجانب اليها بعد أن أبدت رعيته — ومعظمها من البدو الرحل — نفارة عميقة اذ كانوا يتمنعون أن ينزلوا الحضر . ومن ثم

سهل على الأندلسيين المنفيين السماح لهم بالاقامة فيها على أن يتعهدوا بالركون الدائم الى الهدوء ، وكذلك قدمت جماعة من العرب من القيروان استقرت بفاس وكان كل من هؤلاء العرب وأحفاد الأيبيريين الرومان يحقد أشد الحقد على الآخر ، وعلى الرغم من استقرار الشعبين معا على أرض واحدة الا أن كلا منهما ظل بمعزل عن الآخر ، حتى اذا كان القرن الرابع عشر للميلاد كان من اليسير أن يعرف المرء أول مطالعته وجوه كلا الفريقين أن كلا منهما ينتمي الى جنس غير جنس الآخر وذلك لتعارض أذواقهما وحرفهما وأخلاقهما ، وكأن كلا منهما أبى الا المحافظة على هذا التباين الجنسى فكان العرب عمالا وتجارا ، واحترف الأندلسيون فلاحة الأرض واكتسبوا قوتهم بشق النفس • أما العرب فقد أثروا واغتنوا ، ولما كان العربى يحب الرفيق الجميل والزينة والطلاوة فى كل شىء فقد عد الأندلسى خشنا جافا مقترا على نفسه ، وكان الأندلسى من جانبه يعتبر العربى رخوا يبعثر أمواله فى التافه ، وربما كان الأندلسى راضيا بقناعته وحياته الساذجة التى ألفها ، أو أنه كان يخفى وراء استخفافه الكاذب حسدا تنطوى عليه نفسه تجاه ثروة جاره ، ولقد خاف الأمير ادريس أن تنشب المنازعات والخصومات بين الفريقين المستوطنين ففصل بينهما ، وجعل لكل منهما ناحية خاصة به ، وحيه الذى فيه مسجده ودوره بل وأسواره ، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فقد ظل العداء العنيف مستحكما بين العرب والأندلسيين لعـدة قرون ، وكثيرا ما كانت الأرض الحرام الواقعـة على شاطىء النهر والتى لا تزال تفصل الى اليوم هذين الحيين بعضهما عن بعض مسرحا للحروب بينهما (١٥) •

***

بعد أن شاهد القرطبيون مصارع آبائهم ونسائهم وأبنائهم ونفيهم تكفيرا عن تمردهم ، اذا بهم يرون الفقهاء ـ وكانوا أكثر منهم ايغالا فى الجرم ـ وقد عفت الحكومة عنهم ، ولم تكد الثورة تنتهى حتى ضرب الحكم لهم المثل الأعلى على تسامحه ، ذلك أنه كان قد صدر الأمر بالقبض على كل مشتبه فيه ، متهم بالعمل على بعث الفتنة وقتله حتى ولو لم يشترك فيهـا عن قصد ورضى ، وحدث أن عثر عمال الشرطة على فقيه مختف فى حريم جار له من القضاة فهموا بقتله فصرخت النساء وأعولن فبادر القاضى ـ الى دفع الشرطة عنه وحاول عبثا اطلاق سراحه بقوله لهم : « انه سليم الناحية وليس فيه مما تظنون شىء » فدفعه رئيس الشرطة قائلا له بخشونة : « ليس هذا من شأنك ولا مما عصب بك ، انظر فى أحكامك ودع ما لا يعنيك » واذاك أسرع القاضى الى القصر وطلب مقابلة السلطان وقال له اذ أذن له : « أيهـا الأمير ، أصلحك الله ، ان قريشا حاربت النبى صلى الله عليه وسلم وناصبته العداء ، ثم انه صفح عنهم وأحسن اليهم ، وأنت أحق الناس بالاقتداء به لقرابتك منه » ، ثم قص عليه

ما جرى ، فألان كلامه قلب السـلطان الذى لم يكتف باطـلاق سراح السجين بل زاد فأمن غيره من الفقهاء (١٦) الذين هرب أكثرهم الى طليطلة فى طلب النجاة ، ورد عليهم أملاكهم ، وأذن لهم بالاقامة أنى شاءوا من جهات الأندلس عدا قرطبة وضواحيها (١٧) ، حتى لقد عفى عن يحيى بن يحيى الليثى الذى آوته احدى القبائل البربرية ، وسمح له بالعودة الى البلاط وحباه ثانية بعطفه (١٨) ٠

لكنه استثنى من هذا الأمان جماعة كان منهم طالوت من قبيلة معافر اليمنية ، وهو من تلاميذ مالك ومن أشد المحرضين على الفتنة ، وكان قد استخفى عند يهودى عاما سئم بعده حبسه الاختيارى هذا رغم اكرام اليهودى له وتعظيمه اياه ، فقال لمضيفه : « قد عزمت غدا على الخروج وقصد دار أبى البسام الكاتب لأنه قرأ على ، ولى عليه حق التعليم ، وقد بلغنى أن له جاها عند هذا الرجل فعسى هو يشفع لى عنده فيؤمننى ويدعنى فى بلدى ! » فرد عليه اليهودى قائلا : « لا تفعل فما آمنهم عليك ، والله لو أقمت عندى بقية عمرك ما أملتنى ولا ثقل على » ، فأبى طالوت الا مغادرة بيت اليهودى رغم الحاحه عليه بالبقاء عنده ، فلما كان مساء اليوم التالى انتهز فرصة الغلس وانسل تحت جنح الظلام الى قصر أبى البســـام الكـاتب ٠

ما كاد أبو البسام يرى الرجل الطريد يدخل بيته حتى هش له ، وكان يظن أنه على بعد مائة فرسخ عن قرطبة وقال له : « مرحبا بك أين كنت فى هذه المدة ؟ » ، فقص عليه حرص اليهودى عليه واخفاءه اياه ، ثم أضاف يقول : « اشفع لى عند هذا الرجل صاحبك فعسى يؤمننى فى نفسى ويمن على بتملكى فى بلدى » ، فأجابه أبو البسام (١٩) : « الأمير ـ أبقاه الله ـ نادم على ما كان منه ، فابق عندى الليلة » ٠

واطمأن طالوت الى كلام صاحبه أبى البسام ونام ليلته قرير العين مطمئن البال ، ولم يخطر بباله أن مضيفه الذى أحسن استقباله وطمأن خاطره مفكر فى الغدر به وتسليمه الى الأمير ، لكن الخيانة كانت قد عششت فى صدره ، فما طلع الصباح حتى مضى الى القصر بعد أن احتاط ألا يهرب الفقيه ، وقال للأمير وعلى شفته بسمة خبيثة : « كيف رأيك فى كبش سمين على مذوده اليوم سنة ؟ » فلم يفطن الأمير لحقيقة ما تنطوى عليه هـذه العبارة وقال جادا : « اللحم المشبع ثقيل ، واللحم الصحراوى أخف وأعذب ! » فتابع الكاتب كلامه قائلا : « غير هذا أريد ٠٠ عندى طالوت » فسأله : « وأين ظفرت به ؟ » قال : « أتى لطفى عليه » ٠

واذ ذاك أمر الحاكم باحضار طالوت الذى ارتعدت فرائصه خوفا حين دخل مجلس الأمير ، لكن الحكم لم يظهر له الغضب بل عاتبه فى لهجة

وقيقة قائلا : « أخبرني يا طالوت لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيدك في البر والاكرام على ما كنت أفعله بك ؟ هل أوردت على قط حاجة لنفسك أو لغيرك الا سارعت الى اسعافك فيها ؟ ألم أعدك في علتك مرات ؟ ألم تتوف زوجتك فقصدتك الى بابك ومشيت في جنازتها راجلا من الربض ثم انصرفت معك راجلا حتى أدخلتك منزلك ؟ فما الذي بلغ بك حتى لم ترض الا بسفك دمي وهتك ستري واباحة حرمتي ؟ » .

فأفرخ روع طالوت بما سمع واعتقد أن حياته لم تعد في خطر واسترد رباطة جأشه وثباته ، واعتقد الحكم أنه هاجه لكن طالوت لم يتأثر قط ، وكبر عليه أن يقر بأنه كان جاحدا يده ونعمته عليه ، وعز عليه أن يعترف بجرمه في حقه وأجابه في كبرياء : « ما أجد لنفسي في هذا الوقت مقالا خيرا لى من الصدق ، أنفضتك الله فلم ينفعك عندي كل ما صنعته » .

فلما سمع الحكم هذه الكلمات التي هي أشبه بالتحدي احتدم غاضبا ، لكنه سرعان ما كظم غيظه وقال له في هدوء : « والله لقد بعثت فيك وما في الأرض عقاب الا وقد مثلته بين يدي لأوقعه بك ، فأنا أعلمك الذي تبغضني له صرفني عنك ، فانصرف عني في حفظ الله آمنا ، والله لا تركت برك وما كنت عليه في جانبك حياتي ان شاء الله ، فليت الذي كان لم يكن » .

أفهل كان في الامكان أن يفهم الأمير فقيها في لهجة أرق وأعذب من هذه اللهجة أن الله قد نهى عن الكراهية ؟ ومع ذلك فقد تظاهر طالوت بعدم فهمه الدرس الذي تلقاه ، ولعل كبرياءه المتأصلة في نفسه غشت زوجه فلم تستطع اذ ذاك ادراك ما قال ، ولم تنفرج شفتاه عن كلمة شكر ، ولم يجب الا على الشطرة الأخيرة من كلام الأمير فقال : « لو لم يكن خيرا لكان خيرا لك » ، وكان ذلك تهديدا للأمير بأفظع عقاب في الحياة الأخرى ، غير أن الأمير — رغم يقينه بأن الحق في جانبه وليس في جانب الفقهاء — كظم غيظه الى أقصى حد ، وتظاهر بعدم سماع كلام طالوت وقال له : « أين ظفر بك أبو البسام ؟ » .

فأجابه طالوت : « والله ما ظفر بي وانما أنا أظفرته بنفسي وقصدته لوصلة كانت بيني وبينه » .

قال : « فأين كنت في عامك هذا ؟ » قال : « عند رجل بالمدينة من اليهود ! » .

وحينذاك التفت السلطان غاضبا الى أبي البسام الذي ظل معتصما بالصمت طوال الحديث وقال له : « يا أبا البسام : رجل من اليهود حفظ

فيه محله من الدين والعلم ، وخاطر بنفسه وأهله وولده وماله معى ، وأردت أنت أن تنشبنى فيما أنا نادم عليه ؟٠٠ أخرج والله لا رأيت لك وجها أبدا ! » ٠

وفقد الوزير الخائن مكانته عند السلطان منذ تلك اللحظة ، أما طالوت فقد ظل ينعم حتى موته بعطف الحاكم الذى شرف جنازته بالسير فيها (٢٠) ٠

***

على الرغم من قسوة الحكم على عمال الربض : تلك القسوة التى شابهت قسوته على أهل طليطلة الا أنه لم يصطنع هذه الفظاظة ازاء الفقهاء الذين كان بعضهم عربا والآخرون بربرا ، ولما كان الحكم عربيا خالصا فقد كان يقيس الأمور بمقياسين : فبينما هو يؤمن بجواز كل شىء حيال سكان البلد الأصليين الذين كان شديد الكراهية لهم ، اذا بنا نراه يعفو عن الثوار ممن هم من بنى جنسه ، وان كان المؤرخون العرب يفسرون رحمته بالفقهاء تفسيرا آخر حين يرجعونها الى تأنيب ضميره له (٢١) ، ولا نحب أن ننكر على الحكم أنه رغم قسوته وضراوته فى بعض الأحيان الا أنه كان يتسم على الدوام بروح انسانية تؤنبه أحيانا على الخطايا التى كان يرتكبها وهو فى سورة غضبه وشدة حنقه ، كما حدث عندما أطاح برؤوس الفقهاء المحبوسين فى حبس الدويرة ، غير أنه يخيل الينا أن الموالى الأمويين — فى أثناء تدوين تاريخ مولاهم — كانوا يحاولون عبثا تمجيد ذكرى أمير اعتبره رجال الدين فى قرارة الجحيم (٢٢) فبالغوا فى تصوير ندمه ، لأنه لو حكمنا بشهادة الحكم نفسه — أعنى بالأشعار التى قالها لابنه قبل موته بقليل ، فمن المؤكد أنه كان مؤمنا بأنه كان محقا فيما فعل ، وها هى أبياته التى تختم بها هذه القصة (٢٣) اذ يقول :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا ... وقدما لأمت الشعب منذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضى السيف دارعا

وشافه مع الأرض الفضاء جماجما ... كأقحاف شريان الهبيد لوامعا

تنبيك أنى لم أكن فى قراعهم ... بوان ، وقد ما كنت بالسيف قارعا

وانى وان حادوا جزاعا من الردى ... فلم أك ذا حيد من الموت جازعا

حميت ذمارى فانتهبت ذمارهم ... ومن لم يحامى ظل خزيان ضارعا

ولما تساقينا سجال حروبنا ... سقيتهموا سما من الموت ناقعا

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدرت ومصارعا

فهاك بلادى اننى قد تركتها ... مهادا ، ولم أترك عليها منازعا

***

الفصل الخامس

أربعة يسيطرون على الأمير ويوجهونه : فقيه ومغن وامرأة وخصى • استفادة الفقيه يحيى المعنوية من ثورة الربض • شخصية زرياب المغنى وأثره فى الحياة الاجتماعية بالأندلس• أهل الأندلس يقلدون زريابا فى عاداته وأسلوب عيشه • طروب وموقعها عند أمير الأندلس • علاقتها بالخصى نصر • الفتنة الأهلية فى كورة مرسية بين اليمنية والمعدية • عصابة هاشم الحداد وتمرده ومصرعه • العلج ميسرة • الفتنة بين المولدين والنصارى فى طليطلة •

الفصل الخامس

عهد عبد الرحمن بن الحكم

لم يقدر لبلاط سلاطين الأندلس أن يزدهى ازدهاءه أيام عبد الرحمن الثانى بن الحكم وخليفته الذى أكثر حوله من الخدم والحشم تقليدا منه لخلفاء بغداد فى اسرافهم العظيم وتشبها بهم فى حياتهم الفخمة ، ومن ثم جمل عاصمته فأكثر من بناء الجسور وتشييد المساجد وانشاء الحدائق الفسيحة الغناء تشقها القنوات التى تجلب اليها المياه من الجبال (١) ٠

وكان [عبد الرحمن بن الحكم] يحب قرض الشعر ، واذا لم يكن جميع الشعر المنسوب اليه من نظمه فلا أقل من أنه كان كريما فى وصله الشعراء الذين يذبون عنه ، هذا الى لطف معشره ، ولين جانبه ، وطيبته التى قاربت حد السذاجة ، حتى لقد كان يأبى معاقبة خدمه وهم يسرقونه أمام عينيه (٢) ، وقد سيطر عليه فى حياته أربعة أشخاص : فقيه ومغن وامرأة وخصى ٠

فأما الفقيه فهو يحيى بن يحيى البربرى الذى عرفناه أكبر محرض على ثورة الربض ، وقد علمه فشله فى هذه المحاولة أنه لم يسلك جادة الصواب ، وأيقن أنه لا يجوز للعالم الدينى الذى يتطلع للسطوة أن يناصب الأمير العداء ، بل عليه أن يحتال فينال عطفه عليه ، ويعتمد على معاونته اياه ، وعلى الرغم من أن طبيعة يحيى الجريئة الشديدة الحمية قد رضخت ــ بعد لأى ــ للدور الذى ألزم نفسه القيام به الا أن عدم تقيده بقواعد السلوك وصراحته الجافة لم تصرف عنه الحاكم الدمث الذى كان كثير التدين رغم أخذه نفسه بدراسة الفلسفة (٣) ، وكان يعتبر غلظة يحيى غضبة للحق ، ومن ثم كان يتغافل عن ألفاظه الجريئة المثيرة ، وكان يطيع ما يفرضه عليه هذا المعلم القاسى من العقاب الشديد (٤) ، ويطأطىء رأسه أمام هذا الواعظ الدينى فيترك له تدبير الشئون الدينية وادارة القضاء ، ولقد تمتع

يحيى بنفوذ عظيم لشدة احترام السلطان له وتأييد معظم الفقهاء اياه ، وخوف رجال الطبقة الوسطى (٥) منه ، ولارتباط مصالح الشعب به منذ الثورة ، والتفاف جماعة من الشعراء حوله (٦) وهم جماعة لا تحتقر معونتها ، ومع ذلك فلم يكن له أى عمل رسمى ، واذا كان كل شيء رهن اشارته فمرجع ذلك الى ذيوع صيته وشهرته لا لشيء سواه ولم يكن يحيى يتردد عن الاستبداد رغم أنه كان من المنددين له ، فكان له على القضاة – اذا رغبوا البقاء فى وظائفهم – أن يكونوا آلات صماء تنفذ رغائبه . أما السلطان الذى كانت تخالجه فى بعض الأحيان الرغبة فى التخلص من سيطرة يحيى عليه فقد اقتصر عمله على تولية القضاة (٨) ، وكان يحيى يحطم كل من يجرؤ على الوقوف فى سبيله ، وجرت عادته على أن يقول للقاضى الذى لا يرغب فيه « استعف » (٩) ، فيستعفى .

***

أما الشخص الآخر الذى برز فى حياة السلطان فهو زرياب المغنى الذى لم يكن دون يحيى نفوذا وان كان نفوذه فى ناحية أخرى ، فقد وفد زرياب من بغداد ، وكان فارسى الأصل كما يظهر من اسمه ، ومولىً من موالى الخلفاء العباسيين ، وكان قد أتقن الغناء على يد المغنى الشهير اسحق الموصلى الذى سأله هرون الرشيد ذات يوم عما اذا كان لديه مغن جديد يقدمه اليه فقال له اسحق : « عندى يا أمير المؤمنين تلميذ يحسن الغناء وهو مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائعة اذا أنا وقعته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعى ، وأحدس أن يكون له شأن » ، فقال الخليفة : « هذا طلبى فأحضرنيه » .

لم يكد زرياب يتقدم للخليفة حتى نال عطفه لدماثة خلقه ورقة أحاديثه ، فسأله هرون عما يحسن من الغناء فقال : « أحسن منه ما يحسنه الناس ، وان أكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن الا عندك ولا يدخر الا لك ، فان أذنت غنيت ما لم تسمعه أذن قبلك » ، فأذن له الخليفة ، فلما أحضروا له عود أستاذه اسحق رفضه وأبى الا عوده الخاص به ، فسأله هرون حينئذ : « لما ترفض عود اسحق ؟ » فقال : « لى عود نحته بيدى ، وأرهفته باحكامي ولا أرتضى غيره وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه ، فان كان مولاى يبغى فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وان كان يرغب فى غنائى فلابد لى من عودى » ، ثم شرح له الطريقة التى اتبعها فى صنع هذا العود ، ثم غنى للرشيد أغنية نظمها فى مدحه فاستخفه الطرب حتى رَاح يؤنب الموصلى لتأخره فى تقديم هذا المغنى العجيب حتى هذه اللحظة ، فاعتذر اسحق ، وصدق فى قوله ان زريابا تعمد اخفاء عبقريته ، ثم لما خلى الموصلى بتلميذه قال له : « ان الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة لا حيلة فى حسمها،

وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك ، وقصد [أنا] منفعتك ، فاذا بي قد أتيت نفسي في مأمنها بادنائك من أمير المؤمنين ، فعن قليل تسقط منزلتي عنده وترتقي أنت فوقي ، وهذا ما لا أصاحبك عليه حتى ولو كنت ولدي ، ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك أو يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لابد لك منهما : اما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع بخبرك بعد أن تعطيني الايمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفا مني ، فخذ الآن حذرك فلست والله أبقي عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني ومالي فاقض يا زرياب قضاءك !!

فبادر زرياب بالسفر في الحال وغادر بغداد بعد أن أخذ المال الذي أرفده به اسحق ، الا أن الخليفة لم يلبث أن أمر اسحق باستقدام تلميذه فأجابه : « ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهي به من غنائه فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعارته فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عني ، وقد صنع الله خيرا في ذلك لأمير المؤمنين فانه كان به لمم يغشاه فيفزع من رآه » ، فتأسف الخليفة لرحيل المغني الشاب الذي كان يؤمل له مستقبلا طيبا ، ولم يخالجه شك في صدق ما حكاه اسحق له ٠

والواقع أنه كان هناك جانب من الحق في رواية المغني الكبير ، فقد كان زرياب يؤمن بأنه يسمع في نومه عزيف الجن فيهب من رقاده فزعا ، ويدعو الى فراشه جاريتيه : غزلان وهنيدة بعوديهما ويلقنهما اللحن الذي سمعه في سباته ، ويأخذ هو في كتابته ، ولم يكن ذلك من الجنون في شيء كما يعرف اسحق ذلك تمام المعرفة ، وأي فنان يؤمن بالجن أو ينكره لم تمر عليه هذه اللحظات التي يكون فيها تحت سطوة عاطفة يصعب تحديدها ؟ ولكنها على أية حال أشبه ما تكون بطاقة فوق طاقة البشر ٠

وذهب زرياب يفتش عن حظه في المغرب ، فلما بلغ افريقية كتب الى الحكم أمير الأندلس مبديا له رغبته في الاقامة ببلاطه ، فوقع هذا الكتاب من نفس الحكم موقع الرضا والغبطة وأجابه ملحا عليه أن يبادر ما وسعه الجهد الى المجيء الى قرطبة ، ووعده بالعطاء الجزيل ، فعبر زرياب حينئذ مضيق طارق مع نسائه وأولاده ، لكنه ما كاد يغادر السفينة وينزل في الجزيرة الخضراء حتى كان الحكم قد ودع الحياة ، فانزعج بال زرياب وفكر في العودة الى افريقية لولا أن أقبل المنصور — المغني اليهودي — الذي كان الحكم قد ندبه لاستقباله فأغراه بالتخلي عن هذه الفكرة ذاكرا له

أن ولع عبد الرحمن بن الحكم بالغناء ليس دون ولع أبيه به ، ولا مراء فى أنه لن يقصر عنه فى وصله ، وبرهنت الحوادث على صدق قول «المنصور» فلما سمع عبد الرحمن بن الحكم بخبر مقدم زرياب كتب اليه يدعوه للحضور الى بلاطه ، وطلب الى عماله أن يتلقوه أحسن لقاء ، وعهد الى كبير غلمانه أن يصله بالبغال وغيرها من الهدايا ٠

وبلغ زرياب العاصمة قرطبة فأنزله السلطان فى بيت ضخم ، وأذن له بثلاثة أيام يستجم فيها من وعثاء الرحلة ، فلما انقضت هذه الأيام دعاه الى قصره وبدأ حديثه معه بافهامه الشروط الهائلة التى يشترطها ازاء اقامته فى قرطبة ، اذ أجرى عليه معاشا قدره مائتا دينار كل شهر ، وأربع هبات فى السنة ، وألف دينار فى كل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة فى كل من يومى المهرجان والنوروز ، هذا الى مائتى قنطار من الشعير ومائة من الحنطة فى العام ، وأذن له فى استغلال عدد معين من الدور والضياع التى تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار ، ثم سأله عبد الرحمن أن يغنى له فغنى فأطربه غناؤه حتى استخفه السرور ولم يعد يستسيغ غناء أحد سواه ، وعاش عنده أطيب عيش ، وكان السلطان يحب الحديث اليه فى التاريخ والشعر وجميع الفنون الأدبية التى كان هذا المغنى العجيب ملما بها كل الالمام ٠

وكان زرياب الى جانب قرضه الشعر واستظهاره عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى مع أصواتها عارفا بعلمى الفلك والجغرافية ، ولم يكن ثم أقيم من سماع حديثه عن البلدان المختلفة وعادات سكانها ، وكانت روحه وذوقه وجميل شمائله تبز علمه الواسع ، وليس هناك من يداتيه فى أحاديثه النيرة ولا فيما وهبه الله من غريزة تقدير الجمال واكباره الفن فى كل شىء كما لم يكن هناك من يفوقه فى كياسته وأناقته أو فى اعداده المآدب ، فكان الناس يعدونه رجلا عظيما ونموذجا لكل ما يتعلق بالذوق الرفيع ، وبذلك أصبح مشرع اسبانيا العربية ٠

وكانت اصلاحاته عظيمة متعددة فأحدث انقلابا جوهريا فى العادات ، واذا كان الناس قد ألفوا ارسال شعورهم الى الوراء فى غدائر طويلة ، وأن يفرقوها فى الوسط من الجبين ، وأن يستعملوا على المنضدة أوانى من الذهب أو الفضة ، وأسمطة من التيل ، فقد أصبحوا الآن يعقصون شعورهم فى حلقات ، وأضحت الأوعية من الزجاج ، والأسمطة من الجلد وهو ما يحبه زرياب ، كما كان يحدد نوع الملابس التى تنبغى لكل فصل من فصول السنة ، وحبب الى عرب الأندلس طعام «الهليون» الذى لم يكن يخطر لهم على بال ، وسميت باسمه بعض أنواع الطعام التى ابتدعها ٠

والخلاصة أن القوم أخذوا يترسمون خطاه فى كل شىء من دقائق الحياة حتى لو تفه هذا الشىء ، وظل اسم هذا الابيمورى اللطيف حيا على الألسن حتى نهاية الحكم الاسلامى فى الأندلس الذى لم يوجد فى تاريخه اسم ينازعه البقاء سواء فى ذلك العلماء البارزون أو الشعراء المفلقون والأسخياء العظام وكبار الحجاب والأمراء (١٠) ٠

لم يكن زرياب كما يبدو كثير الانغمار فى السياسة رغم ما كان له من تأثير على عبد الرحمن ، وهو تأثير أدركه الشعب الذى كان يؤثر أن يرفع الى زرياب شخصيا ما يريد أن يوصله الى سمع السلطان (١١) ، وكان زرياب يؤمن بأن الحياة أجل من أن تقضى فى بحث أمور الدولة أو تدبير المؤامرات أو الجدل ، ومن ثم ترك أمر هذا كله للسلطانة « طروب » وللخصى « نصر » (١٢) ٠

***

أما طروب فكانت امرأة أنانية طموحة خلقت لتدبير المؤامرات ، وكانت شديدة التطلع للمال فكانت فى بعض الأحيان تبيع – لا حبها اذ ليس لمثلها من النساء حب – ولكنها كانت تبيع ما تملك فى سبيل شراء عقد بثمن خرافى ، وأحيانا بأكياس المال التى يسد بها زوجها بابها حين ترفض فتحه له (١٣) ٠

وقد عملت فظاظة قلبها وطمعها ورياؤها على شدة ارتباطها برجل جشع قاس ، ذلك هو « نصر » الخصى الذى كان ابن اسبانى أعجمى اللسان (١٤) ، يضمر الكراهية الشديدة للمسيحيين المتمسكين بعقيدتهم ، وهى كراهية لا تكون الا فى قلب مرتد ٠

***

تلك كانت حال البلاط فى هذه الحقبة ٠

أما البلد فكان أبعد ما يكون عن الاستقرار والطمأنينة ، اذ شبت فى كورة « مرسية » حرب بين اليمنية والمعدية دامت سبع سنوات ، كما كانت « ماردة » دائمة الثورة ، اذ كان مسيحيوها على اتصال بلويس التقى والتشاور معه (١٥) ٠

كذلك ثارت طليطلة ٠

***

لم تكد تنقضى سنوات قلائل على يوم الحفرة حتى استرد أهل طليطلة استقلالهم وخربوا « حصن عمرون » فاحتال الحاكم من جديد

لاسترداده ، فغادر قرطبة متظاهرا بالزحف على « قطالونيا » وعسكر فى كورة « مرسية » حيث أنبأه جواسيسه باهمال الطليطليين حراسة أبواب مدينتهم ليلا اعتقادا منهم أنهم بمنجاة من الخطر ، فأسرع الى أحد هذه الأبواب ، ثم أضرم النيران فى جميع دور الجبال التى بالمدينة (١٦) وكان من بينها بيت علج صغير اسمه « هاشم » اضطر للرحيل الى قرطبة وهو فى حال عوز شديد واحترف الحدادة لكسب قوته ، ولما كانت نفسه تضطرم بالرغبة فى الثأر لما نزل بمواطنيه من الاهانات فقد دبر مؤامرة مع عمال طليطلة ثم غادر بعدها قرطبة للعودة من جديد الى وطنه الأول حيث تزعم العامة وأخذوا يتصيدون جند عبد الرحمن بن الحكم وأعوانه سنة ٨٢٩ م [= ٢١٤ هـ] ، ومضى هاشم بعد ذلك يذرع رحاب البلد بعصابته لا يصادف قرية من قرى العرب أو البربر الا نهبها وأحرقها ، وأخذت هذه العصابة تزداد قوة يوما بعد يوم ، فانضم اليها من كل ناحية العمال والفلاحون والعبيد والمغامرون من كل الفئات ، فأمر عبد الرحمن عامله على الثغر الأعلى « محمد بن وسيم » بالزحف على هؤلاء لكنهم أرغموه على التقهقر · ودأب هذا الحداد ـ مدة عام كامل ـ على التخريب دون أن يخشى عقابا ، وأخيرا بعث السلطان بنجدات الى عامله وأنبه على تقاعسه ، فأعاد الكرة مهاجما وانتصر هذه المرة ، واستمرت المعركة بضعة أيام انتهت بهزيمة المتمرد وقتله (١٧) · لكن طليطلة كانت لا تزال حرة ·

ومن ثم أمر السلطان فى سنة ٨٣٤ م [= ٢١٩ هـ] الأمير « أمية » بمحاصرتها ، فاستبسل أهلها فى صد هجمات هذا القائد الذى خرب الأرباض المجاورة لهم ، لكنه اضطر الى رفع الحصار والعودة الى قرطبة ، فلما رأى الطليطليون جيش العدو يغادر أرضهم صمموا على مناوشته أثناء ارتداده ، الا أن أمية كان قد ترك فى قلعة رباح قوة من الجند بقيادة « ميسرة » العلج الذى رصد للطليطليين كمينا حين ترامى اليه خبر ما اعتزموه ، وباغتهم بالهجوم عليهم وأعمل فيهم مقتلة عظيمة ، وجاء الخبر الى ميسرة كما هى العادة برؤوس أعدائه ممن سقطوا فى المعركة ، غير أن هذا القائد العلج كان لا يزال مقيما على حبه لأبناء جنسه فما كاد يرى رؤوس القتلى حتى ثارت عاطفته الوطنية وداخله الندم على اخلاصه للمعتدى على أرضه ، ثم لم يلبث الا أياما قلائل مات بعدها حزنا وكمدا ·

***

على الرغم من أن السلطان كان قادرا على أن ينكب طليطلة بين حين وآخر الا أنه كان عاجزا عن استرقاقها طالما كان الوفاق يسودها ، بيد أن سوء الطالع أبى الا أن ينصرم حبل هذا الوفاق ، ونحن وان كنا نجهل ما جرى بالمدينة الا أن الحوادث التى وقعت بعد عام ٨٧٣ م تحثنا على الظن بوقوع الفتنة والشقاق فيها بين المولدين والنصارى ، ذلك أن زعيما

طليطليا يدعى « ابن مهاجر » ــ وكان على ما يظهر من المولدين ، غادر طليطلة مع أعوانه وذهب يعرض خدماته على قائد قلعة رباح الذى بادر الى قبول عرضه وتشاور مع أولئك المهاجرين ، فقر الرأى على محاصرة المدينة واجاعتها ، وعهد الى الأمير الوليد ــ أخى السلطان ــ بمحاصرتها حصارا دام مدة عام خربت المجاعة أثناءه طليطلة ، واذاك ندب القائد العربى رسولا من قبله أشار على أهلها بالتسليم ، ذاكرا لهم أنهم ان لم يستسلموا طوعا استسلموا كرها ، وان الخير لهم فى اغتنام هذه الفرصة المتاحة لهم لعرض حاجاتهم ، فأصر أهل البلد على الرفض ، وكان من سوء حظهم أن هذا الوسيط الذى شاهد شجاعتهم من قبل قد شاهد الآن تدهور وضعهم وسوء حالهم ، فلما انكفأ الى قائده حثه على تسعير القتال ، فنزل الوليد على اشارته وخرب طليطلة يوم ١٦ يونيو ٨٣٧ م [= ٢٢٣ هـ] بعد أن ظلت تتمتع ثمانية أعوام بالاستقلال التام ، ولا يفيدنا المؤرخون عن الطريقة التى عامل بها السلطان سكان المدينة ، بل ان كل ما يذكرونه هو أن عبد الرحمن أخذ منهم الرهائن وأعاد بناء حصن عمروس (١٨) ٠

***

وشهدت السنوات الأخيرة من عهد عبد الرحمن محاولة نصارى قرطبة القيام بثورة ذات طابع خاص ، وهى الثورة التى نلفت اليها الآن نظر القارىء ، وقد أمدنا مؤرخو منتصف القرن التاسع السلاتين بكثير من التفاصيل عنها وعن أسلوب حياة مسيحيى قرطبة ومشاعرهم وأفكارهم ، وسنحاول جهد ما أمكننا عرض صورة تفصيلية صادقة لها ٠

***

الفصل السادس

حسن معاملة السلطة الحاكمة لنصارى قرطبة ورد الفعل من جانبهم • استعراب المسيحيين عامة وميلهم الى الآثار الفكرية العربية والاسلامية • تدهور الأدب المسيحى • رد الفعل من بعض المسيحيين • المؤلف يوضح الجهل المسيحى والأوربى بالاسلام ونبيه • دفاع المؤلف عن سماحة الاسلام • تطور المقاومة المسيحية • تطلع بعض الجماعات المسيحية للموت على يد السلطة الحاكمة • شخصية ايولوج وأسرته ، الفارو المتعصب • وقوع ايولوج فى حب فلورا ابنة احد المسلمين • تاثير امها المسيحية عليها • شخصية فلورا • هربها هى واختها من اخيهما المسلم • عودة فلورا والمواجهة بينها وبين اخيها المسلم • صبرها على التعذيب • هروبها للمرة الثانية• اول لقاء بينها وبين ايولوج وحبه لها • هروبها للمرة الثالثة •

الفصل السادس

ايولوج وفلورا

لم يلاق الفريق الأكبر من نصارى قرطبة ـ وهم أكثر النصارى ثقافة ـ ما لقيه اخوانهم من الاضطهاد ، بل تركت لهم الحرية فى ممارسة شعائر دينهم ، ومن ثم شملهم السرور (١) وعمتهم الغبطة وانخرط الكثيرون منهم فى الجيش ، وتولى البعض منهم أرفع المناصب فى البلاط وفى قصور السادة العرب الأغنياء (٢) ، وراحوا يقلدونهم فى كل شىء يفعلونه ، فاصطنع بعضهم الحريم (٣) ، كما بهر الأدب العربى الكثيرين من أصحاب الذوق الرفيع فاجتذبهم اليه حتى نبذوا الأدب اللاتينى وانصرفوا للكتابة بلغة الفاتحين دون سواها انصرافا حمل أحد كتاب ذلك العصر على التحسر ، ولما كان هذا الكاتب أحسن وطنية من أغلب مواطنيه فقد قال : « لقد هام أبناء جلدتى النصارى بقراءة أشعار العرب وأقاصيصهم (٤) وأصبحوا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ، لا يهدفون من وراء ذلك الى دحضها بل يريدون التمتع بديباجتها العربية المشرقة ، فأين هو اليوم ذلك العالم الذى يقرأ الشروح اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ، وأين ذلك الذى يدرس الأناجيل وسير الرسل والحواريين والأنبياء ؟ .. وا أسفاه . ان جميع شباب النصارى الموهوبين لا يعرفون غير العربية والأدب العربى ، وهم شديدو الانكباب على مطالعة الكتب العربية ودراستها ، كما يسخون كل السخاء فى تكوين المكتبات الكبيرة ويشيرون أنى كانوا الى روعة هذا الأدب ، فاذا حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك ساخرين بأنها أتفه من أن تستحق عنايتهم أو يبذلوا فيها اهتمامهم » .

فيا لعظم الفجيعة ويا هولها !!

« لقد تناسى المسيحيون كل شىء حتى لغتهم ، وقل أن تجد واحدا فى الألف من بيننا يستطيع تحرير خطاب باللاتينية الصحيحة الى صديق له ،

فان جئت الى العربية وجدت الكثيرين منهم يتكلمون هذه اللغة فى أسلوب عذب وعبارة سلسلة،وينظمون القصائد الرائعة التى تبز من الناحية الفنية قصائد العرب أنفسهم (٥) . وأخيرا فليس من الغريب أن نرى هذا الايثار للأدب العربى والهجران التام للأدب اللاتيني ، اذ لم يعد بقرطبة شيء من كتب شعراء العصر القديم (٦) ؛ ولم تعد كتب اللاهوت تجتذب اليها كثيرا من الرجال العلمانيين ، واتسم الأدب المعاصر بسمات الانحطاط الشديد ، أما من بقى ينظم باللاتينية فقد نسى (٧) قواعد النظم ، وأضحى الشعر أبياتا (٨) مقفاة لايهتم المرء فيها الا بمراعاة التفاعيل ، ومن ثم كان نظما مبتسر الأسلوب مبتذله .

***

واستعرب نصارى قرطبة واطمأنوا للاحتلال الأجنبى ، ولكن كانت هناك بعض استثناءات لهذه القاعدة ، اذ لم تمت روح الكرامة الوطنية واحترام النفس فى جميع القلوب ، فكان هناك رجال كرام أنفوا أن تكون النذاله سر تقدمهم فى قصور العظماء ، وغاظهم أن يروا مدينتهم الوطنية التى لا تزال تزهو باسمها القديم قد أصبحت مقر السلطان (٩) ، وحسدوا ولايات شمال الأندلس الصغيرة التى صليت بحرب دائمة ولكنها نجحت فى التحرر من النير العربى وآل حكمها الى الأمراء المسيحيين (١٠) ، وأقضت الآلام المبرحة مضاجع هؤلاء المتذمرين الوطنيين ، كما دأب السلاطين – بين حين وآخر – على اصدار أوامر واتخاذ اجراءات تعمل على زيادة جرح كبرياء أولئك النصارى وعقائدهم ، من ذلك مثلا ارغامهم على الختان كالمسلمين سواء بسواء (١١) ، وكان القسس أشد هؤلاء الناس سخطا وتأصلت فى نفوسهم كراهية شديدة ضد المسلمين لاسيما وأن هؤلاء القسس كانوا يعتنقون أفكارا سيئة عن الرسول [صلعم] وعن المبادىء التى جاء بها ، مع أن فهمها كان ميسرا جدا عليهم نظرا لتقلبهم بين العرب ، لكنهم انصرفوا عن الرجوع الى المصادر الموجودة فى متناول أيديهم ، وآمنوا بما لقنهم اياه الجاهلون وما راج من الخرافات المستحيلة عن الرسول [صلعم] ، من ذلك أن ايولوج ، الذى لا يشك فى أنه كان أعلم قسس هذا العصر وأعرف القوم بالعربية معرفة تمكنه من أن يقرأ فى يسر مؤلفا تاريخيا فى هذه اللغة – أقول أن أيولوج هذا لم يذهب الى الكتب العربية يلتمس فيها أخبار حياة محمد [عليه الصلاة والسلام] بل راح يطلبها فى مخطوط لاتينى وقع فى يده عن طريق الصدفة وقد وجده فى دير « بامبلونة » ، فكان مما قرأه فيه « ان محمدا – وقد اقتربت منيته – أنبأ أصحابه أن الملائكة سترفعه ثالث أيام موته ، فلازم أصحابه جسده فى انتظار المعجزة ، فلما انصرم اليوم الثالث دون أن يروا ملكا تركوها ظنا منهم أن ملازمتهم

اياها منعت الملائكة من القدوم . واذ ذاك جاء الكلاب فالتهمت بعضها ، ودفن المسلمون ما تبقى منها ، ومن ثم رروا قتل عدد كبير من الكلاب سنويا انتقـاما منهـــا » وقد علق ايولوج على هذا بقوله : « تلك هى معجزات (١٢) نبى المسلمين » .

ولم يكن المام القسس بمبادىء وتعاليم محمد [صلعم] بأحسن من المامهم بتاريخه ، وكان طبيعيا أن يصطدم من تشبعوا بأفكار الزهد ومن حرم عليهم حب النساء بفكرة تعدد الزوجات وما بالجنة من حور عين (١٣) ، ولعل أعجب العجب ما تخيلوه من أن النبى [صلعم] يناقض ما بشر به المسيح ، فيقول ألفا رو : « ان عدو مخلصنا قد قدس اليوم السادس (١٤) من أيام الأسبوع الذى ينبغى أن يكون يوم حزن وصـــيام ذكرى لآلام سيدنا يسوع المسيح فجعله يوم لهو وفجور ، ولقد أمر المسيح تلاميذه بالعفة أما هذا فقد دعاهم للانغماس فى الملذات ، واذا كان المسيح قد دعى الى الزواج فقد جاء هذا ودعا الى الطلاق » (١٥)

على أنه من المستحيل أن نعثر فى العهد الجديد على ما ينسبه ألفارو الى السيد المسيح فى قوله : « وقد أمر المسيح أن يمتنع المرء عن زوجته أيام صيامه ، أما هذا فقد أمر بأن تكون أيام الصوم هذه على الخصوص أيام متعة جسدية » (١٦)

ومع أن الفارو كان قليل العلم بكثير من أمور البلاط الا أنه كان يعلم بمدى سيطرة يحيى على عبد الرحمن بن الحكم وذلك حين لم يمسك السلطان عن النساء خلال شهر الصوم (١٧) .

من هذا يستدل على أنه كانت لدى القسس فكرة خاطئة كل الخطا عن الدين الاسلامى الذى كان اخوانهم النصارى يعرفونه أحسن منهم ، والذين حاولوا افهامهم أن محمدا [صلعم] قد بشر بدعـــوة خلقية بحتة (١٨) ، لكن محاولتهم هذه ضاعت أدراج الرياح ، ودأب رجـــال الكنيســـة (*) على ادراج الاســـلام فى نفس مرتبة الوثنية الرومانية واعتباره عبادة أصنام من ابتداع الشيطان (١٩) .

غير أننا اذا أردنا معرفة سر مقتهم هذا لوجب أن نفتش عنه فى طبـــع العرب وليس فى الدين الاســـلامى ذاته ، ذلك أن انهمـــاكهم فى الملذات وكثرة ما حـــاق بالقسس كانا من المظـــــالم والعـــوامل التى عملت على بث الكراهية فى نفوس القساوسة الذين كانوا يحبون الرياضة الروحية العميقة والنسك الشديد والتشدد فى التوبة ، واذا كان المسلمون الكبار أذكى من أن يضايقوا النصارى بسبب عقيدتهم فان العامة ــ كما هى فى كل مكان ــ كانت لا تتسامح معهم ، وكانت اذا رأت قسيسا فى

الشارع صاحت به « هذا هو المجنون » وترنمت ساخرة بالصليب ، ورجمه الصبية بالحجارة ، وطالما سمعهم القسس أثناء الجنائز يقولون « لا رحمهم الله » ، وفي الوقت نفسه تتساقط على الموكب الأقذار والحجارة ، واذا قرعت نواقيس الكنائس للصلاة هز المسلمون رؤوسهم وقالوا : « يالها من جماعة ساذجة منكوبة أفسدها قسسها ، وما أشد حماقتها اذ تؤمن بما يلقنونها اياه من المفتريات ، ألا لعنة الله على أولئك الخادعين » ، وكان كثير من المسلمين ينفرون من النصارى أو على الأقل من قسسهم ، فاذا كلموهم وقفوا على بعد منهم حتى لايمسوا ملابسهم (٢٠) كما يقول ايولوج ٠

الا أن هؤلاء المعتبرين أنجاسا الذين كان الاتصال بهم كالاتصال بالأجرب والذين كانوا يرددون كلمات المسيح الى تلاميذه « سيكرهكم الجميع من أجل اسمي » قد تذكروا جيدا أن نظامهم كان أقوى نظام في الدولة وقت أن كانت السيادة للنصرانية في أسبانيا ووقت أن شيدت الكنائس الفخمة في كل مكان (٢١) ٠

وأحس القسس والرهبان والقلة من العلمانيين الذين يفكرون تفكيرهم بجرح كبريائهم ، وأحنقتهم الشتائم التي كانت تنهال عليهم ، فانطلقوا يعملون في حماسة ، ولم يركنوا الى اجترار آلامهم في صمت ، ولم يعودوا يقنعون بالنذور التي لا تجدي ولا بتمزيق نفوسهم غضبا ، بل قام هؤلاء الرجال المتحمسون في المدن البعيدة عن مركز الاحتلال الاسلامي ونجحوا في رفع راية الثورة وأصبحوا مقاتلين ٠

أما في الجبال فقد سلكوا سبيل الحرية التي يحياها أهلها وعاشوا عيشة قطاع الطرق ٠

وسواء أكانوا جنودا في طليطلة أو شطارا في جبال مالقة فقد أعلنوا على المسلمين حربا تفوق الوصف ٠

وأما في بلد السلطان فقد استحال عليهم القيام بثورة مسلحة ، ومن ثم سلكوا سبيل الاستشهاد ، ولازم القسس بيوتهم لايبرحونها الا للضرورة القصوى (٢٢) تفاديا لاهانة العامة لهم ، وطالما تظاهروا بالمرض فيلازمون فراشهم طوال يومهم تهربا (**) من الجزية التي تصر الدولة على أخذها منهم (٢٣) في نهاية كل شهر ، فكان من جراء انزوائهم الطويل وملازمتهم الوحدة والتأمل وانطوائهم على أنفسهم أن نمت فيهم الكراهية السوداء وكانوا يشعرون بالسرور كلما تزايدت هذه البغضاء في نفوسهم وفي تذكرهم ما يجد من الآلام ، وكانوا يستيقظون عند

غروب الشمس ويجلسون للقراءة فى صمت الليل الرهيب أمام ضوء مصباح خافت تتذبذب شعلته (٢٤) ويطالعون اصحاحات معينة لا سيما الاصحاح العاشر من انجيل متى(٢٥) وكتابات آباء الكنيسة وحياة القديسين التى تكاد تكون الكتب الوحيدة المعروفة عندهم ، ويقرؤون قول المسيح : « ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، ولكن احذروا الناس لأنهم سيسلمونكم الى مجالس ، وفى مجامعكم يجلدونكم وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلى : شهادة لهم وللأمم ·· لاتخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لايقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (٢٦) ·

وعرفوا من سفر الآباء أن الذين لهم ملكوت السموات هم الذين يتقدمون عن طيب خاطر لنيل الشهادة ·

غير أن الذى ألهب على الخصوص خيال هؤلاء القسس هو صورة هؤلاء القديسين الذين ذاقوا الاضطهاد على أيدى معارضيهم والذين كانوا لايتهربون من الشهادة بل يؤثرون هذا الضرب المقدس من الموت (٢٧) ، فأعجب القسس أيما اعجاب بهؤلاء الأبطال ، واشتدت رغبتهم فى الاقتداء بهم والسير على نهجهم ، وكرهوا أنه لم يقدر لهم أن يلقوا من الاضطهاد مثل الذى لقيه هؤلاء ، ودعوا الله مخلصين أن يتيح لهم فرصة القيام بعمل عظيم فى سبيل الدين ، وأن يجدو الميتة التى لقيها خدام الرب فى أيام الكنيسة الأولى ·

***

وتأثرت هذه الجماعة المتحمسة المتعصبة بتحريض رجلين بارزين هما القديس أيولج والعالم ألفارو ·

أما ايولوج فكان من أسرة قرطبية قديمة عرفت بتعلقها بالنصرانيه وكراهية المسلمين ، وكان جده لأبيه ـ واسمه أيولوج أيضا ـ قد اعتاد ـ اذا سمع المؤذن يؤذن للصلاة ـ أن يرسم الصليب ويرتل كلمات المزامير (٢٨) : « اللهم لا تصمت ، ولا تسكت ولا تهدأ يا ألله ، فها هو ذا أعداؤك يعجون ، ومبغضوك قد رفعوا الرءوس » ، وعلى الرغم من شدة نفور هذه الأسرة من المسلمين الا أن أصغر أخوة ايولوج الثلاثة واسمه يوسف كان أحد موظفى دواوين الحكومة ، واحترف أخواه الآخران التجارة (٢٩) ، وضربت احدى أخواتهم واسمها « أونولون » الخمار على وجهها ، أما ايولوج نفسه فقد أعد نفسه منذ الصغر لخدمة الكنيسه فنشأ بين قساوسة كنيسة القديس « زويل » (٣٠) وانكب ليلا ونهارا على

الدراسة حتى بز اخوانه بل ومؤدبيه أنفسهم ، ولما كان يتحرق لاستيعاب مالا يستطيعون تدريسه له فقد اعتصم بالصمت خوف ايلامهم ان هو أطلعهم على رغبته الخفية ، لكنه كان يخرج في السر ويذهب دون علمهم لسماع دروس أشبهر فقهاء قرطبة لاسيما رئيس دير (٣١) SPERA-IN-DEO البليغ الذى ألف كتابا فى تفنيد العقائد الاسلامية (٣٢) وكتابا عن استشهاد الرجلين اللذين قطعت رأساهما في مستهل حكم عبد الرحمن الثانى (٣٣) ، فكان لهذا الراهب المتحمس أكبر الأثر فى نفس ايولوج الشاب ، فهو الذى بث فيه ما امتاز به طول أيام حياته من الكراهية العميقة الهمجية ضد المسلمين ، كما تعرف ايولوج أيضا فى دير « سبيرا ان ديو » على شاب شريف غنى من أهل قرطبة اسمه « ألفارو » ، ولم يكن ألفارو يعد نفسه للخدمة الكنسية لكنه كان مقيما على تتبع محاضرات الراهب الشهير الذى كان يشاطره نفس تلك العواطف، فتفاهم ايولوج مع ألفارو وأحب كل منهما الآخر وتوثقت بينهما عرى الصداقة فاندفع ألفارو حين أخذ فيما بعد فى ترجمة حياة صديقه — يسهب فى سرور فى ذكر الفترة التى أشهد الله فيها — هو ورفيقه — على صداقتهما الأبدية ، وهى الفترة التى كان أهم ما يشغلهما فيها كتابة كتب فى الأدب والشعر ، وهى الكتب التى أعدماها فيما بعد رغم ما يرتبط بها من الذكريات الجميلة مخافة ألا تحكم عليها الأجيال القادمة الا بهذه الآثار التى تنقصها حماسة الشباب (٣٤) .

***

كان ايولوج فى بادئ الأمر شماسا ثم صار قسيس كنيسة القديس زويل ، وأكسبته فضائله تقدير جميع من عرفوه فكان يحب التردد على الأديرة التى أصبح له فيها نفوذ عظيم ، وبالغ فى تقواه العجيبة فكان يقهر جسمه بالصوم والسهر الدائبين ، وكان يدعو الله مخلصا أن يخلصه من حياته التى كان منها فى وزر ، ويسأله أن يدخله ملكوت الصالحين (٣٥) .

غير أن هذه الحياة الجافة أضاءتها أشعة عذبة من الحب ، وهو حب طاهر عف بالغ السذاجة حتى ان ايولوج نفسه لم يكن يحسبه حبا فلم يفكر فيه من هذه الناحية بل كان يقر بخطاياه فى سذاجة محببة الى النفوس ، ذلك أنه كانت توجد حينذاك فى قرطبة فتاة شابة رائعة الجمال تدعى « فلورا » نشأ بينها وبين أيولوج حب روحى عجيب ربط بين قلبيهما ، وكانت فلورا ابنة رجل مسلم وأم مسيحية فاعتبرت مسلمة ، ومات أبوها وهى مازالت طفلة فنشأتها أمها التقية على النصرانية وعلى اكبار كل ما هو مسيحى مقدس ، غير أن أخاها — وكان شديد التمسك باسلامه — أخذ يرقب عن كثب جميع خطاها ، فلم تكن

تستطيع الذهاب الى القداس الا نادرا ، وأزعجها هذا التضييق فتساءلت : ألم تكن مخطئة في تظاهرها بالاسلام ؟ ألم تقرأ في انجيلها الحبيب قول المسيح « كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات ، ولكن من ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضا قدام ابي الذي في السموات » ٠ وكانت فلورة فتاة قوية الشجاعة جريئة باسلة ، ذات عزيمة لاتقهر ، وطبيعة نافذة جسورة ، ميالة للمخاطرة ، ومن ثم جمعت أمرها وغادرت البيت دون أن تعلم أخاها أين هي ذاهبة ، واصطحبت معها أختها « بلديجوتون » Baldegarone التي كانت تشاطرها عواطفها ، واختفت الأختان عند النصارى ، وفتش أخوهما عنهما عبثا في جميع الأديرة ، وزج في السجن بالقساوسة الذين ترامى الشك في أن لهم ضلعا في اختفاء الفتاتين فلم يجده ذلك نفعا ، وحينذاك عادت فلورا من تلقاء ذاتها الى البيت اذ لم تشأ أن تكون سببا في الحاق الاضطهاد بالمسيحيين ، وجاءت الى أخيها قائلة له : « ان كنت تبحث عني واضطهدت رجال الرب من اجلي فها أنا ذا ٠٠ لقد جئت اليك تدفعني الجرأة لأن أقول لك ان شكوكك صادقة ، واني مسيحية ، فحاول أن جرؤت ـ أن تفصلني عن المسيح بتعذيبك اياي ، فقد وطنت نفسي على احتمال كل شيء » ٠ فصاح بها أخوها : « ما أتعسك أيتها الشقية ٠٠٠ ألا تعرفين أن ديننا يأمر بقتل المرتد ؟ » فأجابته فلورا : « بلى ٠ أعرف ذلك ، لكنني سأصيح وأنا على المشنقة ، يا يسوع يا سيدي وربي أفض على حبك أمت سعيدة » فاحتدم أخوها المسلم غضبا من اصرارها وصفعها بشدة ، غير أن فلورا كانت أقوى من أن يؤثر فيها الألم الجسماني ، فلما رأى أخوها ان شدته معها لم تجد نفعا حاول استمالتها باللين فلم ينجح أيضا ، وحينئذ مضى الى القاضي وقال له : « دونك أختي أيها القاضي ، لقد كانت دائبة معي على تعظيم ديننا الكريم واقامة شعائره حتى أفسدها النصارى وأوحوا اليها احتقار رسولنا ، وجعلوها تؤمن أن عيسى هو الله » ، فسألها القاضي : « أحقا ما يقوله أخوك ؟ » فأجابته : « أو تسمي هذا الكافر بأخي ؟ انه ليس بأخي وما تراني الا منكرة أخوته ، وهو لايقول الا الكذب ، فلم أكن أبدا مسلمة ، وما عرفت قط منذ طفولتي غير المسيح وما عبدت سواه ربا ، وما لي عريس غيره » ٠

لم يكن ثمت مندوحة أمام القاضي من الحكم بقتل فلورا الا أنه عطف على شبابها ورقت عاطفته لجمالها ، فأمر اثنين من الشرطة ببسط ذراعيها والشد على رقبتها وضربها بالمقارع ، ولا شك أنه كان يعتقد أن العقاب الجثماني كاف لارجاع هذه الشاة الضالة الى حظيرة الايمان ، ثم أسلمها

بعد ذلك الى أخيها وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة قائلا له : « ثقفها فى ديننا فان لم تهتدي فهاتها الى ثانية ! » .

وعاد المسلم بأخته الى البيت وعهد بها الى أهله وخاف أن تعاود الكرة فتهرب ثانية فأحكم غلق الأبواب مكتفيا بذلك ، اذ كان هناك سور عال يكتنف طوابق مسكنها كلها ، وفاته أن امرأة شجاعة كفلورا لاتقف فى طريقها مثل هذه العقبة ، فلم تنقض الا أيام قلائل على هذا الحادث حتى أحست الفتاة فى نفسها قوة تدفعها لمحاولة الهرب ، ولم تكن جراحها قد اندملت بعد تماما ، فاغتنمت فرصة ظلام الليل واعتلت سطح مسكن قائم فى الحوش وتسلقت الحائط بخفة وتدلت حتى بلغت الأرض سالمة وصارت فى الشارع وأسرعت تحت جنح الظلام ، وساعدها الحظ فبلغت دار أحد معارفهــا النصارى واختبأت لديه فترة من الزمن حيث رآها ايولوج لأول مرة (٣٦) ، وكان لجمالها وعذب حديثها وطيب أخلاقها ومخاطراتها الخيالية وصبرها على تحمل الآلام وتقواها الشديدة وصوفية حماستها أثر (٣٧) بالغ على خيال القس الشاب رغم سيطرته على نفسه ، فأحس نحوها بمحبة نافذة وحب رفيع يسميه الناس بالحب العذرى الذى يضرم النفوس بلهيب الرغبات المقدسة .

***

بعد ذلك بست سنوات كان أيولج لايزال يذكر تفاصيل هذه المقابلة الأولى التى لم تبل ذكراها من ذهنه ، بل الظاهر أنها أخذت فى الازدياد والحيوية بمرور السنين ، تشهد على ذلك كلماته العاطفية التى كتبها الى فلورا حينذاك اذ يقول لها :

« أيتها الأخت المباركة الطوبانية : لقد تنازلت فأريتنى ـ منذ أمد بعيد ـ رقبتك الممزقة بالأسواط ، وقد قصوا لك شعرك الكث الجميل الذى كان يتهدل عليها فيسترها ، وكان لك أن اعتبرتنى أباك الروحى واعتقدت فى العفة والطهر اللذين هما منك ، وقد مست راحتاى جراحك مسا حنونا ، وكم وددت لو أبرأتها بمرور شفتى عليها ، غير أنى لا أجرؤ على ذلك ، فلما تركتك كنت كالحالم وأخذت زفراتى تتصاعد بلا انقطاع » (٣٨) .

***

وخافت فلورا أن يستدل القوم على مكانها بقرطبة فاصطحبت معها أختها « بلديجوتون » واختبأتا فى مكان آخر ، وسنقص فيما بعد كيف اكتشفها ايولوج وأين اكتشفها .

الفصل السابع

التقاء القسيس برفكتوس ببعض المسلمين وتهجمه على دينهم • مقاضاته • مباهاته بالنيل من الاسلام وتنفيذ حكم الشرع فيه • صفة يوم مقتله • المسيحيون يعتبرونه قديسا • تنبؤه قبل هلاكه بموت نصر الخصي • تآمر طروب مع نصر الحاجب على اغتيال الأمير عبد الرحمن بالسم • الأمير يامره بتناول الدواء لشكه فيه فيكون فى ذلك هلاك الحاجب • قصة التاجر جان وسذاجته • اتهامه بالتجديف والحكم عليه • ظهور رد فعل مسيحى متعصب على راسه الراهب ايساك • سيرة ايساك • تعرضه بالاساءة الى الاسلام • فريق من المسيحيين يشجب حركة التعصب من اخوانهم فى الدين • عقد مجمع دينى لمنع المسيحيين من هذا العمل • قومس بن انثيان ابن جوليان مندوب عبد الرحمن يحضر المجمع • صفة قومس •

الفصل السابع

صور التمرد عـلى الحكم العربى في الأندلس

في الوقت الذى استسلم فيه مسيحيو قرطبة المتعصبون للاحلام القاسية التى ولدت فى الظلام والتى زاد مرارتها تقاعدهم عن العمل جرت حادثة ضاعفت ــ ان كان ثم مكان للمضاعفة ــ من كراهيتهم وتعصبهم

فقد حدث أن كان قسيس كنيسة القديس « اسيسكل » واســـمه « بر فكتس » خارجا ذات يوم لقضاء حاجات منزله حين اقتربت منـــه طائفة من المسلمين وجاذبوه الحديث لالمامه التام بالعربيـــة ، وما لبث الحديث أن تطرق للدين فسالوه رأيه في محمد وعيسى [عليهما السلام] فاجابهم : «أما المسيح فهو ربى ، وأما نبيكم فلا أجرؤ أن أسمعكم ما نقوله ـ نحن المسيحيين ــ عنه ، لأننى ان ذكرت ذلك لكم آلمتكم وأسلمتمونى الى القــاضى الذى ســيحكم على بالموت ، لكن اذا وعدتمونى ألا خــوف على وآمنتمونى قلت لكم فى صراحة ما نطالعه عنه فى الانجيــل وعن مكانته عند النصارى » فقالوا له : « قل وأنت آمن ، وخبرنا ما يقوله اخوانك النصارى عن نبينا ، ونقسم ألا يمسك أدنى سوء » . فقال برفكتس : « جاء فى الانجيل انه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا ــ لو أمكن ــ المختارين أيضا » ، ووضع برفكتس الرسول [صلعم] مع هؤلاء [حاشا لله] ثم تحمس وأسرف فى القول أكثر مما ينبغى لسانه باللعن والهجو.وتركه المسلمون يذهب سالما ولكنهم كانوا ناقمين عليه لما قال ، ثم انقضت فترة أبصروه بعدها قادما عليهم فاعتقدوا أنهم أصبحوا فى حل من يمينهم فصاحوا بمن حولهـــم : « هذا هو الفاجر الذى سب امامنا رسولنا سبا لو سمعه أشدكم صبرا لنفد صبره » ، فرأى برفكتس فى الحال ــ كمــا يقول ايولوج « كأنما قد أثار حلية نحل » اذ أحدقت به جمهرة غفيرة استفزهم الغضب فأمسكوا بتلابيبه وأسرعوا به الى المحكمة حتى لقد كانت قدماه لا تمسان الأرض ، وقال المسلمون للقاضى : « ان هذا القس جدف فى نبينا ، وانك لتعرف

أكثر منا أى عقاب يستحقه هذا المجرم » ، فلما سمع القاضى شـــهادة الشهود سأل برفكتس ما ذا يقول ، ولم يكن هذا القس التعس ممن أعدوا أنفسهم للشهادة فاضطربت أوصاله رعبا وأنكر ما نسبوه اليه لعل فى الانكار خيرا له ، ولكن التهمة كانت لاصقة به ، فحكم عليه القاضى بالموت جزاء تجديفه فى الدين ، فقيد بالسلاسل وألقى به فى السجن منتظـرا أمر نصر الحاجب بتحديد يوم يقتل فيه ٠

حينذاك تلاشى كل أمل للنجـــاة من نفس ذلك القس الذى راح ضحية غفلته فى الوثوق بقوم أسلموه للقتل فأدى يقينه باقتراب منيته الى ان نفث فيه شجاعة لم تواته لحظة مثوله أمام القاضى من قبل ، وكره من نفسه ضعف ايمانه الذى كلفه حياته وأيقن بأن ليس هنـــــاك من شىء يستطيع انقـاذه أو تخفيف آلامه ، فاعتـرف جهـرا متباهيا بأنه جدف فى النبى [صلعم] وجـــرح رسالته والمسلمين وأعـد نفسه لميتة نعتهـا «بالاستشهاد» ، وعكف على الصوم والصلاة ولم يزر النوم عينيه الا غرارا، وتوالت الشـــهور بعضها فى اثر بعض ، وكأن نصـــرا الحاجب نسيه ، أو أنه أراد أن يطيل ميتته البطيئة ، والحقيقة أن نصرا أراد المبالغة فى القسوة فصمم على أن يكون مقتل برفكتس يوم عيد الفطر ٠

ووافق أول شوال [سنة ٣٣٥ هـ] أول يوم من أيام الربيع وهو ١٨ أبريل ٨٥٠ م ، ومنذ فجر هذا اليوم أخذت شـــوارع قرطبة التى خيم عليها الصمت والتى هجرت مدى شهر الصوم تشهد منظرا حيا رائعا ، فضاقت على سعتها بهذه الجموع الغفيرة المنسابة شطر المساجد ، وخرج علية القوم يرفلون فى ملابسهم الفخمة الحديدة ، ولبس العبيد ما تفضل به عليهم ســاداتهم ، وراح الصـــبية الصغار يخطرون فى أثواب آبائهم الطويلة ، وسخرت كل الدواب حاملة على ظهورها أكبر عدد مستطاع من النـــاس ، وارتســـم السرور على جميع الوجوه ، فكان الأصـــدقاء اذا ما تقابلوا أقبل بعضهم على بعض بالتهنئة والعناق ، ثم فرغت الصلاة وبدأ التزاور وأعدت أشهى الأطعمة وأفخر المشروبات فى كل مكان فى انتظار الطارقين ، وازدحمت أبواب الأثرياء بالفقراء الذين أخذوا ينقضون على بقايا الولائم كأنهم الغربان الجائعة ، فكان ذلك يوم عيد وحرية للنساء اللواتى يقضين العام كله خلف الأبواب المغلقـة ، وراح الآبـاء والأزواج يجرعون الأشربة ويسكرون ، والنساء يذرعن الشوارع حاملات بأيديهن سعف النخيل ، موزعات الكعك على الفقراء وهن فى طريقهن الى المقابر ، فيثرن الفتنة تحت ستار البكاء على الموتى (١) ٠

فلما كان وقت الظهيرة زخر نهر الوادى الكبير بالزوارق العدة حاملة السكارى ، وتجمع أهل قرطبة فى سهل كبير على الجانب الآخر من النهر متظاهرين بسماع الخطبة لكنهم جاءوا فى الواقع للذة أخرى ، اذ مضى القوم الى برفكتس وأنبأوه أن قتله سيكون فى الساحة التى تكاثر فيهـا الناس ضاحكين مستبشرين ، وتهيأ هو لصعود النطع الا أنه امتلأ غيظا وألما حين فكر أنه سيقتل وسط مظاهر السرور والبهجة الشاملة ، وأن هذه الجموع ستلهو بمشاهدة مصرعه فصاح حانقا : « اننى أتنبأ أن نصرا هذا الرجل المتكبر الذى تطأطىء أمامه رقاب عظماء أشرف العائلات وأعرقهـا والذى يسيطر على أسبانيا — لن يرى الاحتفال السنوى بهذا العيد الذى بلغت قسوته فيه أن يقتلنى فى يومه هذا » .

وتقـدم برفكتس بخطى ثابتة فلما أخـذوه الى القتل صاح فيهم لاعنا كل مقدس عنـد المسلمين وأنذرهم بالجحيم تنتظرهم بنيرانهـا ، ولم يكف عن ترديد هذه الأقوال حتى صعد المشنقة تحدجه نظرات الشعب الغاضـب عليـه المتعجب منـه ، والذى أرضـاه مصرع كافر جدف فى الرسول [صلى الله عليه وسلم] .

أما المسيحيون فقد عدوا برفكتس قديسا وتقدموا الى المقصلة وعلى رأسهم أسقف قرطبة وأنزلوا جثته فى احتفال فخم ولحدوها قبرا ضم رفات القديس « أسيسكل » وراحـوا يذيعون أنى كانـوا أن الله منتقم لبرفتكس الورع ، وحدث فى مساء اليوم الذى قتل فيه أن انقلب قارب بركابه المسلمين الثمانية فغرق منهم اثنان وحينذاك قال ايولوج : « لقد انتقم الله لجنديه ، ولما كان مضطهدونا قد أرسلوا برفكتس الى الجنـة فقد ابتلع النهر اثنين منهم ليبعث بهما الى الهـاوية » ، ثم تمت نبوءة برفكنس اذ لم يحل الحول حتى لقى نصر مصرعه ، وكان موته مباغتـا مروعا (٢) . فقد راح هـذا الخصى القوى الشـكيمة ضـحية لخيانته ، اذ أرادت السلطانة طروب أن تضـمن العرش لأبنهـا عبد الله بدلا من محمـد : أكبر خمسـة وأربعين ولدا لعبـد الرحمن الأوسط ، وكان محمد هذا من امرأة أخرى اسمها « بهير » . وعلى الرغم من نفوذ طروب العظيم على زوجها الا أنها عجزت عن حمله على تنفيذ خطتها فاتجهت الى نصر الذى تعرف كراهيته لمحمد وسالته أن يخلصها من زوجهـا ومن ابن بهير ، فوعدها الخصى باستجابة ما سالته اياه ، وأراد أن يبدأ بالأب فطلب الحكيم الحرانى الذى كان قد وفد من الشرق ثم ما لبث أن طبقت شهرته أرجاء قرطبة أثرى ثراء فاحشا من دواء صنعه يزيل أوجاع البطن ولا يعرف أحد سواه سر تركيبه ، فكان يبيع الجرعة منه بخمسين دينارا(٢)،

وسأله نصر عما اذا كان مستعدا لمديد المعونة اليه فأجابه ان ذلك منتهى أربه ، فنـاوله الخصى ألف دينـار طالبا اليه أن يهيىء سما نافذ المفعول يعرف باسم « بسون الملوك » ٠

وحرز الحرانى ما ذا يكون مشروع الخصى فكان بين نارين : أيسم السلطان ؟ أم يجلب على نفسـه غضب الحاجب القوى ونقمته ؟ وأخيرا أعد السم وبعث به الى نصر ، غير أنه طلب سرا فى نفس الوقت الى احدى نساء الحريم أن تشير على السلطان بالامتناع عن تجرع الدواء الذى يقدمه اليـه نصر ٠

وجاء الخصى لرؤية مولاه ، فلما سمعه يشكو من تدهور صـحته حبب اليه تعاطى دواء مفيد قال ان أحد مهرة الأطباء كان قد وصفه له ، ثم قال له : « سآتيك به غدا يا مولاى لتشربه قبل افطارك » ٠

وجاء الصباح وجاء معه الخصى بالدواء ، فعالج السلطان القارورة ثم قال لنصر : « قد يكون خطرا فجربه أنت أولا » ، فأوقع فى يد الخصى وشربه وما كان له أن يرفض والا دل على سوء طويته ، وتجرعه مؤملا أن يسعفه الحرانى بما يفسـد مفعول السم ، وبذلك يتفادى الشـك والشبهة ، ثم انكفأ الى قصره وبعث فى طلب الطبيب الحرانى وأفضى اليه فى اختصار بما جرى سائلا اياه أن يبادر الى اسـعافه ، فأشار عليه الطبيب بلبن عنزة ، غير أنه جاء متأخرا (٤) ، اذ كان السم قد مزق أحشاءه وأصيب باسـهال شديد (٥)

***

لم يدر القساوسة المسيحيون بما جرى فى البلاط ، بل كان كل الذى علموا به أن نصرا الخصى مات بغتة ، وتردد الهمس بينهم أنه لقى حتفه مسموما ولم يدركوا شيئا سوى هذا ، والظاهر أن البلاط حـاول اخفاء تلك المؤامرة الفاشلة التى اشترك فيها كثير من الشخصيات البارزة والتى لا نعرف شيئا عنها الا ما ذكره أحد موالى الأمويين حين كتب ما كسب فى عصر أبيحت فيه حرية الكلام والكتابة ، ولم يعد فى الوجود أحد من المتآمرين ٠

أما القسس فكان أهم ما اسـتلفت نظـرهم هو تحقق نبـوءة « برفكتس » على أفظع صورة ، وهى نبوءة كانت معروفة لكثير من المسلمين والنصارى الذين شاطروه الحبس ٠

***

ثم كانت فظالة معاملة المسلمين لأحد التجار النصرانيين وقسوتهم عليه قد هاجت ضدهم ثائرة الجماعة المسيحية المتعصبة . فقد كان « جان » التاجر رجلا ألوفا لا يخشى أحد شره أبدا ، ولم يكن يخطر فى باله قط أن القدر قد كتب له أن يتعذب من أجل المسيح ، اذ لم يكن يشغله سوى عمله فنفقت سوقه وراجت تجارته ، وكان من عادته أن يقسم بالنبى [صلعم] لترويجها ادراكا منه أن اسم المسيحى لا يكون تزكية لها فى عين المسلم ، فكان يقول :

« وحق محمد صلى الله عليه وسلم ... هذا عظيم » .

« وحق محمد صلوات الله عليه ... لن تجدوا أحسن من هذا » .

وألف الناس سماع هذه العبارات التى لم تضره أبدا ، غير أن منافسيه ــ ولم تكن سوقهم نافقة كسوقه ــ حنقوا عليه اذ رأوا ضخامة أرباحه فتربصوا له حتى اذا سمعوه ذات مرة يقسم بالرسول قالوا له :

« انك تقسم دائما بنبينا حتى ليظنك من لايعرفك مسلما . ونصدقك الحق أنا لا نحتمل سماعك تقسم باسمه كاذبا » .

فحاجهم « جان » فى بادىء الأمر بأنه لا يقصد من النطق باسم النبى [صلعم] جرح المسلمين ، فلما احتدم الجدل بينه وبينهم صاح بهم: « لن يجرى اسم نبيكم بعد اليوم على لسانى ، ولعنة الرب على ان « أنا نطقت به » .

فلم يكد يفرغ من قوله هذا حتى تعالى صياح القوم بأنه جدف فى الرسول وجروه الى القاضى الذى سأله الحقيقة فأجابه بأنه لم يفكر مطلقا فى مثل هذه الاهانة ، وذكر له أن القوم رموه بهذه الفرية حسدا منهم له على رواج سلعته .

كان على القاضى اما أن يطلق سراحه ان آمن ببراءة ساحته ، أو يأمر بقتله ان رآه أجرم لكنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، بل اتخذ طريقا وسطا حيث أمر بجلده أربعمائة جلدة ، فحنقت العامة التى كانت ترى أن الموت هو عقوبة « جان » .

ولاقى جان عذابه ثم أركبوه حمارا ظهرا لقفا وطافوا به شوارع المدينة ، والمنادى أمامه يصيح : « هذا جزاء الساخر بالرسول عليه الصلاة والسلام » ، ثم قيدوه بالسلاسل وزجوا به فى الحبس ، ولما زاره ايولوج بعد ذلك بعدة أشهر كانت آثار الجلد لاتزال تخدد بدنه (٦)

***

على أنه ما كادت تمر أيام قلائل على هذا الحادث حتى ولج الميدان أولئك المتحمسون المتعصبون الذين أسرفوا كثيرا فى لوم أنفسهم على تكاسلهم ، وكان منتهى آمالهم أن يموتوا على يد أعدائهم ، ولم يكن أمامهم لتحقيق هذا الهدف سوى النيل ممن صلى الله عليه وسلم فمضوا فى هذا السبيل ، وكان قدوتهم فى هذا المسلك الراهب « ايساك » ، وهو قرطبى المولد ، خرج من أبوين شريفين ثريين بذلا الهمة فى تثقيفه ، فأتقن العربية وعين ــ وهو ما زال بعد حدثا صغيرا ــ كاتبا فى بلاط عبد الرحمن الثانى ، فلما بلغ الرابعة والعشرين من عمره استيقظ ضميره فجأة فغادر البلاط ونبذ حياة الرفعة التى تنتظره ، وذهب فقبر نفسه فى دير « تابانوس » الذى كان قد شيده عمه « جريميه » من ماله الخاص فى شمال قرطبة ، وكانت تحوطه الجبال الشاهقة الضاربة بقممها الى السماء والغابات الكثيفة ، وكان النظام فيه أدق منه فى أى مكان آخر ، وكان هذا الدير معدودا بحق بؤرة التعصب ·

ووجد ايساك فى الدير عمه وعمته اليزابث وكثيرين من أقاربه الذين أسرفوا على أنفسهم فى الزهد والتصوف ، فنفثت صورتهم والوحدة التى هم فيها ومنظر الطبيعة المتجهمة الموحشة والصيام والتأملات والعكوف على الصلاة والتقشف وقراءة حياة القديسين ·· أقول نفثت كل هذه الأمور فى روح الكاهن الشاب تعصبا هو أقرب الى الجنون ، لاسيما حين ادعى أن المسيح قد طلب اليه أن يموت فى سبيله ، واذ ذاك يمم وجهه شطر قرطبة وجاء الى قاضيها وقال له : « اننى راغب فى اعتناق دينك ان علمتنى اياه » ، فأجابه القاضى : « على الرحب والسعة ! » ، وسره أن تكون هدايته على يده ، وأخذ يشرح له قواعد الاسلام ، بيد أن ايساك قاطعه وصاح به متهما نبيه بالكذب والخديعة ، ودعاه « وهو الرجل الدقيق الفهم » لهجر هذه العقيدة واعتناق المسيحية ففيها السلام ، فذهل القاضى لجرأة الراهب الشاب العجيبة ، وفغر فاه دون أن ينبس ببنت شفة ، وتزاحمت الدموع غضبا فى عينيه ، ثم صفع ايساك صفعة قال له الراهب من أجلها : « ماذا فعلت ؟ أتجرؤ على صفع من برأه الرب على صورته ؟ ، لابد وأنك سوف تحاسب على ذلك يوما ما حسابا عسيرا » · فقال قضاته المساعدون : « أناتك أيها القاضى وتذكر كرامتك ، وتذكر أن ديننا لا يأذن لنا بسب أحد أيا كان حتى ولو كان مستحقا الموت ! » ·

فقال القاضى موجها كلامه للراهب : « أيها المنكود ، لعلك مخمور أو فاقد لوعيك فأنت تهذى والا فهل تراك جاهلا أن الدين الأبدى ــ دين

من سببته ـ بلا تبصر ـ يدين بالموت من يجرؤون على الكلام عنه بهذه اللهجة التي تحدثت بها ؟ » ·

فقال الراهب في هدوء : « أيها القاضى ، اننى فى تمام عقلى ولم أذق الخمر أبدا ، ولكنى أعشق الحقيقة فأحببت أن أذكرها لك ولمن حولك ، فاحكم على بالموت الذى أتمناه ولا أخافه لأننى أعرف أن السـيد قال : طوبى لمن اضطهدوا من أجل الحق ، فان لهم ملكوت السموات » · -

فأخذت الشفقة القاضى على هذا الراهب المتعصب وأمر بسجنـه ، ثم مضى الى السلطان يسأله أن يأذن له فى التساهل مع هذا الرجـل الذى لا يشك فى أن به لوثة ، بيد أن عبد الرحمن كان حانقا أشد الحنق على النصارى لاحتفالهم بجثة برفكتس ، فأمره أن يطبق القانون بحذافيره ، ثم أراد أن يحول بين المسيحيين وبين دفن جثمان « ايساك » فى أبهة ، فطلب اليه ان تظل الجثة على الصليب بضعة أيام مدلاة الراس ثم تحرق ويذر رمادها فى النهر ·

وتم تنفيـذ هذه الأوامر يوم ٣ يونيو ٨٥١ م [= ٢٩ ذو القعدة سنة ٢٣٦ هـ] ، لكن على الرغم من أن السلطان حرم على دير « تابانوس » جسد ايساك الا أن الرهبان اعتاضوا عنها برفعهـم ايـاه الى مرتبـة القديسين ، ونسبوا اليه كثيرا من الآيات والمعجزات ، لا فى أيام طفولته فحسب بل وقبل ولادته أيضا (٧) ·

بذلك انفتح المجـال أمـام الجميع ، فما انقضى يومان على قتـل « ايساك » حتى قام « شانجه » الفرنسى وكان فى حرس السلطان ومن تلاميذ ايولوج وجدف فى النبى [صلعم] فقطعت رقبته (٨) ·

وفى يوم الأحـد التـالى ٧ يونيو ٨٥١ م [= ٣ ذو الحجـة سنة ٢٣٦ هـ] جاء الى القاضى سـتة رهبـان من بينهم « جيريميه » عم « ايساك » ، وآخر يدعى « ها بنتس » وكان مقيما على اعتزال الجميع فى قلاية وصاحوا به « انا نحن أيضا نقول لك ما قاله لك أخوانا القديسان ايساك وشانجه » ، ثم أفحشوا القول فى الرسول [صلعم] وقالوا : « ألا فانتقم الآن لنبيك ، وعاملنـا بأفظع ضروب الشـدة ! » ، فضربت أعناقهم جميعا (٩) ·

***

أما « سسناتد » قسيس كنيسة القديس « أسيكل » فكان صديقا لاثنين من هؤلاء الرهبان ، وقد زعم أنه رآهما ينزلان عليه من السـماء ويطلبان اليه أن ينال هو الآخر الشهادة ، ومن ثم حذا حذوهما وقطعت

رأسه ، لكنه قبل صعوده المقصلة حض الشماس بولص » على اقتفاء أثره ، فما انقضت أربعة أيام على مقتله حتى أطيحت رأسه هو الآخر يوم ٢٠ يوليو ١٦ محرم ٢٣٧ هـ] وتبعهم بعد ذلك راهب اسمه « تلمير » (١٠) ٠

هكذا استشهد أحد عشر رجلا فى أقل من شهرين ، فعد ذلك نصرا للفريق المتغالى فى تعصبه والذى اعتد بهذا الفوز ٠

***

أما المسيحيون الآخرون الذين كانوا لا يطلبون سوى العيش فى هدوء فقد حق لهم أن ينزعجوا من هذا التعصب الغريب مخافة أن يؤدى بالمسلمين الى التربص بالنصارى واضطهادهم فقالوا لهم : « ان السلطان يأذن لنا بممارسة شعائر ديننا ولا يرغمنا على شىء ما ، فما الداعى لهذا التعصب الشديد ؟ ٠ ان الذين تسمونهم شهداء ليسوا شـــهداء أبـدا بل هـــم قوم منتحرون ، وقد فعلوا ما فعلوا بدافع العجرفة وهى رأس الخطايا جميعا ، ولو كانوا يعرفون الانجيل لطالعوا قوله : « ليس للمغتابين ملكوت السموات ، كما أن المسلمين يقولون لنا : لو كان الله يريد أن يبرهن على كذب نبوة محمد [صلعم] وأنه يمد هؤلاء المتعصبين بما يبدونه من الثبات لجاء بمعجزة نهدينا الى دينكم ، ولكن الله ـ بدلا من ذلك ـ مكننا من حرق جثث من تسمونهم بالشهداء وذر رمادهـــم فى النهـــر ، ولن ينتفع قط رهطكم بهذا القتل ولن يضرونا بشىء ٠٠ أفلا يكون من الجنون اذن أن ينتحروا على هذه الصــــورة ؟ ٠٠ فبماذا نجيب على هذه الاعتراضات الوجيهة فى نظرنا ؟ » (١١) ٠

هذه هى اللهجة التى استعملها العلمانيون وجمهور كبير من القسس أنفسهم (١٢) ، فنهض ايولوج ذاته للرد عليهم ، وأخـــذ نفسه بتأليف كتابه Memoriale sanctorum الذى امتلأ القسم الأول منه بالشتائم المقذعة ضد « أولئك الذين يجرؤون على سب الشهداء ولعنهـــم بأفواههم الدنســـة » (١٣) ، وأراد ايولوج دحض مفتريات من يطرون « تسامح المسلمين معهم » فرسم صورة قاتمة الظلال للمظالم التى حاقت بالمسيحيين عامة والقساوسة خاصة فقال :

« واأسفاه ، اذا كانت الكنيسة تعيش فى أسبانيا كالزنبقة وسط الأشواك ، واذا كانت تضىء كالمشعل بين ظهرانى شعب فاســـد شرير فلا يجب أن نعزو هذه المنة الى الكفار الذين ننحنى أمامهم عقابا لنا على خطايانا ، بل يجب أن نعزوها الى الرب الذى يقول لتلاميذه : أنا معكم على الدوام الى نهاية العالم » ٠

ثم أخذ ايولوج يكدس كثيرا مما اقتبسه من الانجيل والأســـاطير ليبرهن على أن استشهاد المرء من تلقاء ذاته ليس واجبا فحسب بل هو عمل مقدس يؤجر عليه ويثاب من أجله ، وهو محمود عند الرب حين يقول لخصومه : اعرفوا اعرفوا أيها الكافرون يامن لايتورعون عن تهوين مجد القـديسين .. اعـرفوا أنكم يوم الدينونة ستقفون واياهم وستسئلن يومئذ أمام الله عن تجديفكم !! »

ومن ثم كان حقا للحكومة العربية أن تخاف بدورها من ذلك الاتجاه الجديد للثورة التى لم يكن تعصب المتعصبين سوى مظهر من مظاهرها ، اذ كانت مزيجا من التطلع للاستشهاد ومن الرغبـة الملحة فى الانتقـــام السياسى (١٤) .

لكن كيف السبيل الى منع هؤلاء الحمقى من تقديم رؤسهم للجلاد ؟

ان الشرع صريح فى وجوب قتل كل من يسب النبى ، لكن كانت هنـاك طريقة واحـدة لعلها هى الطريقة الناجعة ، تلك هى عقـد مجمع يصدر قرارا يمنع المسيحيين من السعى وراء ما يسمونه بالشهادة ، وكان ذلك ما فعله عبد الرحمن الثانى فقد دعا الأساقفة لاجتماع أناب فيه عنه موظفا نصرانيا من رجال الحكومة ، وقد دعاه الى ذلك عدم استطاعته الحضور بنفسه بينهم .

ويشير « ايولوج » و « ألفارو » فى فزع الى هـذا « الكاتب » الذى يسميانه « بالمعارض » ، و « بالطاغية المتغطرس القاسى ، الغنى بثروته ورذائله ، الذى ليس له من المسيحية سوى اسمه ، والذى هو فى الواقع عدو الشهداء اللدود الباغى عليهم » (١٥) ، فكانا يكرهانه ويستنكفان منه حتى عن التفوه باســـمه الذى لم نعـــرفه الا عن طريق المـؤلفين العرب (١٦) من أنه كان يدعى « قومس بن أنتنيان بن جوليان » وكان رجـلا لبقا فطنا أجمع المسلمون والمسيحيون على السواء (١٧) على تمكنه من العربية قراءة وكتابة ، فحببه ذلك الى رئيسه عبد الله بن أمية (١٨) ، ودنت منزلته من السلطان نفسه فعظم نفوذه فى البلاط أثناء الفترة التى نتكلم عنها ولم يكن يكترث قط بالشئون الدينية بل كان شديد الاحتقار للتعصب ، فراح يسخر من أولئك الحمقى الذين يطيحون برؤسهم بلا روية أو تدبر ، كمـا راح يهجـــوهم . وتوقع « قومس » أن يعامل المسلمون المسيحيين معاملة جافة هى أميل للتحرز منهم وسوء الظن بهم ، فتدبر الأمر فيما بينه وبين نفسه وخشى أن تؤول الحال بالمسلمين الى أن يأخذوا النصارى المعتدلين بجريرة اخوانهم المتعصبين ، واذ ذاك يفقد هو وغيره

من الموظفين المسيحيين وظائفهم الرفيعة وتضييع ثرواتهم التى قضوا العمر فى جمعهـــا ، ومن ثم لم يقتصر « قومس » على أن يبين للجميـــع عطف السلطان ، بل كان يهمه كذلك صالحه الخاص الذى دفعـــه للشدة فى معارضـــة ذلك السيل الجارف الذى كان يهدده هو نفســـه أيضـــا بالابتـــــلاع ٠

الفصل الثامن

سر تظاهر شاول أسقف قرطبة بالدفاع عمن يسمون بالشهداء • شخصية الأسقف شاول • المجمع يندد بمن يسمونهم بالشهداء • حب الكثيرين لدينهم ودخولهم الاسلام• الشرطة تتعقب ايولوج وتقبض عليه وتزجه في السجن • التقاؤه في حبسه بفلورا • القاضي يكتفي بحبس فلورا ومارى رغم تحديهما له • تراخي حماسة الفتاتين ولكن ايولوج يقوى عزيمتهما ويشجعهما على الاقدام على الموت • وقوع ايولوج في حب فلورا • الصراع بين القاضي وايولوج بشأن فلورا • الحكم على فلورا ومارى بالموت • تزعزع حركة التعصب الدينى • طروب تحاول نقل العرش الى ولدها عبد الله مستعينة في ذلك بالخصيان • معارضة الحاجب أبي الفرج واقتراحه الأمير محمدا بدلا منه • سعدون الخصي يذهب سرا بأمر الخصيان الى محمد يحمل له خبر اختياره مكان أبيه الراحل • الأمير محمد يخرج في غلس الظلام متنكرا في زى ابنته ويدخل قصر الخلافة ويأخذ البيعة لنفسه •

الفصل الثامن

تولى محمد الحكم

انعقد المجمع برياسة « ريكا فريد » رئيس أساقفة أشبيلية ، واستعرض قومس الموقف مصورا العواقب الوخيمة التى قد تتمخض عنها الحماسة الرعناء التى يبديها أولئك المجدفون فى الرسول [صلى الله عليه وسلم] والذين نعتهم قومس بأنهم أبعد الناس عن القداسة ، وقال ان الواجب يقتضى اصدار قرار الحرمان ضدهم ما داموا عرضوا اخوانهم النصارى للاضطهاد الفظيع ، ثم طلب من الأساقفة أن يعلنوا استهجانهم لخطة أولئك المسمون بالشهداء ، وأن يحولوا بين المؤمنين وبين النسج على منوالهم ·

وكان من الواضح عدم جدوى هذا التدبير طالما كان فى استطاعة زعماء الفريق المتحمس ـ وفيهم القسيس ايولوج ـ القدرة على معارضة قرارات المجمع وحث البسطاء والسذج ـ رغم أنف المرسوم ـ على معاودة التجديف أمام المحكمة : الأمر الذى كان ينبغى منعه بأى حال من الأحوال، ولما كان من الواضح استحالة تحقيق ذلك الرجاء فقد ألح قومس على الأساقفة أن يأمروا بسجن الأشخاص الذين يعدونهم خطرا (١) ·

حينذاك نهض « شاول » أسقف قرطبة مدافعا عن الشهداء ولم يكن صادق العقيدة فى وقوفه الى جانب المتحمسين بقدر ما كانت تدفعه رغبته فى أن ينسى قومه سوابقه التى كانت أبعد ما تكون عن الطهارة ، ذلك أن السلطان كان قد رفض الموافقة على ما اتفق عليه قسس قرطبة من اختيارهم اياه أسقفا لهم ، فوعد « شاول » خصيان القصر بأربعمائة درهم ان هم أظفروه بطلبته ، فطلب الخصيان منه ضمانا على ما يقول فأعطاهم صكا مكتوبا بالعربية تكفل لهم فيه بدفع المبلغ المتفق عليه من دخل ممتلكات الأسقفية مما يضر بالقساوسة الذين كان لهم وحدهم حق التصرف فى هذا الدخل ·

ونجح الخصيان فى التغلب على معارضة السلطان فأقر اختيار الكهنوت لشاول الذى عمل منذ ذلك الحين على استرداد مكانته السالفة عند المسيحيين المتزمتين الذين دأبوا على تعنيفه على صكه [الذى كتبه للخصيان] ، فغالى هو من جانبه فى التحمس لمبادىء المتعصبين ، ولم يحجم عن السير على رأس رجال الدين فى جنازة « برفكتس » المهيبة التى أزعجت الحكومة ، وها هو ذا الآن يستمد عبارات من الانجيل وحياة القديسين لتبرير مسلك المتعصبين ، ومع ذلك لم يشاطره الأساقفة الآخرون آراءه بل انصرفوا الى اصدار قرار ينطوى على ما أراده قومس ، الا أنهم وجدوا أنفسهم فى موقف بالغ الحرج ، اذ لم يكن فى استطاعتهم استهجان مسلك هؤلاء المسمون بالشهداء دون أن يستنكروا فى الوقت ذاته خطة شهداء فجر الكنيسة التى اعترفت بالشهيد وأدرجته فى مرتبة القديسين ، وانتهى الأمر أخيرا الى نهى النصارى عن التطلع بعدئذ الى هذا النوع من الموت المقدس ، يدفعهم الى ذلك عدم جرأتهم على ذب هذا النوع من الانتحار أو استهجان مسلك الجماعة التى طلبت الشهادة فى الأيام الأخيرة ، وقد قدر قومس حيرتهم فاكتفى بهذا القرار لا سيما وقد وعده رئيس الأساقفة باتخاذ التدابير الصارمة ضد المحرضين على ذلك .

لم تكد قرارات المؤتمر تذاع حتى وجد فيها أيولوج وأصدقاؤه سلاحا عضبا يسددونه ضد الجماعة التى أصدرت القرار فقالوا : « انّ هذا القرار يجرم شهداء هذه السنة ، ويستدل منه على توقع زيادة عدد الشهداء ، واذن فما المعنى المقصود من هذا النهى عن التطلع الى تاج الشهادة ؟ » ، ويتضح التناقض الغريب بمقارنة هذه الفقرة ببقية القرار التى تقول : « ولا نستطيع نحن الموقعين على هذا الاحتجاج أن نفسر ذلك الا بقولنا ان الخوف قد أملاها ، وواضح أن المجمع يقر الشهيد الا أنه لا يجرؤ على التصريح بذلك (٣) » .

وهكذا جار أولئك الرجال المتحمسون المتهورون على سلطان الأساقفة دون تبصر للعواقب الوخيمة التى تترتب على اندفاعهم ، أو لعلهم توهموا فى أنفسهم عزيمة وشجاعة لم يكن لهم فى الواقع شىء منهما ، فقد اضطربوا أشد الاضطراب حين قام « ريكافريد » رئيس الأساقفة — وكان وفيا بعهوده ومؤيدا من جانب الحكومة — فأمر بسجن زعماء هذا الفريق دون أن يستثنى منهم أحدا حتى أسقف قرطبة .

ولقد كذب ايولوج فيما زعمه من أن الداعى الى تخفيه — هو وأصدقاؤه وتنقلهم بين آونة وأخرى من مكان الى آخر وفرارهم متنكرين — هو أنهم

لم يروا أنفسهم بعد أهلا للاستشهاد ، أما الحقيقة فهى أنهم كانوا أحرص على الحياة منهم على الشهادة وأكثر تعلقا بالدنيــــا ، لكن كانت تنقصهم الجرأة على المجاهرة بهذه الحقيقة ، واستولى الوجل على الزعماء ومريديهم حتى لقد قال ايولوج : « لقـــد كنا نضطرب فزعا اذا ما سقطت ورقة من غصنها » ، والعجيب أنه سرعان ما تبدلت أفكار جمــــاعات العلمانيين الذين كانوا من قبل يكيلون الثناء للشهداء فنبذ الكثيرون منهم المسيحية واعتنقوا الاســــلام (٤) ٠

وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها أسقف قرطبـــة وكثير من أتباعه القساوسة الا أن القوم سرعان ما اكتشفوا مخبأهم وألقوا القبض عليهم (٥) ، وجرى على ايولوج ما جرى عليهم هم أنفسهم فقد هاجم رجال الشرطة بيت ايولوج وهو يعمل فى وضع كتابه « ذكريات القديسين » وقبضوا عليه وهو بين أسرته الفزعة ، وذهبوا به الى السجن (٦) حيث التقى مرة ثانية بفلورا ، واليك قصة مجيئها اليه ٠

***

كانت هناك فى أحد الأديرة القريبة من قرطبة راهبة صغيرة اسمها « ماري » ، وهى أخت راهب من الرهبان الستة الذين ذهبوا من تلقـاء أنفسهم الى القاضى للنيل أمامه من الرسول [صلعم] وانتهى الأمر بقتلهم جميعا ، فاشتد حزن « ماري » على أخيها الحبيب ، وفى ذات يوم جاءتها فتاة أخرى تقية وقصت عليها خبر تجلى الشهيد لها فى النوم وأنه قال لها : « قولى لأختى ماري أن تكف عن البكاء لمقتلى لأنها ستلحق بى فى السماء » فامسكت ماري عن البكاء وتدبرت الأمر وتاقت الى ميتة كميتة أخيها ٠ وبينما هى فى طريقها الى قرطبة عرجت لتصلى فى كنيسة « سنت اسكيل» وركعت الى جانب فتــــاة صغيرة تبتهل بحرارة الى القديسين : تلك هى « فلورا » التى دفعتها حماستها لمغادرة ملجئها تأهبا من جانبها هى الأخرى لنيل الشهادة ، فسرت ماري اذ رأت لها رفيقة فأوقفتها على خطتها ، وحينذاك تعانقت الفتاتان وأقسمت كل منهما ألا تفارق الأخرى ما عاشتا، وتعاهدتا أن تموتا معا ، وصاحت ماري : « اننى ماضية للحاق بأخى » ، فقالت فلورا : « وسأكون سعيدة بالموت من أجل يسوع » ، ثم تابعتـــا المسير وملأت نفسيهما الحماسة ، حتى اذا صارتا أمام القاضى قالت له فلورا : « لقـــد ولدت من أب كافر ، ولقيت منذ أمد بعيد العذاب على يديك لأنى أبيت انكار المسيح ، ومنذ ذلك الحين أخفيت نفسى لضعفى ، أما اليــــوم فاننى شـــديدة الايمــــان بربى ولا أخشى الوقوف أمامك ، وأقول لك ـ كما قلت من قبل ـ أن المسيح ربى » ، ثم أخذت تتلفظ بألفاظ كريهة ٠

وقالت له ماري بدورها : « أما أنا فقد كان أخي أحد الأبطال الستة الذين قتلوا على المشنقة لأنهم سخروا من نبيكم ، وأقول لك بنفس الجراة : ان المسيح هو الله » • ويظهر أن القاضي أشفق عليهما وعلى شبابهما وجمالهما رغم استحقاقهما الموت ، ولم يفلح في محاولته ثنيهما عما قالتا ، فاكتفى بحبسهما •

وأظهرت الفتاتان في بادىء الأمر أثناء حبسهما شجاعة نفس وصلابة ايمان ، فدأبتا على الصلاة والصوم وترتيل الأناشيد الدينية الكنسية والاستغراق في التأملات الصوفية ، لكن ما لبث الوهن أن تطرق اليهما اذ ملتا الأسر. وتخاذلتا أمام توسلات من أرادوا العمل على تخليصهما مما هما فيه ، لا سيما من تهديد القاضي الذي رأى أنهما تخافان العار أكثر مما ترهبان الموت ، فأنبأهما أنه سيدفع بهما الى الفحش ان لم ترجعا عما قالتا (٧) ، غير أن ايولوج جاء في الوقت المناسب لشد أزرهما وتقوية روحيهما ، وكان موقفه صعبا اذ كان لابد له من الدخول في تجربة قاسية ، وأي أمر أشق على نفسه من أن يدفع الفتاة التي كتم عنها حبه الى الصعود الى المشنقة ؟

ذلك موقف يتخاذل ازاءه أثبت الناس جنانا ، الا أنه استعان بقوة بلاغته في تثبيت شجاعة الفتاة المضطربة ولم يحاول أن يستبقيها أو يزلزل حماستها أو يحملها على تغيير خطتها ، فمن ذا الذي يلومه أو ينعى عليه تعصبه الأعمى ؟ ولكن من ذا الذي لا يبادر الى تعنيفه على بروده وجموده ؟

والحقيقة أن قلبه كان مثقلا بالحزن والحسرة على الرغم من مظهره الهادىء الذي يخفي تحته ما يضطرم في نفسه من العواطف المتأججه ، وأحس وهو بالقرب من فلورا بالعواطف الحارة التي توحيها النفس المضطرمة المنفعلة ألا وهو الحب ، اذا جاز لنا أن نطلق هذا اللفظ على التآلف الروحي الذي ربطه بفلورا ، وهكذا كان الحب والضمير يتصارعان في نفسه ، الا أنه كان مستعدا للاقدام على كل تضحية يتطلبها الموقف الذي يعد هو بطله ، فحاول أن يصمت خفقات قلبه وأبى أن يستسلم لضعفه وأراد وأد آلامه فانكب على المطالعة والكتابة آناء الليل وأطراف النهار ، وألف رسالة (٨) يفهم بها فلورا ورفيقتها أن لا شيء أجل من الشهادة . وأكمل كتابه «ذكريات مقدسة» (٩) الذي بعث به الى ألفارو راجيا منه أن ينقحه ويصححه ، كما كتب رسالة مطولة الى صديقه « مليزند » أسقف «بمبلونة» ، بل لقد وجد من هدوء النفس وصفاء الذهن ما دفعه لتأليف رسالة عن الشعر وأوزانه راميا من ورائها الى ايقاظ وطنية

مواطنيه الخامدة ودفعهم الى تذوق الأدب القديم الذى ينبغى أن يكون أدبا قوميا للبلد الذى أخرج « سنيكا » و « لوكان » ، واذا كان القسس – أيام القوط – يعتقدون أنه لا يحق لهم قطف أو استنشاق أزهار لم تروها مياه التعميد (١٠) فان ايولوج كان يؤمن أنه وجد فى أدب الرزمان أقوى منافس للأدب العربى الذى كلف به القرطبيون كلفا شديدا ، واستخفه الطرب يوم أن عثر فى « نفارة » على بعض مخطوطات لاتينية لفرجيل وهوراس وجوفينال (١١) ، أما اليوم فقد أحزنه تعلق رجال الأدب بالشعر المنظوم فأراد أن يعلم مواطنيه القواعد العلمية لعلم العروض اللاتينى حتى يأخذوا أنفسهم بنظم أشعار مماثلة لأشعار أوجستوس ٠

آتت بلاغة ايولوج أكلها فقد بعثت فى فلورا ومارى صلابة وحماسة أذهلتا ايولوج الذى ألفت روحه الغمرات الصوفية ، وكان دائم الميل لتعظيم كل ما يروقه ، فعد فلورا قديسة تكللها هالة نورانية ، وكان القاضى قد استجاب لطلب أخى فلورا فدعاها اليه محاولا انقاذها مرة أخرى فلم يفلح فى هذه المرة أيضا ، فلما عادت الى الحبس ذهب ايولوج لرؤيتها ، وفى ذلك يقول :

« لقد اعتقدت أننى أرى ملاكا اذ تحوطها هالة من نور سماوى ويشرق وجهها بالبشر ، وترتسم عليه سعادة العالم العلوى ، وقد قصت على والبسمة على شفتيها ما طلبه منها القاضى ، وكيف كان ردها عليه ، كانت القصة – وأنا أسمعها – تساقط من ثغرها أحلى من جنى الشهد ، فعملت من جانبى على تثبيت عزمها بافهامها التاج الذى ينتظرها ، وأكبرتها وخررت ساجدا أمام هذا الملاك ، والتمست منها دعواتها ، وأنعشتنى كلماتها وعدت الى سجنى المظلم وأنا أقل كآبة !! » ٠

قتلت فلورا ورفيقتها يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ م [= جمادى الأولى ٢٣٧ هـ] ، فكان ذلك يوم نصر لأيولوج ، فكتب الى الفارو يقول : « يا أخى ، اننى فى بهجة شاملة فقد تعطف السيد المسيح علينا واستشهدت العذراوتان اللتان ربيناهما وسط الدموع بالكلمة الحية ، وبعد أن قهرتا سلطان الظلام ووطئتا بأقدامهما كل الملذات الدنيوية ، ذهبتا سعيدتين أمام العريس صاحب مملكة السماء ، لقد دعاهما المسيح الى حفل الزواج ودخلتا عالم الهناءة تغنيان أغنية جديدة وتقولان فيها : لك يا سيد يا الاهنا ، لك الشرف والمجد لأنك خلصتنا من سيطرة الجحيم وجعلتنا أهلا للسعادة التى ينعم بها قديسوك ، ودعوتنا الى ملكوتك الدائم » ٠

كذلك سعدت الكنيسة بالنصر الذى أحرزته الفتاتان ، ويتابع ايولوج كلامه فيقول : « لكن يحق لى أنا أن أبتهج أكثر من سواى فأنا الذى ثبتهما على خطتها فى اللحظة التى كادتا أن تتخليا عنها » (١٢) ٠

***

وبعد خمسة أيام أطلق سراح ايولوج وشاول وبقية القساوسة الآخرين ، فكان ايولوج يعزو خلاصه الى تدخل هاتين القديستين اللتين وعدتاه قبل مغادرتهما السجن وصعودهما المشنقة أنهما ستسألان المسيح أن يرد على القسس حريتهم (١٣) ٠

وامتثل شاول ـ منذ ذلك الحين ـ لأوامر «ريكافريد» ، أما ايولوج فقد ضاعف نشاطه ليزيد عدد الشهداء ، ونجح فى ذلك نجاحا عظيما اذ تأثر به كثير من القسس والرهبان والمسيحيين « المستخفين » والنساء ، فأخذوا فى التجديف فقتلوا ، وبلغت الجرأة بالمتعصبين أن دخل اثنان منهم الجامع وكان أحدهما كهلا والآخر شابا حدثا وصاحا : « ان مملكة السموات للمؤمنين ، أما أنتم أيها الكافرون فستتلقفكم الجحيم » ، فغضب المجتمعون وكادوا أن يمزقوهما أربا لولا أن تدخل القاضى فأرسلهما الى السجن ، وقطعت أيديهما وأرجلهما من خلاف ، ثم حزت رقباتهما وذلك يوم الخميس ١٦ سبتمبر سنة ٨٥٢ م [= ربيع الآخر ٢٣٨ هـ] ٠

لم تكد تنقضى ستة أيام على ذلك الحادث حتى مات عبد الرحمن فجأة [ليلة الخميس ٢٣ ربيع الآخر] ، ويذكر ايولوج أن السلطان الراحل كان جالسا بشرفة قصره حين وقع بصره على المشانق التى يتدلى منها جثمانا الرجلين فأمر بحرقهما ، لكنه ما كاد يصدر أمره هذا حتى أصيب بالصرع ، وما وافى المساء حتى لفظ نفسه الأخير ٠

***

لم يكن عبد الرحمن قد قرر من يخلفه من بعده : أولده محمد أم ابنه عبد الله ، ولما كان الأميران لم يعلما بموت أبيهما فقد أصبح الاختيار فى يد فتيان القصر الذين حضر بعضهم موت عبد الرحمن ، فأمروا بغلق أبواب القصر حتى لا يتسرب نبأ الوفاة ويشيع ، ثم جمعوا كل رفاقهم وقام كبيرهم فاستهل الكلام بقوله : « أيها الصحاب : « لقد حل أمر جسيم فقد مات مولانا السلطان » ، فانفجر الجميع باكين فقال لهم : « أمسكوا عن البكاء فما هذا وقت البكاء ، واعلموا ان الوقت أجل من أن تصرفوه مولولين ، لكن لنجعل نصب أعيننا ما فيه خيرنا وخير

المسلمين عامة ٠٠ وانى لأسألكم الآن : لمن تسوقون الولاية ؟ » فصاحوا جميعا : « الى سيدنا وابن سيدنا وسيدتنا المحسنة الينا » ٠

وهكذا آتت مكائد طروب وتدبيراتها أكلها ، فقد استطاعت أن تشترى الخصيان وتستميلهم الى جانبها ، وكاد ابنهما عبد الله أن يلى العرش بفضل معونتهم ٠٠ لكن هل كان للأمة أن تقر من اختاره الخصيان ؟

أغلب الظن أنها لن تقر هذا الاختيار اذ لم يعرف عن عبد الله شيء سوى رخاوة الأخلاق وضعف الايمان ، أضف الى هذا كراهية الشعب له مما لم يخف على الخصى أبى المفرج ــ وكان مسلما ورعا قد حج الى مكة فسألهم : « أعلى هذا أجمعتم الرأى ؟ » فقالوا له « أجل » فقال : « وأنا أعلمكم أن رأيى كرأيكم ، وانى لأكثركم شكرا للسيدة ففضلها على عظيم ، ولكن قضاءكم بما قضتيم به قضاء علينا وقطع لآثارنا من الأندلس ، فلن نمشى فى طريق أو نمر بجماعة الا قال الناس : « اللهم العن هذه الوجوه فان أصحابها ملكوا المسلمين فولوا عليهم شر من يعرفونه ، وتركوا خير من يعرفونه » ، وقد علمتم من يكون عبد الله وحاله ومن يطوف به ٠٠ والله لئن ملك عبد الله شيئا من أموركم وأمور المسلمين ليحدثن فيكم وفيهم الأحداث ، فيسألكم الله عنهم وعن أنفسكم ٠

***

لم يستطع أحد دحض هذه الأقوال بل لعلها تركت أثرا عميقا فى نفوس الخصيان ، فطلبوا من أبى المفرج أن يدلهم على من يؤثره باختياره فاجابهم : « الصالح العفيف محمد » فقال له الخصيان : « هو كما وصفت لكنه لئيم شديد !! » فأجابهم : « وبماذا يجود ؟ ٠٠ اذا ولى ملك الأندلس وملك بيوت المال سيجود ان شاء الله » ٠

ولما وجد رأيه القبول منهم والرضا من جانبهم أقبلوا يقسمون على المصحف بمبايعة محمد بن عبد الرحمن والطاعة له ٠

أما الخصيان « سعدون » و « قاسم » اللذان كانا أشد القوم تأييدا لعبد الله وتزكية له مرضاة لأمه السيدة « طروب » فلم يعودا يفكران الا فى استرضاء منافسه والسعى فى عفوه عنهما ، واذ ذاك سأل قاسم اخوانه أن يهبوا له ذنبه من محمد فوعدوه بالسعى عنده ، وأما سعدون فقد تمكن من حملهم على أن يكلوا اليه مهمة الذهاب الى الأمير محمد واخباره بنبأ توليته الخلافة ٠

لكن لما كان الوقت ليلا وأبواب المدينة مغلقة فقد حمل سعدون معه مفاتيح أبواب القنطرة حيث يقوم قصر الأمير محمد على الجانب الآخر من النهر ، بيد أن وصوله الى الجسر كان يقتضيه المرور على قصر عبد الله حيث أهله عاكفون على اللهو لم تغمض لهم عين ، الا أن « سعدون » أدرك أن لن يخامر الشك أحـــدا فيه ، ومن ثم لم يجد أدنى صعوبة فى فتح أبواب هذا القصر ودلف منه الى الجسر فقصر الأمير محمـــد الذى كان اذ ذاك فى الحمام حيث ذهب اليه خدمه وأنبأوه برغبة سعدون فى مقابلته، فارتدى ثيـــابه على عجل وغادر الحمـــام وأذن للخصى أن يدخل وسأله : « ما جاء بك يا سعدون فى هذه الساعة من الليل ؟ » فقال : « جئتك لأمضى بك الى ولاية الخـــلافة عن اجماع منا ، فقد مات أبوك رحمه الله ، وهذا خاتمه » .

لم يستطع محمد أن يصدق ما قاله سعدون ، بل أيقن أن أخاه قد ولى العرش وأنه قد أنفذ اليه سعدون الخصى ليقتله ، لذلك لم يفكر فى غير الخلاص ، فصاح به : « اتق الله يا سعدون واخشه ، وهل تبلغ عداوتك اياى أن تسفك دمى ؟ . دعنى فأرض الله واسعة ! » .

ووجد سعدون المشقة البالغة فى حمله على تصديق رسالته ، ولكنه استطاع بعد لأى أن يقنعه بها مؤكدا له صدق ما قال بأغلظ الايمـــان وقال له : « ما أتيتك الا وقد سألت أصحابى أن يؤثرونى بالاقبال فيك لأحل من نفسك بعض موجدتك على ! » ، فقال له الأمير : « عفى الله عنك فأمهل على حتى أبعث فى طلب وكيلى محمد بن موسى » .

كان أهم ما يشغل بال محمد فى هذه اللحظـــة هو أمر الاستيلاء على القصر فان تم له ذلك بايعه الجميـــع ولم يجرؤ أخـــوه على منازعته الخلافة ...

لكن كيف يتأتى له المرور أمام القصر ــ قصر أخيـــه عبد اللـــه ابن السيدة طروب ــ دون أن يثير حوله الشبهات ؟

لو أن حرس الأمير عبد الله رأوا محمدا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لكان من الأرجح أن يدركوا حقيقة الأمر واذ ذاك يسدون عليه المســـالك فلا يتركونه يمر ، لذلك أشار الحاجب على مولاه أن يستعين بعامل شرطة المدينة يوسف بن بســـيل ، وكان تحت امرته ثلاثمـــائة جندى ، ووقع هذا الاقتراح موقع القبول ، غير أن ابن بسيل رأى الحكمة تقتضيه ألا يتدخل بين الأخوين ورفض وضع شرطته رهن مشيئة محمد وقال : « هذه منازعة ، وانما نحن موالى من دخل القصر وملكه » .

وعاد الحاجب الى الأمير ينبئه بجواب يوسف بن بسيل ثم قال له : « من لم يخاطر لم يربح ، اركب على بركة الله وعونه ، واعلم أن أباك طالما بعث فى طلب ابنتك فكنت أنا أمضى بها اليه ، فالبس ملابس النسوة كأنك أنت هى » .

واتفقوا على تنفيذ هذه الفكرة فيخرج أحد الخدم راكبـا حصـانا وسعدون فى المقدمة ، ثم يليه الحاجب فمحمد فى ثياب النسـاء مسدلا نقابا سميكا على وجهه ، وبذلك وصلوا الى قصر عبـد الله حيث كان يتصاعد خليط من الأنغـام والألحان ، فأنشـد محمد هذا البيت من الشعر لشاعر قديم :

فهنيئـا لك الذى أنت فيه والذى نحن فيه أيضا هنيئـا

أما الحرس المرابط فى الحجرة التى تعلو الباب فقد كان مكبا على الشراب واللهو حين طرق سمعه وقع سنابك الجياد ، فذهب أحدهم الى الباب مستطلعا ما بالخارج وسأل سعدون : « من ؟ » فأجابه سـعدون « ويلك ، أما للنساء حرمة ؟ » .

فلم يخامر الحارس الشك وترك القوم يمضون الى وجهتهم وأغلق الباب وعاد الى رفاقه وقال لهم : « ابنة محمد مع صاحب أبيها سعدون » .

ولما اطمأن محمد الى أنه تغلب على أصعب عقبة فى سـبيله قال لوكيله : « يا محمد : الزم هذا المكان حتى أبعث اليك من يضبطه معك » ثم تابع سيره مع سعدون الخصى الذى طـرق باب القصر حيث جثمان الخليفة الراحل ففتحه الخادم وسأله متشككا : « أهذه ابنة الأمير محمد ؟» فأجابه سعدون : « نعم » فقال الحارس : « أرى شخصا غير شخص الابنة التى كانت تدخل على ، والله لا يجاوز هذا الباب الا من أعرفه » .

فقال له سعدون : « ويحك ، أهكذا تكشف الحرم ؟ » .

فأجابه : « لست أدرى ما الحرم » .

فلما رأى محمد اصرار البواب على طلبه رفع النقاب من على وجهه وقال له : « اتق الله فى فاننى أتيت لوفاة والدى رحمه الله » .

فأجابه الخادم : « هذا والله أكبر ، ليس والله لك أن تتجاوز هذا الباب حتى أعرف ان كان أبوك حيا أو ميتا » .

فقال سعدون : « تعال معى وسترى بعينى رأسك » .

فأغلق الحارس الباب وخلى محمدا خارجه وصحبه سعدون الذى سار به وأراه جثمان السلطان عبد الرحمن فلما أبصره الحارس مسجى خامد

الأنفاس استخرط فى البكاء والتفت الى سعدون وقال له : «صدقت···!!»، ثم مضى الى الباب وفتحه وقال للأمير محمد : « ادخل يا مولاى ، خار الله لك وللمسلمين فيك » ثم قبل يده ·

***

حينـذاك أخذ محمد البيعة لنفسه من كبار موظفي الدولة ، ورتب جميع ما يمكنه من الاستعدادات للقضاء على كل معارضة يقوم بها أنصار أخيـه ·

وعلمت العاصمة بنبأ الوفاة (١٤) حين كانت أشعة الفجر تجلل قمم جبال الشارات بأضوائها الفضية (١٥) ·

***

الفصل التاسع

جشع الأمير الجديد • ميل الفقهاء اليه • اسلام قومس ومبالغته فى اظهار التدين • قيام أهل طليطلة بقيادة « شندنة » • اردونيو الأول ملك ليون يعاون الثوار • انتصار السلطان وأفحاشه فى تأديب الثوار • انتقامه من نصارى قرطبة • ايولوج وألفارو يهاجمان النصارى المعتدلين • الطليطليون ينتخبون ايولوج مطرانا فيمنعه السلطان من دخول المدينة • ادراج القتلى من جانب المسيحيين فى عداد الشهداء ورفعهم الى مرتبة القديسين • رحلة راهبين فرنسيين لاحضار جثث الشهداء • ليوكريتيا المتنصرة تهرب الى ايولوج وانولون • محاكمة ايولوج • صورة المحاكمة • قتله •

الفصل التاسع

عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن

كان السلطان الجديد رجلا قاصر التفكير متبلد الاحساس أنانيا ، وقد رأيناه لم يظهر شيئا من الحزن ولم يجزع حين حمل سعدون اليه نعى أبيه ، بل انه كان أبعد الناس عن الحزن عليه ان لم نقل انه فرح بموته ، ولم يأخذ نفسه بكتمان شعوره فى هذه الناحية ، فقد حدث ذات مرة أن قضى يوما لطيفا فى الرصافة فى بيت ريفى جميل له بجوار قرطبة ، ثم قفل راجعا الى العاصمة مع حلول المساء مستصحبا نديمه هاشم [بن عبد العزيز] وقد أثقلهما الخمر ، وتنقلا فى الحديث والحديث ذو شجون ، وعلى حين فجأة حام على رأس هشام خاطر محزن فقال لمحمد : « يا ابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت !! » ، فأجابه الأمير : « يا ابن اللخناء ، لحنت فى كلامك وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه الا الموت ، فلولا الموت ما ملكنا أبدا » (١) ٠

***

لم يخطىء الخصيان حين كرهوا فى بادىء الأمر استخلافه لما يعرفونه فيه من شدة البخل فقد استهل حكمه بخفض رواتب العمال والجند (٢) ، ثم عمد الى وزراء أبيه السابقين فعزلهم وأقصاهم عنه وأحل مكانهم شبابا تعوزهم الخبرة ، واشترط عليهم أن يقاسمهم رواتبهم (٣) ، كما كان يحاسب نفسه فى دقة متناهية وصبيانية شديدة فى كل ما يتعلق بالناحية الماليه ، وحدث فى ذات مرة أن كان يراجع الحساب الذى بلغ مائة ألف دينار فأخذ يؤنب عمال بيت المال على خمس درهم (٤) ، فإحتقره الجميع لشحه (٥) ٠

***

أما الفقهاء الذين أحنقتهم غاية الحنق وقاحة من استشهدوا ممن بلغت بهم الجرأة التجديف في الرسول [صلعم] حتى في المسجد الجامع بقرطبة فقد وقفوا الى جانب الأمير محمد لايمانهم بتقواه وشدة كراهيته للنصارى ، وبرهن هو نفسه لهم على صدق ظنهم فيه يوم اعتلائه العرش اذ عمد الى تسريح جميع العمال والجند المسيحيين عدا « قومس » لعدم اكترائه بدينه وتقديرا منه لمواهبه (٦) ، وكان أسلاف محمد هذا المتسامحون قد غضوا أنظارهم عما زاده النصارى في كنائسهم القديمة وما استجدوه منها ، فلما جاء هو الى الحكم عمل على تطبيق حرفية الأوامر في هذه الناحية فهدم جميع ما شيدوه منذ الفتح العربي ، وعمل وزراؤه على كسب مرضاته وعطفه عليهم فجاوزوا بحماستهم أوامره حيث خربوا الكنائس التي بنيت منذ ثلاثة قرون وأسرفوا في اضطهاد النصارى حتى نبذت طائفة غير قليلة دينها كما يؤكد ذلك ايولوج وألفارو (٧) ، وكان أول المرتدين «قومس» الذي نهض عدة سنوات بأعباء الكتابة نظرا لطول مرض عبد الله بن أمية ، فلما مات ابن أمية علم قومس أن السلطان قال : « لو كان قومس من أهل ملتنا لاستحجبناه » ، فما كان منه الا أن أسلم(٨) وبلغ المكانة التي كان يتطلع اليها ، ولم يكن قومس — أيام نصرانيته — بالرجل الذي يغشى الكنائس ، لكنه لما أسلم مارس جميع شعائر الدين الجديد حتى عده الفقهاء رمز التقوى ، وأطلقوا عليه لقب « حمامة المسجد » (٩) .

***

أما في طليطلة فقد أدى تعصب السلطان الى نتائج مخالفة لتلك النتائج ، اذ حدث قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات أو أربع أن قضى ايولوج — وهو عائد من سفرة له في نفارة — بضعة أيام في هذه المدينة في ضيافة أسقفها الورع « فستريمر » (١٠) ، وكان كل ما هناك يحمل على الاعتقاد بأنه استفاد من هذه الفرصة فعمل على اثارة كراهية أهل طليطلة المسيحيين ضد الحكومة العربية حين رسم لهم صورة قاتمة الألوان لسوء حال نصارى قرطبة ، وبالغ الطليطليون في الاحتفاء بايولوج وعطفوا أشد العطف على شهداء العاصمة حتى لقد بادروا الى حمل السلاح حين علموا بما يلقاه اخوانهم من الاضطهاد على يد الأمير محمد وولوا قيادهم لواحد منهم اسمه « شندلة » (١١) ودفعهم خوفهم على حياة رهائنهم في قرطبة الى القبض على حاكمهم العربي ، وطالبوا محمدا أن يبعث اليهم في الحال بأبناء جلدتهم ان كان يعنيه الابقاء على حياة عامله هذا ، فنزل السلطان على طلبهم ورد الطليطليون على الحاكم حريته ، غير أن الحرب اندلع لهيبها واشتد الخوف من أهل طليطلة حتى لقد أسرعت حامية قلعة رباح الى اخلاء هذا الحصن حين أصبحت غير آمنة على نفسها فهدم الطليطليون أسواره .

ثم لم يلبث السلطان أن أنفذ اليهم بعض القوات وأعاد بناء الأسوار سنة ٨٥٣ م [= ٢٣٩ هـ] ثم أمر قائدين من قواده (١٢) بالزحف (١٣) على طليطلة التى عبر أهلها ممرات جبال مورور لملاقاة العدو وفاجأوه قرب « أند وجر » وشتتوا شمله واستولوا على معسكره (١٤) • [وكان ذلك فى مارس ٨٥٤ م = شوال ٢٣٩ هـ] •

ثم تابع الثوار زحفهم وهددوا العاصمة ذاتها فشعر السلطان محمد بضرورة اتخاذ الاحتياطات القويـة لدرء هذا الخطر ، ومن ثم جمع كل ما أمكنه جمعه من الجند وقادهم هو بنفسه وزحف بهم على طليطلة فى يونيو ٨٥٤ م [= محرم سنة ٢٤٠ هـ] ، فلما رأى « شندلة » ضآلة قواته فتش له عن حليف فاتصل بملك ليون « أردونيو الأول » الذى هب لساعته و نجده بجيش كثيف بقيادة « غثون » (١٥) كونت برجو •

أدى هذا العدد الضخم من المحاربين المتجمعين فى المدينة الى القضاء على أمل محمـد فى اخضاعها ، الا أنه نجح فى تكبيد أعـدائه خسارة فادحة ، اذ عمد الى اخفاء معظم جنده خلف الجبال التى تحتضن وادى « سليط » ثم زحف على المدينة على رأس جيش قليل وسلط آلات الحرب على سوارها ، فعجب أهل طليطلة من بسالة عدوهم الناهض لمنازلتهم وهو فى هذا العدد الضئيل ، فحثوا الكونت « غثون » على القيام بهجوم عنيف لرده ، واغتنم « غثون » هذه الفرصة المتاحة له لاظهار براعته ، فخرج على رأس جنده ومعه أهل طليطلة وهاجم عسكر محمد الذين تظاهروا بالهروب مستدرجين العدو الى الكمين المنصوب له ، وما لبث الطليطليون والليونيون الذين قصوا أثرهم فى حماسة أن وجدوا أنفسهم فجأة وقد أحدقت بهم جحافل الخصم فأفنت معظمهم ، وفى ذلك يقول أحدشعراء (١٦) البلاط :

يقـول ابن بلبوس (١٧) لموسى وقـد مضى
أرى المـوت قـدامى وتحتى ومن خلـفى

بـكى جبـلا وادى سـليط فاعـولا
عـلى النفـر الصـيدان والعصـبة الغلف

كأن مسـاعير المـوالى عليهمـو
شـواهين جـادت للغرانيق بالسيف

وبذلك قتل الغـزاة ثمانية آلاف شخص تردد فى الآفاق صـدى صراخهم ، ثم أقاموا منهم رابية اعتلوها ، وعلق محمد هذه الرؤوس على أسوار قرطبة والمدن الأخرى ، كما أرسل بعضها الى أمراء افريقية (١٨) •

وقنع محمد بالنصر الذى أحرزه سيما وأن الطليطليين الذين قدرت خسائرهم فى الرجال بعشرين ألفا لن يستطيعوا بعد ذلك ازعاج قرطبة ،

ثم عاد الى العاصمة ولكنه عمل جهده على مناوأة أهل طليطلة على يد حاكمى قلعة رباح وقلعة طلبيرة وعلى يد ابنه المنذر ، كما أخذ فى الوقت ذاته فى التضييق على نصارى قرطبة فهدم دير « تابانس » الذى كان يعده - بحق - بؤرة التعصب (١٩) ، وضاعف الجزية المفروضة على المسيحيين بحجة تضخم المصروفات عما كانت عليه من قبل (٢٠) ، الا أن الضعف لم يتسرب الى نشاط المتحمسين ، وبينما كان هؤلاء المسمون بالشهداء دائبين على الاستشهاد عن طواعية(٢١) كان ألفارو وايولوج مستمرين فى الدفاع عنهم ضد المعتدلين ، فكتب أولهما كتابه Indicus luminosus وألف الثانى كتابه A pologia martyrum ، وكانت الحاجة ماسة لأمثال هذه الدفاعات فى قرطبة التى نسب مسيحيوها الوادعون ما حاق بهم من الكوارث الى مسلك المتعصبين المخالف للصواب أكثر من نسبتهم اياها الى تشدد السلطان ٠

أما فى طليطلة وما حولها من المدن فقد جرى الأمر على العكس من ذلك ، اذ اشتد عطف أهلها النصارى على المتحمسين وكان أكثرهم عطفا عليهم هو ايولوج ، حتى لقد أجمع أساقفة هذه الولاية مرهم فانتخبوه مطرانا بعد موت « وستريمر » ، الا أن السلطان لم يأذن له بدخول طليطلة ، ومن ثم أصر الأساقفة على رأيهم وطمعوا أن يأتى يوم تزول فيه هذه العقبات التى تحول دون دخول ايولوج وامتنعوا عن انتخاب أى مطران آخر طالما أن ايولوج على قيد الحياة (٢٢) ٠

وقد استطاع المتحمسون أن يردوا مطاعن مواطنيهم التى كالوها لهم وذلك بشهادات المدح والتقدير التى شهد بها لهم أهل طليطلة ، ولم تنقض الافترة وجيزة حتى اعتز هؤلاء المتعصبون بنفوذ راهبين فرنسيين أظهرا بطريقة لا لبس فيها ولا ابهام أنهما يدرجان شهداء هذه الفترة فى مرتبة شهداء الكنيسة الأوائل ٠

أما هذان الراهبان فهما « أسوارد » و « أديلارد » من أبرشية القديس « جرمان دى بريه » وقد وفدا الى قرطبة سنة ٨٥٨ م [= ٢٤٤ هـ] بناء على طلب رئيسهما « هلدوين » الذى ندبهما الى بلنسية للبحث عن جثة القديس فنسانت ، لكنهما علما أثناء الطريق أن الجثة المشار اليها قد نقلت الى « بنفنتو » فخافا أن يرغما على العودة الى بلديهما صفر اليدين ، وترامى الى سمعهما - وهما فى برشلونة - خبر شهداء قرطبة الجدد وقال لهما القوم : « سيكون من الصعب عليكما الوصول اليها ، أما اذا نجحتما فى ذلك فلاشك أن القوم هناك سيتخلون لكما عن هذه البقايا الطاهرة » ٠

***

كان عبور اسبانيا ـ ابان ذلك الوقت ـ ينطوى على جميع ضروب المشقه والاخطار ، بل لقد كان ذلك أقرب الى الاستحاله ، ونظرا لكثرة قطاع الطرق فقد كان يتحتم على الراغبين فى الانتقال من مكان الى آخر أن يخرجوا فى جماعات وقوافل ، بل ان هذا أيضا كان شديد الندرة لقلة سنوح مثل تلك الفرصة ، غير أن الراهبين اللذين اعتزما اقتحام كل ما يعترض سبيلهما من الأخطار ما دام ذلك يؤدى بهما الى الحصول على هذه الجثة فقد بلغا سرقسطة ، وكان قد انقضت ثمانية أعوام منذ قيام آخر قافلة منها الى قرطبة ، وساعدت الظروف الراهبين بأن هيأت لهما الانضمام الى قافلة موشكة على الرحيل ، وخرج مسيحيوها لوداعهما باكين اعتقادا منهم بقتل كل قافلة عند عبورها الممرات الجبلية ، الا أن الحوادث كذبت خوفهم ، وكان جزاء ما لقيه الراهبان من تعب الطريق وملالته أن بلغا العاصمة الاسلامية سالمين ناعمي البال ، فاستضافهما شماس كنيسة القديس « سبرين » وقاما أمدا غير قصير دون الحصول على ما جاءا من أجله حتى قام أحد الوجهاء واسمه « أبادسولومس » Abadsolomes

وكان يقدر مجهودهما ويعطف عليهما فطلب اعطاءهما جثتى « أوريليو » و « جورج » الموجودتين فى دير « بنا ملاريا » (٢٣) الذى أصر رهبانه على عدم دفع هاتين الجثتين الى الراهبين الفرنسيين غير عابئين بأمر الأسقف شاول مما دعاه الى الذهاب بنفسه اليهم وارغامهم على ما أذن به ، ومع ذلك فقد تمسكوا بأنه ليس من حقه نزع هذه الجثث الطاهرة من أيديهم .

وقضى « أسوارد » ، و « أديلارد » قرابة شهرين فى قرطبة انكفآ بعدهما الى بلدهما حاملين معهما حزمة كبيرة من الذخيرة مختومة بخاتم الأسقف وموجهة الى الملك شارل الأصلع حتى لا يعتقد المسلمون انها تحوى الا هدايا مرفوعة الى ملك فرنسا (٢٤) .

***

كانت الرحلة هذه المرة أقل تعبا وخطورة اذ قاد السلطان جيشا زحف به على طليطلة وأمر جميع الكتائب بالخروج للقتال ما عدا الموكول اليهم حراسة العاصمة ، فتيسر على الراهبين الفرنسيين الانضمام الى احدى هذه الفرق ووجدا فى المعسكر « ليوفيجلد » الذى أوصلهما الى طليطلة ، وكان الطريق بينها وبين قلعة هنرى Alcala de Heneres مأمونا نظرا لتقدم الجيش والاشراف وفليهم قطاع الطرق والشطار الذين يسلبون المسافرين ، ولقد غادر كل هؤلاء أماكنهم للاحتماء خلف أسوار طليطلة

غاد الراهبان الى فرنسا فوضعا الجثتين اللتين أظهرتا فى الطريق كثيرا من الآيات في كنيسة «أزمنت» التابعة لابرشية «سان جيرمان» التى لاذ اليها كثير من الناس بعد أن أحرق النرمنديون ديرهم ، ثم نقلت الجثتان بعدئذ الى « سنت جيرمان » وعرضتا لتكونا موضع توقير المخلصين من أهل باريس ، وسر بهما شارل الأصلع حتى لقد عهد الى رجل اسمه « منشو » بالذهاب الى قرطبة لجمع المعلومات القيمة عن أوريليوس ، وجورج (٢٥) ٠

كانت الحملة التي مكنت الراهبين الفرنسيين من العودة الى وطنهما قد حققت مطامع السلطان ودفعته لاعمال الحيلة من جديد ، فاحتل جنده الجسر ، وأمر الحفارين بملغمة الأرصفة دون أن يراهم أهل طليطلة ، فلما تم كل شيء تراجع جنده وفى آثارهم العدو حتى بلغ الجسر الذى انهار فجأة ، وغرق كثير من جند طليطلة فى مياه نهر تاجة (٢٦) ٠

لم يكن ثم ما يعادل حزن الطليطليين من هذه النكبة سوى فرحة البلاط الذى اعتاد رجاله المبالغة في تضخيم كل نصر حتى ولو لم يكن حاسما ، فقال أحد الشعراء فى ذلك (٢٧) :

أضحت طليطلة معطلة ... من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها ... مهجورة الأكناف كالبتر
ما كان يبقى الله قنطرة ... نصبت لحمل كتائب الكفر

ولم تلبث الفرصة أن سنحت لمحمد للتخلص أيضا من عدوه المميت بقرطبة ٠

***

كان في العاصمة حينذاك فتاة اسمها «ليوكريتيا» ولدت من أبوين مسلمين غير أنها تلقت فى الخفاء أسرار الديانة المسيحية على يد راهبة من أسرتها ، وانتهى بها الأمر أخيرا الى أن صارحت أبويها بأنها « تعمدت » ، فاستشاطا غيظا ولم تفلح مساعيهما المتسمة باللين فى ارجاعها الى حظيرة الاسلام ، ومن ثم أغلظا فى معاملتها وراحا يضربانها ليلا ونهارا ، وخافت « ليوكريتيا » أن تتهم ــ على رءوس الأشهاد ــ بالكفر فسألت « ايولوج » وأخته « أنولون » أن يؤوياها عندهما ، والظاهر أنها أحيت فى قلب « ايولوج » ذكرى « فلورا » التى كانت تشبهها من عدة وجوه ، اذ سرعان ما وعدها باخفائها حالما تنجح فى الافلات من أهلها ، فلا يدرى بها أحد ما ٠ وهنا كانت العقدة ٠

الا ان « ليوكريتيا » عرفت كيف تحتال لهذا الأمر فتظاهرت بنبذها المسيحية ، وبانهماكها فى مسرات الحياة حتى اذا أنست من أبويها

اطمئنانهما اليها خرجت ذات يوم ـ وهى آزين ما تكون ـ زاعمة أنها ماضية لحفل عرس ، وانطلقت تفتش عن «ايولوج» و «أنولون» اللذين دلاها على مسكن صديق لهما لتختفى عنده ·

وانطلق أبواها فى البحث عنها فى كل ناحية لعلهما يعثران عليها وعاونتهما الشرطة فلم يؤد البحث الى شيء ولم يسفر التفتيش عنها الا عن الفشل الذريع ، ونجحت «لوكريتيا» فى بادىء الأمر فى الاختفاء عن عيون مطارديها ، لكن حدث فى ذات مرة أن قضت يوما بأكمله عند « أنولون » التى كانت تحبها حبا جما ، وشاءت الصدفة ألا يصل الخادم الموكول اليه حراستها الا وقد أوشك الصبح أن يتنفس ، فخافت أن يفتضح أمرها وينكشف سترها فصممت على البقاء يوما آخر عند « أنولون » حتى يرخى الليل سدوله ، وكان فى ذلك الخطر عليها ، اذ حمل أحد الجواسيس أو الخونة الى القاضى خبر اختفاء الفتـاة المطلوبة « لوكريتيا » عند أخت « ايولوج » فأحدق الجند بدارها نفاذا للأمر الصادر اليهم من القاضى ، وأمسكوا بهـا وبايولوج الذى كان الى جانبها اذ ذاك ، وجاءوا بهمـا الى القاضى الذى سأله عما يدفعه لاخفاء هذه الشابة فقال له « ايولوج » : « لقد أمرنا أن نبشر بديننا وننشره بين جميع من يطرقون بابنا ، وقد أرادت هذه الفتاة الشابة أن أثقفها فى ديننا وأفقهها فى ملتنا فلبيت رغائبها ما وسعنى الجهد ، ولو طلبت أنت أيها القاضى ما طلبته هـذه الفتاة ما قصرت ازاءك ·· » ·

لم يكن «التكريز» الذى رمى به ايولوج عند القاضى جريمة كبرى ومن ثم اكتفى بجلده ، وفى هذه اللحظة بالذات بدأ دور « أيولوج » ولعله كان مدفوعا بالكبرياء أكثر من الشجاعة فى عزمه هذا ، غير أنه رأى أنـه من الخير لرجل مثله أن يعصم بدمه المبادىء التى ظل ينادى بها طول حياته ، ورأى أن القتل خير له من العقاب الفاضح ، فقال للقاضى : « هيىء سيفك وأشحذه على عجل برد روحى الى بارئها ، لكن لا تظنن أننى تارك جسمى يمزق بضربات المقارع » ثم انطلقت شفتاه بالنيل من الرسول [صلعم] واعتقد أنه مقضى عليه فى لحظته هذه بالموت ، غير أن القاضى الذى احترم فيه رياسته لجميع أساقفة اسبانيا لم يجرؤ أن يتحمل مسئولية قتله وهى مسئولية عظيمة ، وبعث به الى القصر ليرى الوزراء رأيهم فيه ·

حين دخل «أيولوج» صالة المشورة تقدم منه أحد كبار موظفى الدولة وكان قوى الصلة به وشديد الرغبة فى انقاذه فقال له : « لست أعجب يا ايولوج أن يتقدم البله والمعتوهون طواعية للمقصلة ، لكن كيف يتأتى لك الاقتداء بهم وأنت الرجل العاقل الفطن الذى تتمتع بالتقدير العام ؟ أى جنون يدفعك الى هذا السبيل وذلك العمل ؟ وما الداعى لكرهك الحياة الى هذا الحد ؟ ألا فاستمع الى والى رجائى واخضع فى هذه اللحظة بالذات

للضرورة وقل كلمة واحدة تشجب بها كل ما قلته أمام القاضي ، وحينذاك أعطيك العهد باسمي وباسم زملائي ألا خوف عليك » .

كانت هذه الأقوال تعبر عن مشاعر جميع البارزين في المجتمع الاسلامي ، اذ كانت شفقتهم على المتعصبين أعظم من كراهيتهم لهم ، وكانوا في تنفيذهم القانون يحسون بالألم لاضطرارهم الى قتل هؤلاء التعساء الحمقى .

لم يكن « أيولوج » ـ حتى هذه اللحظة ـ راغبا في الشهادة رغم أنه دفع الكثيرين اليها ، وكان قبل كل شيء على رأس جماعة يدفعها الطمع أكثر مما يدفعها التعصب ، ولعله شعر في هذه اللحظة بالذات بعدم استطاعته الرجوع في أقواله والا عرض نفسه لازدراء جماعته له ، واذ ذاك أجاب بما أجاب به المتحمسون المتعصبون في مثل هذه الظروف من قبل مما اضطر الحجاب للحكم عليه بالموت راغمين وأخذوه في لحظته الى المقصلة ، لكنه أظهر ثباتا عظيما ، وصفعه أحد الخصيان على وجهه فطلب اليه ـ وهو العامل بحرفية الانجيل ـ أن يضربه أيضا على خده الآخر قائلا له : « دونك هذا أيضا » ، فأطاعه الخصي وصعد « أيولوج » الى المشنقة ثابت الخطوة والجنان ، وركع على ركبتيه رافعا يديه الى السماء ورسم الصليب ، ثم صلى صلاة قصيرة في صوت منخفض وأسلم رأسه للنطع وأطيحت رقبته يوم ١١ مارس سنة ٨٥٩ م [= ٢٦ ذو القعدة سنة ٢٤٤ هـ] .

وبعد ذلك بأربعة أيام ماتت « لوكريتيا » متهمة بالكفر (٢٨) والتجديف .

وحرك مقتل المطران «ايولوج» عاطفة قوية لا في قرطبة وحدها ـ التي نسب أهلها الكثير من المعجزات الى الشهداء السابقين ـ بل وفي جميع رحاب أسبانيا أيضا .

وهناك كثيرون من مؤرخي شمال شبه الجزيرة الأسبانية يذكرون في دقة متناهية سنة مقتل « أيولوج » ويوم مصرعه ، وحدث بعد ذلك بأربعة وعشرين سنة أن اشترط ألفونس ملك ليون في المعاهدة التي أبرمها مع السلطان محمد أن يسلمه بقايا القديس «أيولوج» والقديسة «لوكريتيا» .

***

وعلى الرغم من أن المتعصبين فقدوا رئيسهم الا أنهم ظلوا فترة من الزمن دائبين على مسلكهم من النيل من النبي [صلعم] عساهم ينالون هم أيضا الشهادة (٢٩) . غير أن كر السنين يضعف كل حماسة ومن ثم فان الحماسة الغضيبة التي ظلت تجتاح قرطبة أعواما طوالا قد خضعت هي

الأخرى للقانون العام : قانون التقادم ، فأخذت فى الخمود حتى لم يعد يبقى منها سوى الذكرى ٠

***

وهكذا يبدأ عهد جديد هو عهد تمرد الأعلاج ونصارى جبال « رية » ، وعلى الرغم من عنف هذه الثورة فى حد ذاتها الا أنه صحبتها أو تلتها ثورة اندلع لهيبها فى جميع رحاب شبه الجزيرة ، ومكنت نصارى قرطبة من اظهار كراهيتهم بوسيلة أخرى لكل ما هو مسلم (٣٠) ٠

***

الفصل العاشر

الطريق من قرطبة الى مالقة • وصف أهالى الجبال • المهربون والشطار • مدينة رية وأهلها • قيام حكومة محلية فى الثغر الأعلى • الأمير موسى يهزم جند السلطان • اتحاد الشمال ضد السلطان • استيلاء ابن مروان الجليقى على قلعة الحنش • تحالفه مع العلج سعدون الرمادى • الفونسو الثالث ملك ليون • هزيمة هشام قائد جند السلطان أمام ابن مروان• وارساله الى الفونسو ثم اطلاق سراحه•ازدياد نفوذ ابن مروان والموادعة بينه وبين السلطان • الثورة فى رية •

الفصل العاشر

حركات المقاومة السلبية فى اقليم ريـة

ان المسافر من قرطبة الى مالقة الذى يتحمل مشاق رحلة فاتنة وأخطارها فى قطر بدائى جميل ويؤثرها على النوم فى عربة تخترق به الجبال والمفاوز المنهكة ليمضى بادىء ذى بدء عبر اقليم زراعى يمتد الى « شيل » ثم يلج بطاحا فسيحة منبسطة حتى يصل الى « كامبلوس » التى تبدأ عندها سلسلة جبال رندة ومالقة : اللتين هما أكثر أقاليم الأندلس فتنة ، ويشاهد هذا المسافر الجبال الشامخة الموحشة التى تبعث فى النفس نوعا من الرهبة اللذيذة ، ويرى غابات البلوط الضخمة وأشجار الكستناء الباسقة والأودية العميقة المظلمة ، والسيول التى تنثال راعدة منحدرة الى الهاوية ، والحصون القديمة التى آذنت بالاندراس ، والقرى المعلقة الى جوانب الصخور التى عريت قممها من كل خضرة وتبدت أكنافها مسودة لقد لفها الدخان ، وهناك تلتقى الطبيعة باسمة حلوة مشرقة بالكروم والمروج وحقول الأرز والكريز وأشجار الليمون والبرتقال والتين والرمان، وأزهار الغار التى تربو وورودها على أوراقها ، ونثيراتها السهلة العبور التى تتلوى فى رقة محببة الى النفس ، والبساتين التى تمد كل جنوب شبه جزيرة أيبريا بالفاكهة وقد امتلأت بالكمثرى والتفاح ، وحقول العنب والقمح الذى تغل سنابله خبزا أبيض أى من أى خبز آخر فى العالم •

ويسكن هذه الجبال شعب بشوش حلو الحديث جميل الطلعة ، نشيط ، متدين ، يهوى الضحك ويعشق الغناء والرقص على رنين الصنوج ، والعزف على القيثار والمندولين ، واذا كان هذا الشعب كثير اللهو فانه فى الوقت ذاته محب القتال ، فهو قد جمع بين الرقة والشجاعة الى جانب ما هو عليه من خلق حاد ، حتى انه ليكفى أن يزور نظر الواحد غضبا فيعقب ذلك الضربة القاتلة ، ولا يكون لحفل بهجته حتى يتصارع اثنان أو ثلاثة بالخناجر •

وعلى الرغم من جمال نسائهن الفاتن الا أن فى هاتيك النسوة شيئا من خشونة الرجال ، فأجسامهن فارعة ، وسواعدهن مفتولة العضلات ، وهن لا يحجمن عن الاضطلاع بأشق الأعمال ، بل تراهن ينقلن فى يسر أثقل الأحمال ، وكثيرا ما يعقدن حلقات يتصارعن فيها فيما بينهن .

وأهم ما يشغل به هؤلاء الجبليون أنفسهم وقت السلم هو « التهريب » ونقل البضائع الانجليزية من جبل طارق الى الداخل ، وقد برعوا براعة فائقة فى التخلص من عمال الجمارك العديدين ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتجمع عدد كبير منهم تحت رياسة أشهر زعمائهم صيتا وينزلون السهول لبيع بضائعهم ، واذ ذاك يستبسلون فى مقاومة القوات التى ترسلها الحكومة ضدهم ، أما فى أوقات الاضطرابات والفتن الأهلية فيحترف الكثيرون منهم اللصوصية وأعمال الشطارة ، وعلى الرغم من أن الشطار لا يتخذون اللصوصية حرفة لأبنائهم بين الرعاة والريفيين العاطلين والعمال الكسالى والبدو والمتنقلين وأصحاب الخانات الذين ليس عندهم نزلاء وصغار الفلاحين الا أنه يستهويهم أن يسلبوا المسافرين ، ان لم يكن هؤلاء المسافرون فى حراسة قوية ، فان كانوا مسلحين وفى جمع غفير أخفى « اللص » بندقيته وأخرج آلاته وتظاهر بفلاحة الأرض .

ولما كان هؤلاء الشطار الذين هم من الطبقات الدنيا موجودين فى كل ناحية فقد كانوا مستعدين على الدوام لمد يد المساعدة الى اللصوص المحترفين أو الى رجال الشرطة حسبما تمليه الظروف ، ذلك أنهم لذكائهم كانوا لا ينضمون الا الى الغالب من الطرفين ، ويختلف عنهم كل الاختلاف اللصوص الحقيقيون الذين لا نراهم الا على صهوات جيادهم ، ولا يسيرون الا فى جماعات ، وبينما نجد هؤلاء الشطار يقتلون من يسلبونهم فاننا نرى الصعاليك لا يعمدون لقتل الا من يقاتلهم ، فهم قوم رقاق الحاشية ، كبار النفوس لاسيما ازاء النساء ، ولا يلجأون الى العنف فى سلب المسافرين ، ومن ثم ينزلهم الناس منزلة طيبة ليس فيها شىء من الاحتقار لهم ، وعلى الرغم من مناهضتهم القانون وتمردهم على المجتمع الا أن لهم هيبة وتعظيما ، فتكبرهن النساء — حتى الخائفات منهم — اعجابا ببسالتهم ومخاطراتهم وحسن سلوكهم ، واذا وقعوا بين يدى العدالة وأدينوا وصلبوا حرك مصرعهم الاهتمام بهم ، والعطف عليهم ، والرأفة بهم ، هذا وقد ذاع فى سنة ١٨٦١م اسم « جوزى ماريا » كزعيم للعصابات ، وسيظل اسمه باقيا زمنا طويلا فى أذهان الاسبان مثلا حيا لقاطع الطريق الصعلوك ، وقد دفعته المصادفة البحتة لسلوك هذا السبيل من الحياة اذ ارتكب جريمة وهو فى سورة الغضب فتفادى الوقوع فى يد العدالة بالفرار الى الجبال حيث لم يجد وسيلة يمسك بها رمقه سوى « بندقيته » فاتخذ جماعة رفاقا له وأمدهم بالجياد واندفعوا يسلبون المسافرين ، وصادفه التوفيق فى جميع تحركاته لشجاعته

ونشاطه وذكائه وحسن معرفته للأقليم ، كما أنه لم يقع قط فى يد العدالة التى كانت تطارده ، وكان له فى جميع رحاب الاقليم شركاء يطيعونه ، وكان اذا احتاج الى رجال أو رجل يضمه الى جماعته تقدم اليه أكثر من أربعين وكلهم طامع في أن يشرف قدره بالعمـل معه ، بل لقد كانت له صـلات بالقضاة أنفسهم ، حتى لقد أذاع متصرف الولاية منشورا عدد فيه من بين شركائه أربعة من ولاة تلك الناحية ٠

واشتد بأس « جوزى ماريـا » شدة مكنتـه من السيطرة على جميع مسالك الجنوب حتى ان ادارة البريد اعتادت أن تدفع له سنويا ثمانـين فرنكا عن كل عربة بريد تمر ، لقاء تركه اياها حرة آمنة ، وكان هو يحكم رجاله بما لم يحكم به ملك ما شعبه ، وكانت جميع قراراته تتسم بالعدالة الصارمة (١) ٠

***

أما فى أوقات الحرب فيغدو هؤلاء المهربون واللصوص الذين ألفوا مقارعة الصعاب أعداء مروعين ، وعلى الرغم من فشلهم فى الهجمات التى تتطلب شيئا من النظام لعدم استطاعتهم مجابهة الوسائل العلميـة التى تصطنعها القوات النظامية فى العراء الا أن الغلبة تكون لهم على الجند أن نازلوهم فى ممرات جبالهم الضيقة الوعرة الملتوية ، كما كانوا يكسبون المعركة بفضل خفة حركتهم والمامهم بطبيعة تلك الأراضى ، وقد تجلى ذلك للقوات الفرنسية حينما حاول الملك المزعوم الذى تصبه نابليون على عرش اسبانيا اخضاع هؤلاء الجبليين البسلاء لسلطانه الممقوت ، فقد قتل الفرسان الفرنسيون منهم المئات حينما أفلحوا فى اخراجهم الى العراء ، فلما التحم الفريقان فى الأماكن الملتوية على قمم المنحدرات الشاهقة التى لم تألفها جياد أولئك الفرسان أخـذ [الأسبان] يسقطون بين كل خطـوة وأخرى هذه الجماعات فى كمائنهم ، ومرت لحظات لم يكن الفرنسيون يتوقعون فيها شيئا ما فاذا بهم يرون أنفسـهم عرضة لجحفل معاد قد كر على رجالهم وأمطرهم وابلا من النيران ، وسرعان ما استرد هذا الجحفل قمم الصخور ، وعجز الفرنسيون عن تتبعهم ، وحينذاك خرب الجبليون أماكن العدو الذى عجز عن الثأر منهم ٠

وعلى الرغم من ضراوة الحروب الا أن هؤلاء الجبليين كانوا يجدون من الوقت فسحة يظهرون فيها روح المرح والدعابة التى طبعوا عليها ، ففى البيرة طلب الفرسان [الفرنسيون] عجلا صغيرا فجاءهم الأهالى بحمار مقطع أربعة أشلاء ، فوجد الفرسان ــ على حد قولهم ــ لهذا اللحم طعما ممجوجا ، ولذلك كان الجبليون يصيحون فيما بعد ــ وهم يتبادلون معهم النيران ــ :

« لقد أكلتم لحم الحمار بألبيرة !! » ، وكان هذا فى رأيهم أكبر سبة تحط من قدرهم كمسيحيين (٢) ٠

أما فى القرن التاسع فكان جميع سكان « رية » (٣) تقريبا من الأسبان الذين يشــبهون السكان الحاليين من جميع الوجـوه ، فلهم نفس طباعهم ودوقهم ، ونفس فضائلهم ورذائلهم وكان بعض هؤلاء الجبليين من النصارى، أما الغالبية العظمى فمسلمه ، ومع ذلك كان الجميع يشعرون بأنهم أسبان قبل كل شيء ، ولذلك كانوا يضمرون العداء الشديد للفاتح ويتلهفون على الاستقلال ، وغاظهم أن يزداد الظالم الأجنبى ثراء بما يسلبه منهم ، فتطلعوا جميعا الى اللحظة التى يخلعون فيها نيره عنهم ، وسرعــان ما واتتهم هذه اللحظة المنشودة ، وذلك أن النجاح المتوالى الذى كان يلقاه اخوانهم يوما بعد يوم فى الولايات الأخرى قد دل هؤلاء الجبليين على أنه يستحيل عليهم تحقيق هدفهم ما لم يعمدوا الى الشجاعة واستعمال العنف ، فاستقلت طليطلة وفشل السلطان فى جميع محاولاته التى ظل يبذلها طوال عشرين عاما عساه يتمكن من ارجاعها الى طاعته ٠

أما النصارى الذى كانت لا تزال لهم الكفة الراجحة فى المدينة فقد خضعوا لحماية ملك ليون (٤) ، وعلى الرغم من خيانة المولديين لهم الا أنهم أرغموا السلطان سنة ٨٧٣ م [= ٢٥٩ هـ] على أن يعقد معهم معاهدة تمنحهم حق تكوين حكومة جمهورية لهم ، وكفلت لهم وجودا سياسيا يكاد يكون مســتقلا ، اذ لم تلزمهم هذه المعاهــدة الا بجزية سنويــة يؤدونها اليــه (٥) ٠

كذلك نشأت حكومة أخرى مستقلة فى « أرغون » وهى الولاية التى يسميها العرب بالثغر الأعلى ، وقد أسس هذه الحكومة أسرة قوطية قديمة اعتنقت الاسلام هى أسرة « بنى كسى » ٠ ذلك أنه حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد كانت هذه الأسرة قد بلغت ذروة القوة والبأس بفضــل مواهب موسى الثانى ، واستطاع هــذا البيت أن يرقى الى مكانة الأسرة الحاكمة ، ففى الوقت الذى اعتلى فيه محمد [بن عبد الرحمن بن الحكم] العرش [سنة ٢٣٨ هـ] كان موسى الثانى سيد سرقسطة وتطيلة ووشقة، أى أنه كان يحكم جميع بلاد الثغر الأعلى ، ثم تحالفت معه طليطلة ، وكان ابنه « لب » عاملا له عليها ٠

واذ كان موسى محاربا باسلا لا يكل من القتال فقد كان يحارب آونة كونت برشلونة أو ألبة ، وآونة أخرى يحارب كونت قشتالة أو ملك فرنسا، وبلغ موسى ذروة المجد والقوة واحترمه جيرانه وخطبوا وده ومنهم ملك فرنسا : شارل الأصلع الذى وصله بالهدايا النفيسة الغالية ، وبذلك حكم

موسى حكما ملوكيا دون أن يجرؤ احد ما على معارضته ، وبدى له أن يلقب نفسه بما هو واقع فعلا فنعت نفسه «بملك اسبانيا الثالث» ، ولم يستطع السلطان أن يضم الى حوزته تطيلة وسرقسطة ، الا بعد موت هذا الرجل العجيب سنة ٨٦٢ م [= ٢٤٨ م] ، غير أن فرحته لم تطل اذ لم ينقض غير عشر سنوات حتى قام موسى بمعاضدة أهل ولايتـه الذين لم يدينوا بالطاعة لغير بنى « كسى » وهزموا جند السلطان الذى حاول اخضاعهم ، فرد بنو «كسى» عساكره مغلوبين ، وساعدهم فى هذا العمل ألفونس الثالث ملك ليون الذى كان أقرب حلفائهم اليهم حتى لقد عهد اليهم بتربية ابنه « أردونيو » (٦) ٠

بهذا تحرر الشمال وتحالف ضد السلطان ، وفى الوقت ذاته [سنة ٢٥٤ هـ] قام أحد علوج ماردة الأقوياء واسمه « ابن مروان » ، فأسس امارة مستقلة فى الغرب ٠

كان « ابن مروان » قد وقع فى يد السلطان بعد خضوع ماردة التى كان من زعماء ثورتها ، ثم أصبح قائدا فى الحرس وظل به حتى سـنة ٨٧٥ م [= ٢٦١ هـ] حين قام ذات يوم هشام الحاجب (ولاندرى سر غضبه عليه) وقال له بحضرة الوزراء : « الكلب خير منك ! » ، ولم يكتف بسبه بل زاد فصفعه ، فأقسم «ابن مروان» ــ وهو حانق عليه ــ أن ينتقم لنفسه ، ومن ثم جمع أصـدقاءه وهرب بهم واستولى واياهم على قلعة « الحنش » (٨) جنوب ماردة واعتصموا بها ، فحاصرهم جند السلطان فى تلك القلعة حتى عدموا القوت وأكرهوا على أكل الكلاب ، ثم نضب الماء بعد ثلاثة أشهر فعاقد ابن مروان عدوه على تسليمه البلد ٠

كانت الشروط التى أمكن لابن مروان الحصول عليها شروطا طيبة اذا هى قيست بالوضع السيىء الذى كان فيه ، فأذن له بالانطلاق والاقامة فى « بطليوس » التى كانت لا تزال حتى ذلك الحين مدينة غير مسورة ، ولم يلبث ابن مروان ــ بعد أن أمن مكر السلطان ــ أن ناصب السلطان العداء وغـدا أشـد خصومه خطرا عليه ، فضم جمـاعته الى أخرى قوامها مائة من الأعلاج بقيادة شخص يدعى «سعدون» (٩) ودعى بلديى «ماردة» والبقاع الأخرى لحمل السلاح ، وبشر بين بنى جلدته بدين جديد وسط بين الاسلام والنصرانية ، وتحالف مع ألفونس الثالث ملك ليون (١٠) ، وهو الحليف الطبيعى لكل خارج على السلطان ، وعم الذعر جميع الأرجاء رهبة من سطوة ابن مروان ، لكنه قصر أذاه على خصوم بلده من العرب والبربر وانتقم لنفسه ولبلده بأسلوب دموى ٠

***

أراد السلطان كبح جماح هؤلاء اللصوص فأنفذ جيشا بقيادة وزيره « هاشم » وابنه « المنذر » ، ولم ينتظر ابن مروان مجيئه بل خف لدفعه وأرسل سعدون الى ملك ليون يسأله النجدة واعتصم بحصن «كركر» (١١)، فعسكر هشام على كثب من هذه القلعة التي لا تزال أطلالها باقية الى اليوم ، ثم وقعت « منت شلوط » فى يد أحد قواده الذى بادر فأرسل الى هشام ينهى اليه خبر اقتراب « سعدون » من مونت شلوط » فى جماعة من حلفائه الليونيين ، ويذكر له أنه من اليسير التغلب عليهم لقلة عددهم ٠

لكن القائد أخطأ فى حسبانه ولم يصب فى تقديره ، اذ كان سعدون فى قوة كثيفة جدا ، غير أنه أراد استدراج عدوه الى كمين نصبه له فأذاع سعدون الداهية أن جنده شرذمة ضئيلون ، وآتت خطته العجاب اذا انخدع «هاشم» بهذا التقرير وزحف فى كتائب قليلة على «سعدون» الذى أفضى اليه جواسيسه بكل شيء ، فتركه يتقدم نحو الجبال وترصده فى الكمائن ، وانتظره فى رجاله الذين أخفاهم خلف الصخور المجاورة ثم انقض بهم على العدو فى لحظة ليست فى الحسبان ، وأعملوا فيه مذبحة هائلة ، وأصيب هاشم نفسه بجراح عدة ، ثم أسر بعد أن رأى بعينى رأسه خمسين من قواده يخرون صرعى الى جواره ، ثم حمله القوم الى ابن مروان وصارت حياته رهن اشارة الشخص الذى أسرف فى اهانته من قبل ، غير أن ابن مروان كان أكرم من أن يلومه وينتقم منه اذ حباه بعطفه وأظله برعاية لا تكون الا لمثل من هو فى مكانته ، وأرسله الى حليفه ملك ليون ٠

وسخط السلطان حين علم بما جرى ، ولا مشاحة فى أن أسر صفيه قد أحزنه ، الا أن الذى أمضه هو ما يأبى عليه الشرف الامتناع عنه ألا وهو استرداده من بين يدى الفونس ملك ليون الذى طالب بمائة ألف دينار فدية له ، وهكذا وضع عطف السلطان البخيل على محك الاختبار ، لكنه لم يعدم الذريعــة فى الامتنــاع عن دفع هذا المبلغ الجسيم اذ راح يقول : « هذا أمر جناه هاشم على نفسه ، قد أوقعه فيه طيشه وعجلته » ، وظل وزيره رهن القيد مدى عامين حتى رضى [السلطان] أخيرا بدفع جزء من الفدية المطلوبة ، كما تعهد هاشم لملك ليون بدفع البقية فيما بعد ـ وأسلمه ـ للوفاء بعهده ـ اخوته وابنه وابن أخيه رهينة ، ثم انقلب الى قرطبة يتحرق شوقا للثأر من ابن مروان الذى دمر فى تلك الفترة ناحية اشبيلية ولبلة ، وعجز السلطان عن رد عاديته فسأله أن يملى بنفسه الشروط التى يراها لوقف حملاته التى خربت الاقليم ، فكان جواب ابن مروان جواب عات مهدد اذ قال : « انه سيكف عما هو فيه من حملاته وسيذكر اســم السلطان فى الصلاة العامة على أن يقتعد بطليوس وحين يأذن له الأمير بتحصينها ويعفيه من دفع الجزية ومن الحلف له ، والا فالحرب بينهما ! » ٠

***

رضخ السلطان لهذه الشروط رغم ما فيها من المهانة له ، واذ ذاك حاول هاشم اقناعه بأنه لن يكون من المستحيل - في تلك الظروف الجديدة - اخضاع هذا الثائر المتكبر قائلا له : انه لم يكن لابن مروان يمين وليس له من بلد يقتعده ، وانما هو وفرسانه في آثار جند السلطان ، فان تملك بطليوس تألفه السلطان وتمكن من اخضاعه ٠

ونجح هاشم في حمل السلطان على قبول رأيه فأذن له بالخروج بالجيش والزحف حتى بلغ به « لبلة » واذ ذاك أرسل ابن مروان الى السلطان رسالة ختمها بقوله : انه علم أن هاشما زحف على الغرب ، ثم أقسم أنه لو تقدم هاشم بعد ذلك لأحرق ابن مروان بطليوس وتابع الفتنة والانتزاء ٠

وخاف السلطان من هذا التهديد وبادر فأرسل في لحظته الى وزيره يأمره بالعودة الى قرطبة هو وجيشه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يستخف بشأن هذا العدو المروع (١٢) ٠

***

كان الثوار كلما ظهروا بمظهر القوة أبدت الحكومة من جانبها مظاهر التراخي والجبن ، ذلك أنها في كل مرة تتسامح فيها مع الثوار أو تعقد معهم معاهدة كانت تفقد شيئا من الهيبة التي هي أحوج ما تكون اليها لتفرض احترامها في نفس شعب ثائر غاضب يفوق سادته عددا ٠

وقويت نفوس الجبليين من أهل « رية » بما ترامى اليهم من أخبار الشمال والغرب ، فبدؤا يثورون بدورهم واندلعت سنة ٨٧٩ م [= ٢٦٥ هـ] نيران الفتن والثورات في كثير من أنحاء الولاية ، ولم تكن الحكومة تجهل الأخطار التي تهددها من هذه الناحية فاضطربت فزعا حين واتاها النذير بها ، وصدرت الأوامر الصارمة الى كل الجهات فألقى القبض على زعيم عصابة مخيفة وأرسل الى قرطبة ، وبادرت الحكومة فشيدت القلاع على الأماكن المرتفعة التي تهمها حراستها (١٣) ، فأثارت كل هذه الاستعدادات ثائرة الجبليين ولكنها لم ترهبهم ومع ذلك فقد كان هناك قليل من التجانس في حركاتهم ، اذ كانوا في حاجة الى زعيم قوي الخلق ، قادر على توجيه عواطفهم الوطنية الحادة الى هدف محدد ، فاذا ظهر هذا الرجل فليس عليه الا أن يشير فيهرع جميع سكان الجبل بل وأن يسير الجبل نفسه معه ٠

***

الفصل الحادي عشر

أوليات عمر بن حفصون وفراره الى افريقيا • عودته الى الاندلس وسبب هذه العودة • اعتصامه ببوشترو ومضايقته الولاة والحكام وأهل السلطة • السلطان يهادنه ويستخدمه فى جيشه • مصاحبته الحملة الخارجة لقتال محمد بن لب والفونسو • ابن حفصون يعاود حيـاة المخاطرة والمغامرة • تجميعه مسلمى الجنوب ونصـاراه ضد الحكومة • موقفه من المنذر بن السلطان بعد توليه العرش اثر وفاة أبيه • المنذر يستهل عهده بمهاجمة بوبشترو سنة ٢٢٣ هـ • قتله المتمرد صاحب أرشذونة • ابن حفصون يخدع المنذر الذى لا يلبث أن يموت بتدبير أخيه عبد الله الذى يتولى الحكم مكانه •

الفصل الحادى عشر

عمر بن حفصون
يجمع السلطة فى يده

وقت أن شرع الجبليون فى التمرد كان هناك سيد ريفى شريف الأصل اسمه « حفص » ينزل ضيعة متاخمة لحصن « أوت » المعروف اليوم باسم « أزنات » فى الشمال الشرقى من مالقة . وكان جده الخامس يدعى «بالفونس القوطى» ، وينعت بالقومص(١) ، وكان قد التزم الحياد زمن الانقلابات السياسية والدينية ، اما بدافع احتمال الآلام أو عدم الاكتراث·

فلما كانت أيام الحكم الأول غادر « رندة » وأقام قرب حصن « أوت » وأسلم ، وبقى ذراريه على شاكلته رغم ما كانوا يكنونه فى أعماق قلوبهم من توقير عقيدة أسلافهم ·

واستطاع حفص بنشاطه واقتصاده أن يجمع ثروة ضخمة لنفسه ، وكان جيرانه ــ وهم دونه ثروة ومالا ــ يحترمونه ويجلونه ، وجرت عادتهم أن ينادوه « بحفصون » لأن هذه الزيادة فى الاسم دليل (٢) على الشرف ، ولم يكن ثم شيء بمستطيع أن يعكر عليه صفو هدوئه ، حتى ان مسلك ابنه عمر الثائر على النظام الأبوى لم يؤرقه طويلا ، ولم يورثه حزنا مقيما ·

لم يرث هذا الشاب [عمر] سوى الجانب البغيض من الخلق الأندلسى فكان أجوف متعاظما عربيدا ميالا للشجار ، يبلغ الحنق به غاية مبلغه لأتفه اهانة ، وقد تثيره الكلمة أو الحركة أو النظرة العابرة ، وطالما حمل الى البيت وهو يكاد يموت والدم يسيل على وجهه المثخن بالجراح ، فكان لابد له ــ وهو على هذا الخلق ــ أن يقتل أن آجلا أو عاجلا ، وقد حدث ذات يوم أن تشاجر بلا مبرر مع أحد جيرانه فتضاربا فأردى خصمه قتيلا ، فعمل الأب المنكود على انقاذ ابنه من المشنقة بأن فرا معا من الضيعة التى نزلتها أسرتهما منذ ثلاثة أرباع القرن وسكنا جبال « رندة » عند سفح

جبل « بوبشترو » (٣) حيث الطبيعة العذراء ، وهفا قلب عمر للتوغل فى الغابة والأوعار العجيبة ، وانتهى الأمر به الى احتراف اللصوصية فصار من الدعار ، وسقط فى قبضة القضاء فأمر حاكم الولاية بجلده ، فلما أراد العودة الى بيت أبيه اعتبره أبوه لصا ونفض يديه من صلاحه ، واذ ذاك أسقط فى يد الابن [عمر] ولم يدر ما يفعل لكسب قوته فى اسبانيا فهداه تفكيره للشخوص الى الساحل حيث ركب البحر الى افريقية وعاش هناك عيشة الشطار فترة من الزمن حتى وصل الى « تاهرت » حيث عمل فى خدمة طرزى من أهل « رية » كانت له به سابق معرفة ·

وفى ذات يوم بينما هو يعمل مع أستاذه دخل الحانوت كهل لم يره من قبل وان يكن أندلسى المولد ، وناول الطرزى قطعة من القماش طالبا منه أن يخيطها له جلبابا ، فأجلسه الطرزى الى جانبه ، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث ، فسأل الكهل الطرزى من يكون هذا الشاب ؟ فقال له : انه أحد جيرانى برية وقد قدم العدوة ليتعلم حرفتى ، فتوجه الشيخ الى الفتى وسأله متى كانت مغادرته « رية » فقال : « منذ أربعين يوما ! » فسأله : « أو تعرف جبل بوشترو » قال : « نعم ، لقد كنت أنزل سفحه » فقال الكهل : « لقد شبت به النائرة » فقال عمر « أحقا ؟ » فقال الشيخ : « وستتبعها غيرها بعد قليل » ·

وتريث الرجل لحظات ثم تابع كلامه قائلا : « أتعرف بالقرب من هذا الجبل شخصا اسمه عمر بن حفصون ؟ » ·

فلم يكد عمر يسمع اسمه يجرى على لسان الشيخ حتى اربد وجهه وخفض ناظريه ولاذ بالصمت ، فتمعن الرجل فيه ولاحظ كسرا فى احدى أسنانه · وكان هذا الرجل من الاسبان المؤمنين ببعث جنسهم ، ولما كان قد سمع الكثير عن عمر فقد أدرك أنه على جانب عظيم من النشاط الذى يؤهله لارتكاب أعمال الشر أو اتيان الخير حسبما توحى به الظروف ، وحدثته نفسه أن فى طيات هذا الفتى الشموس والمقاتل الكبير ولص الجبل : زعيما قويا ·

وأيقن الشيخ أنه يتحدث مع عمر نفسه لما لاحظه من اضطراب نفسه ، واربداد وجهه وانكسار ضرس له : الأمر الذى سمع به الشيخ من قبل ، وحينذاك أراد العجوز استغلال هذا الشاب الجسور لهدف كبير فقال له : « تعسا لك ، اتحسب أنك هارب من الفاقة بهذا العمل ؟ ارجع الى بلدك وقاتل وكن خصما عنيدا للأمويين وستحكم شعبا كبيرا ! » ·

ولا شك أن هذه الكلمات التى أجرتها النبوءة على لسان الكهل قد أذكت ـ فيما بعد ـ أطماع عمر ، أما فى هذه اللحظة بالذات فقد كان لها تأثير عكسى تماما اذ خاف أن يكشف السفهاء أمره فيسلمه أمير (٤) « تاهرت » الذى كان يسترشد دائما بسلطان قرطبة الى الحاكم الأندلسى ، ومن ثم بادر الى مغادرة البلد وليس معه من المتاع سوى رغيفين من الخبز اشتراهما وطواهما تحت ابطه .

عاد عمر الى الأندلس ولم يجرؤ على مواجهة أبيه بل مضى الى عمه وافضى اليه بما أنبأه به شيخ تاهرت العجوز ، وكان عمه رجلا يؤمن بالخرافات فآمن بنبوءة الكهل وأشار على ابن أخيه بالسير وفق ما قدر له . وأغـراه باضرام نار الثـــورة ، واعدا اياه ببــذل كل ما فى طـــوقه لمســاعدته .

وبر العم بوعده وأمده بأربعين رجلا من فلاحى ضيعته جعلهم تحت امرته فقبلهم عمر جميعهم ورتبهم وأقام بهم على جبل « بوبشترو » وكان ذلك سنة ٨٨٠ م أو ٨٨١ م [= ٢٦٧ ـ ٢٦٨ هـ] ، وهناك وجــدوا أطلال حصن رومانى يســمى : « بالكاسول » (٥) ويســميه أهل البلد el Castillon أو القصر ، ورأى عمر أنه من اليسير عليه ترميم تلك الأطلال، وفعل ما رأى ، ولم يكن ثم مكان آخر فى تلك المنطقة يشأو هذا الحصن ليكون معقلا أمينا يرتد اليه اللصوص أو الثوار .

كان هذا الحصن قائما على مرتفع شاهق شديد الانحدار ، ويستحيل الوصول اليه من الشرق أو الغرب ، فكان أمنع من عقاب الجو ، أضف الى هذا مجاورته للسهل الأعظم الممتد من « كامبلوس » الى قرطبة فكان من الهين على عصابة عمر أن تشن الغزوات على هذا السهل فتحمل منه الماشية وتفرض ضرائب غير شرعية على النواحى المنعزلة ، واكتفى عمر فى بادىء الأمر بهذه السطوات الأولية ، لكنه سرعان ما أدرك أن احتراف اللصوصية أمر لا يليق به ، كما ازدادت جماعته بمن انضم اليها ممن يهمهم البعد عن المجتمع وبمن رأوا الأمن على نفوسهم بالاختفاء وراء أســوار الحصون القوية .... أقول ما كادت جماعته تكبر وتصبح قادرة على اقلاق طمأنينة الاقليم الحربية الضعيفة حتى أخذ فى شن الغارات العنيفة على أبواب المدن ، وذاع خبر حملاته المروعة فاضطرب حاكم (٦) « رية » الذى أجمع رأيه فى النهاية على الخروج بكافة قوات الولاية لقتال المهاجمين الا أن الهزيمة حاقت به واضطره هربه السريع لترك فسطاطه الكبير بين

أيدى العصاة ، فخلعه السلطان الذى عزا اليه أسباب هذه النكبة وعين سواه بدلا منه ٠

لم يكن حظ الوالى الجديد (٧) خيرا من حظ سالفه فقد أزعجتـــه مقاومة حامية « بوبشترو » حتى اضطر الى أن يعقد مع عمر هدنة لم يطل أجلها ، وعلى الرغم من احداق الهجمات من كل جانب بابن حفصـــون الا أنه تمـــكن من الاحتفاظ بمكانه على الجبـــل مدة عامين أو ثـــلاثة أعوام (٨) ، اضطره بعدها « هاشم » الحاجب الى الخضوع واستنزله الى قرطبة هو وسائر رجاله ، فرأى السلطان فى عمر قائدا ممتازا ، وفى أتباعه جندا بارعين ، فأكرم لقاءهم وعرض عليهم الانخراط فى جنده فاستجاب له عمر اذ رأى أن ليس له ولا لهم — فى وضعهم الراهن — عرض أحسن من هذا العرض (٩) ٠

حدث بعد قليل فى صيف سنة ٨٨٣ [= ٢٧٠ هـ] أن خرج « هاشم » لمحاربة « محمد بن لب » زعيم بنى « كسى » اذ ذاك « والفونس » ملك ليون ، واستصحب هاشم معه عمر الذى أتيحت له الفرصة للظهور فى كثير من المعارك لا سيما فى « بانكو رفو » ٠

***

كان عمر هادئا ساكن الجنان فى سلمه فان هيج فثائر فتاك ، وبذلك سهل عليه أن ينال تقدير القائد العام وعطفه ، لكنه فى أثناء عودته الى قرطبة شكى من [محمد بن الوليد] بن غانم والى شرطة المدينة الذى دفعته كراهيته لهاشم الى ازعاج ومضايقة أمثال عمر بن حفصـــون من الضباط الذين يتمتعون بعطف الوزير ، فكان فى كل لحظة يأمره بتغيير محل اقامته ، وأخذ يمده بأردأ أنواع القمح ٠

لم يكن من طبيعة عمر المداراة فلم يستطع كتم حنقه أو اخفاء سخطه ، وفى ذات يوم ابرز لوالى الشرطة كسرة من الخبز الأسود الجاف وسأله : « أتأمل فى عطف الله ؟ ، أو تستطيع قضم هذا الخبز ؟ » فأجابه ابن غانم : « ومن أنت أيها الحقير حتى تجرؤ أن تسألنى هذا السؤال » ، فرجع عمر ابن حفصون الى مقره خزيان كاسفا ، ولقى هاشما فى طريقه الى قصره فقص عليه قصته مع ابن غانم ، فقال له الحاجب ان القوم يجهلون قدره وأن عليه أن يفهمهم من يكون ، ثم تابع سيره ٠

عاف عمر خدمة السلطان فأشـــار على جنده بالارتداد الى الجبال ليعاودوا حياة المخاطرة والحرية التى مارسوها من قبل أمدا طويلا ، فوافق هذا الطلب هوى فى نفوسهم ولم تكن الشمس قد غابت بعد حين خلفوا العاصمة وراءهم قاصدين « بوبشترو » من جديد سنة ٨٤٤ م ٠

كان هم عمر الأول الاستيلاء على هذا الحصن وهو أمر عسير لم يفت هاشما الذى عهد بحراسة هذا الحصن الى حامية كبيرة العدد ، وشيد على جوانبه عدة شون وأبراج فأصبح منيعا على من يرومه ، الا أن ابن حفصون كان عظيم الثقة بحسن طالعه فلم يداخله اليأس ، ومن ثم شرع بمعونة عمه فى ضم طائفة من الرجال الجسورين الى جماعته ، ولم يعط القوامين على حراسة الحصن فرصة لتنظيم المقاومة بل كر عليهم كرة عنيفة أجبرتهم على الفرار حتى انهم لم يجدوا وقتا لاصطحاب عشيقة قائدهم التى راقت فى عينى عمر فاتخذها حليلة أو خليلة (١٠) ٠

لم يعد عمر بن حفصون منذ هذه اللحظة « دون جوزيه ماريا » القرن التاسع وان خدمته الظروف بما لم تخدم به هذا البطل ٠٠٠٠ أقول لم يعد عمر زعيم عصابة من اللصوص بل قائدا للجنس الاسبانى على الاطلاق فى الجنوب ، فنادى جميع مواطنيه ــ مسلمين ونصارى ــ بقوله : « لقد عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم ، وأذلكم العرب واستعبدوكم ، وأنا أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتهم » (١١) ويقول أحد المؤرخين العرب : « انه كان لا يورد هذا على أحد الا أجابه وشكره ، فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه » ٠

وها هم ذا أعداؤه وهم وحدهم الذين ذكروا تاريخه ليشهدون بامحاء عيوبه القديمة تماما بعد أن تزعم جماعته ، فغدا أنيسا بشوشا حتى نحو أصغر جنده بعد أن كان فى الماضى متكبرا فظا ، وأحبه من عملوا معه حبا يكاد يرقى الى درجة العبادة ، وأطاعوه طاعة عمياء فكانوا لا يعبأون بالخطر بل يخفون اليه عند أول اشارة تبدر منه لهم ، وما كان لهم أن يتأخروا ــ لو دعاهم ــ عن اقتحام النيران اذ كان هو على رأسهم ، وكان فى حمس القتال يحارب كأصغر جندى ويستعمل الرمح والسيف فى مهارة لا يبزه فيها أمهرهم ، ويهاجم أشجع الأقران ولا يتركه حتى يظهر عليه ، ولم يكن هناك أبدا رجل يضارعه فى حبه لخوض غمار الأخطار ، وكان يسخو فى مكافأة من يمد اليه يدا ، ويجزل العطاء لرجاله المبرزين ، ويكبر الشجاعة حتى فى أعدائه ، وطالما رد حرية رجال لم يسقطوا فى يده الا بعد طول صراع ٠

وكان من ناحية أخرى يقسو فى معاقبة الأشقياء ، وحينذاك تتسم أحكامه بالوحشية فلا يعبأ بالبراهين ولا الشهادة بل يكفيه اعتقاده بارتكاب الشخص للجرم ٠

وعلى الرغم من سريان اللصوصية فى دماء هؤلاء القوم الا ان الأمن استتب فى هذه الجبال بفضل طيبة عمر وعدالته ، ويؤكد العرب أن المرأة

كانت تستطيع اذ ذاك عبور الجبال وحيدة محملة بالمال دون أن تخشى أحـدا (١٢) ٠

***

انقضى قرابة عامين دون أن يقوم السلطان بعمل جدى ضد البطل الذى روع شعبا طال استعباده ، بيد أنه فى مستهل يونيو ٨٣٦ م [= ٢٢١ هـ] خرج ولى العهد المنذر لمهاجمة سيد (١٣) « الحامة » وكان علجا كعمر وحليفا له ، فهب عمر لنجدته وهاجم مدينة « الحامة » ، وتحمل العلوج الحصار مدة شهرين وقل ما بأيديهم من القوت ، فصمموا على شق طريق لهم بين صفوف العدو ، لكن فشل مشروعهم وخابت خطتهم وأثخنت عمر جراحه ، وشلت احدى يديه ، وفقد كثيرا من جنده حتى اضطر للارتداد الى الحصن ، وأسعد العلوج بأن تلقى « المنذر » بعد برهة وجيزة خبرا اضطره لرفع الحصار والعودة الى « قرطبة » اذ حضر (١٤) الموت أباه فى أغسطس سنة ٨٣٦ م [= ١٩ صفر سنه ٢٧٣ هـ] فاهتبل عمر هذه الحادثة لمد سلطانه وقصد الى أصحاب كثير من القلاع ودعاهم للاتحاد معه فاعترفوا جميعا بسلطانه عليهم (١٥) ، وأصبح هو منذ هذه اللحظة ملك الجنوب فى الواقع ٠

***

وجد عمر فى السلطان الذى اعتلى العرش خصما كفؤا له ، اذ كان أميرا ، نشطا ، يقظا ، شجاعا ، يعتقد الموالى الأمويون أنه لو مد له فى الحكم بعام أكثر لأجبر جميع ثوار الجنوب على الاستسلام (١٦) له ولكن ها هى دى مناطق قبرة وألبيرة وجيان قد أصبحت مسرحا لنضال عنيف كانت كفة كل من الفريقين فيه ترجح مرة وتشول أخرى (١٧) ٠

وفى ربيع ٨٣٨ م [= ٢٢٣ هـ] زحف المنذر بنفسه على العصاة واستولى فى طريقه على عدة حصون ، وخرب أرباض « بوبشترو » ، ومضى لمحاربة أرشذونة ، وكان قائد حاميتها « عيشون » لا يخلو من هذا الغرور الذى لا يزال حتى اليوم عيب الأندلسيين ، فاعتمد على شجاعته التى لا ينكرها عليه أحد وأخذ يقول : « اذا ظفر بى السلطان فليصلبنى ، وليصلب عن يمينى خنزيرا وعن يسارى كلبا » ، ناسيا أن لدى السلطان ـ اذا شاء القبض عليه ـ سلاحا أنفذ من قوة السيف ، اذ كانت الرشوة قد أفسدت بعض سكان البلد ، وفى ذات يوم دخل عيشون ـ وهو أعزل ـ مسكن أحد هؤلاء الخونة ففوجىء بالقبض عليه وتكبيله بالحديد ، وتسليمه الى السلطان الذى صلبه على الصورة التى أرادها لنفسـه ، وسرعان ما استسلمت « أرشذونة » ، ثم أسر المنذر بعدئذ أبناء بنى مطروح الثلاثة

أصحاب القلاع فى جبال « بريجو » وصلبهم مع تسعة عشر رجلا من مقدمى قوادهم ، ثم مضى هو فحاصر « بوبشترو » (١٨) .

لم يجزع ابن حفصون ولم يتبلبل ذهنه من هذا الحصار لثقته فى مناعة حصنه ، وفكر فى حيلة يحتال بها على السلطان الذى كان من طبيعته البشاشة والسخرية ، فعرض عمر على المنذر شروط الصلح قائلا انه سيكون عند الأمير من خاصة جنده وسوف يقطن قرطبة بأهله وولده على أن يلحق الأمير أبناءه فى مواليه ، فسقط المنذر فى الأحبولة واستقدم الى قرطبة القضاة والفقهاء ، وحرر معاهدة صلح وفق الشروط التى عرضها ابن حفصون الذى مثل أمام السلطان الذى عسكر فى حصن مجاور وقال له : « أسألك مائة بغل أجعل عليها جملة مالى ومتاعى » ، فوعده السلطان باجابة ملتمسه هذا ، ولما كان الجيش قد غادر ضواحى بوبشترو فقد أرسلت البغال المطلوبة الى هذا الحصن فى حراسة عشرة من العرفاء ومائة وخمسين فارسا ، وتهاون القوم فى الحراسة ثقة منهم بالاعتماد على ابن حفصون الذى اغتنم فرصة الليل للانسلال ، وأغذ السير الى «بوبشترو» آمرا جماعة من جنده باللحاق به ، وهاجم الحرس واغتصب منهم البغال ووضعها فى مكان أمين خلف أسوار حصنه القوية (١٩) .

غضب المنذر للتغرير به وأقسم وهو فى سورة حنقه على معاودة حصار بوبشترو وألا يرفع الحصار عنه حتى يستسلم له العلج الخائن ، الا أن الموت أحله من يمينه ، فقد كان أخوه عبد الله فى مثل عمره تماما وكان يتطلع للعرش الا أنه كان يفتقد الأمل فى اعتلائه لو مات المنذر تاركا وراءه أبناء تؤهلهم أعمارهم لذلك الاعتلاء ، ومن ثم رشى عبد الله جراح المنذر الذى فصده مولاه بمبضع مسموم فلما كان يوم ٢ يونيو ٨٨٨ م [= ١٥ صفر ٢٧٥ هـ] لفظ المنذر نفسه الأخير بعد حكم استمر عامين (٢٠) .

***

كان عبد الله لا يزال فى قرطبة حين حمل اليه أخصاؤه خبر موت أخيه فأسرع الى المعسكر وأفضى بالنبأ الى وزرائه الذين لم يكن لهم علم بالوفاة ، وأخذ البيعة لنفسه منهم ثم من القرشيين فالموالى الأمويين فموظفى الدولة فقواد الجيش .

كان من المنتظر أن ينصرف الجند عن حصار حصن « بوبشترو » حين يتناهى الى سمعهم نبأ موت المنذر ، كراهية منهم لتنفيذ عزم السلطان لاعتقادهم بمنعة بوبشترو ، ولفت أحد الضباط نظر عبد الله الى تلك الروح السارية بين الجند وأشار عليه أن يكتم خبر موت أخيه وأن يدفنه فى أقرب مكان مجاور ، غير أن عبد الله جعل هذه المشورة دبر أذنه متظاهرا

بالغيظ وقال : « لو علمت أن المنية تخترمني دونه لما خلفت رمة أخي وأميري موطنا لأقدام أهل الشرك والخلعان ومحل أهل النواقيس والصلبان » .

وشاع نبأ موت المنذر بين الجند فتلقوه مغتبطين ، وتأهبوا للقفول العاجل الى ديارهم دون أن ينتظروا أوامر السلطان الجديد الذي أخذ جيشه في التناقص وهو ماض الى قرطبة .

لم يعلم ابن حفصون بموت المنذر الا بعد أن أخذ الجيش في الرجوع، ومن ثم بادر الى الاستفادة من الفوضى التي صحبت هذا الارتداد السريع ، فقبض على كثيرين من أبطأ بهم الارتداد وأصاب منهم غنائم جمة ، فأرسل اليه عبد الله وصيفه « فرتون » يستحلفه ألا يزعجهم وهم يشيعون جنازة أخيه ، ويؤكد له رغبته الصادقة في موادعته ، وقد كف الزعيم الاسباني عن مطاردة القوم ، ولا ندري أكان هذا تفضلا منه أم تقديرا منه للمنذر .

ودخل عبد الله (٢١) قرطبة في رهط لا يعدو أربعين فارسا ، أما بقية الجند فقد انصرفوا عنه .

***

الفصل الثانى عشر

مبادرات المصالحة بين ابن حفصون والأمير عبد الله • نبذة تاريخية عن الحركة المسيحية فى العهود الأولى من الحكم حتى زمن الأمير عبد الرحمن • ظهور يحيى بن صقالة والنزاع العرقى • ظهور سوار القيسى واستيلاؤه على حصن « عونت شافر » وفظاظته فى معاملة خصومه • وقعة جعد وانتصار سوار • الأعلاج يلتمسون الحماية من السلطان • قيام سوار بمهاجمة حلفاء ابن حفصون • التجاء العرب الى قلعة الحمراء • المخاوف النفسية وأثرها فى النفوس • وقعة المدينة والتماس العلوج مساعدة ابن حفصون لهم • أهل ألبيرة يأسرون سوارا ويقتلونه • شخصية سعيد بن جودى • رأى المؤلف والمؤرخين المسلمين عن حروب سعيد •

الفصل الثاني عشر

ظهـور سوار وأعماله

اعتلى عبد الله العرش وسط ظروف نحس كبير (١) ، اذ كانت الدولة التي نخرتها العداوات العرقية منذ أمد بعيد سائرة في خطى سراع شطر الانحلال والدمار ، ولعل الأمر ربما كان أهون خطرا لو لم يكن للسلطان من شاغل سوى ابن حفصون ورجاله الجبليين ، الا أن العرب الأشراف اغتنموا فرصة الفوضى الشاملة وتطلعوا الى الاستقلال ، فكان خوف الملوكية من هذه الحركة أشد من خوفها من الاسبان أنفسهم ، وذلك ما كان يراه عبد الله ٠

ولما كانت الضرورة تحتم عليه اما مصافاة الاسبان أو الاشراف العرب حتي لا يكون وحيدا بلا سند فقد فضل مصافاة الأولين ، فعطف على بعضهم وقربهم اليه ، وتوثقت الألفة بينه وبين «ابن مروان» الجليقي وقت أن كان ابن مروان لا يزال في خدمة السلطان محمد ، فلما اعتلى عبد الله العرش استعمل «ابن حفصون» على حكومة رية مشترطا عليه الاعتراف بسلطنته ، ونجحت هذه السياسة في باديء الأمر فقدم « ابن حفصون » اليه فروض الطاعة ، وأظهر ثقته بالأمير حتى لقد بعث بابنه حفص وبعض أبناء قواده الى البلاط ولم يدخر السلطان وسعا في توثيق عرى هذا التحالف ، فعامل ضيوفه أحسن معاملة وغمرهم بالهدايا ٠

لكن لم تكد تنقضى بضعة أشهر على رجوع حفص ورفاقه الى بوبشترو حتى أطلق ابن حفصون يد جنده فعاثوا فى الضياع والقرى نهبا وسلبا حتى بلغوا أبواب « أوسونا Ousuna » واستجة بل وقرطبة ذاتها ، فلما هزمتهم القوات التى أنفذتها الحكومة ضدهم شجب ابن حفصون علانية ما كان بينه وبين السلطان من عهد وجاهره بالعداوة وأخرج عماله (٢) ٠

أخطأ عبد الله فيما قدره فلم يفلح في اكتساب الاسبان الى جانبه ولم يجن من محاولته هـذه الا عداوة أبناء جنسه ، اذ من الطبيعي أن

يكون العرب المقيمون فى الولايات التى تزعزعت فيها السلطة الملوكية أبعد الناس عن طاعة السلطان الذى حالف خصومهم •

وسنرى أولا كيف تتابعت الأحداث فى ولاية ألبيرة •

اذا كان للذكريات الدينية تأثير ما على النفوس فليس ثمت ولاية تبز « ألبيرة » فى تعلقها بالمسيحية ، فقد كانت مهد النصرانية الاسبانية ، كما ترددت فى آفاقها تكهنات المبعوثين السبعة الذين تزعم احدى الروايات الموغلة فى القدم أنهم تلاميذ الرسل فى رومة فى الوقت الذى كان فيه كل شبه الجزيرة غارقا فى ظلام الوثنية (٣) ، ثم أصبحت عاصمتها بعد ذلك بزمن طويل — أعنى حوالى سنة ٣٠٠ م — كرسى مجمع شهير ، وظل مسيحيو ألبيرة أمدا طويلا مقيمين على الولاء لديانة أسلافهم (٤) •

أما فى العاصمة ذاتها فقد حدث بعد فترة قصيرة من الفتح العربى أن قام « حنش الصنعانى » — أحد أصحاب موسى الأتقياء بتأسيس مسجد بها ، الا أن عدد المسلمين كان قليلا جدا حتى لقد ظل المسجد بعد قرن ونصف قرن من الزمان قائما وحيدا كما تركه «حنش» (٥) • أما الكنائس فكانت كثيرة العدد طائلة الثروة •

وشابهت ألبيرة غرناطة التى حفلت بما لا يقل عن أربع كنائس رغم نزول اليهود بكثير من نواحيها ، وكانت احدى تلك الكنائس خارج باب ألبيرة ، وقد شيدها فى مستهل القرن السابع سيد قوطى شريف يدعى « جـــوديلا » ، وكانت كنيســـة باب ألبيرة رائعـــة البنيان معـدومة النظـــير (٦) •

أما فى أيام عبد الرحمن الثانى وولده محمد فقد أخذ الالحاد يعم البلد شيئا فشيئا ، ولم يعد الناس فى ولاية ألبيرة يهتمون بالصالح الدينى أكثر مما فى الولايات الأخرى ، أضف الى ذلك أن المفاسد المخزية والكفر الصريح الذى أبداه أحد أهالى «هوستجسيس» — وهو العم صمويل مطران ألبيرة قد دفع كثيرا من المسيحيين للنفور الطبيعى من ديانة هذا مثال من رجالها المنحطين ، وألح الاضطهاد على ما بقى فى نفوسهم •

أما ما فعله العم صمويل المرذول فانه لم يكد يعزل لمسلكه المشين حتى مضى الى قرطبة وأعلن اسلامه ، وأخذ منذ ذلك الحين يستعمل أشد الأساليب الوحشية ضد أبناء أسقفيته القدماء الذين أسلمتهم الحكومة لغضبه الأعمى ، حتى ان الكثيرين من هؤلاء التعساء لم يجدوا سوى الارتداد عن دينهم للمحافظة على حياتهم وما يملكون (٧) •

بهذه الوسيلة ازداد عدد العلوج فى ألبيرة زيادة رأت معها الحكومة ضرورة ايجاد مسجد كبير لهم أقامته سنة ٨٦٤ م [= ٢٥٠ هـ] زمن الأمير محمد (٨) ٠

أما عرب الولاية – وأغلبهم من درية جند دمشق – فكانوا يكرهون البقاء خلف أسوار أية مدينة ، ومن ثم سكنوا الأرياف كما كان يسكنها أسلافهم من قبل ، وكون هؤلاء العرب – بالنسبة للاسبان – طبقة بالغة الارستقراطية والتكبر ، قليلة الاتصال بسكان العاصمة ، ولم يكن هناك ما يغريهم بالاقامة فى مدينة ألبيرة الكئيبة المملة الواقعة وسط أرض جرداء خالية من الزهور فى الصيف قدر امتلائها بالسحب شتاء ، فاذا كان يوم الجمعة هرعوا الى المدينة للصلاة، ولكنهم فى الواقع لم يخرجوا الا لاستعراض جيادهم الفخمة المجهزة أحسن تجهيز (٩) ، وكانوا لا يستحون من اظهار احتقارهم للأندلسيين أو الاثقال عليهم ، وما أبغض الكبرياء الأرستقراطى يتظاهر به قوم طبعت علاقاتهم فيما بين بعضهم والبعض الآخر بطابع المجاملة الكاذبة ، فكانوا يعدون الاسبان : مسلمين كانوا أو مسيحيين « سفلة وأوغاداً » ، وهو تعبيرهم الدائم عنهم ، وبذلك خلقوا لأنفسهم أهوالا لا تغتفر ، فكثرت مرات الصدام بين الجنسين حتى لقد حدث قبل ذلك العهد الذى نتكلم عنه بثلاثين سنة ان قام الاسبان بمحاصرة العرب فى الحمراء حين التجأ الأخيرون اليها (١٠) ٠

وانا لنجد الاسبان – فى مستهل حكم عبد الرحمن – قد شغلوا أنفسهم بحرب عنيفة ضد السادة العرب الذين ناهضوا السلطان ، وزعموا عليهم بطلا محاربا من قبيلة قيس اسمه « يحيى بن صقالة » ، فأخرجهم خصومهم من قراهم فالتجئوا الى حصن واقع شمالى غرب غرناطة قرب Guadalhortuna وكان يسمى فى القديم باسم اسبانى هو حصن الجبل المقدس Monte Sacre فحرفه العرب الى « منت شاقر » ، وخربو ما حوله ، وحينذاك حاصرهم العلوج والنصارى بقيادة « نابل » وقتلوا عددا كبيرا منهم واستولوا على الحصن ، ونجى « يحيى بن صقالة » بالهرب ، واضطرته شدة ضعف كتيبته الى القاء السلاح وعقد معاهدة مع الاسبان ، وأصبح كثير التردد على العاصمة يقيم فيها بعض وقته ، ولعله كان يحاول تدبير المؤامرات ٠

وسواء أكان هذا حقيقة أم افتراء فقد باغته الاسبان بالهجوم عليه وفتكوا به هو ورجاله ، ثم ألقوا بجثثهم فى أحد الآبار ، ومضوا يتصيدون العرب تصيد الوحوش ، واشتدت فرحة الاسبان بذلك بصورة صورها الشاعر العبلى (١١) فى قوله :

قـــد انقصـــفت قناتهمو وذلوا وضعضع ركن عرهمو الأذل
فمـــا طلت دماؤهمو لديهـــم ، وها هم عنـــدنا فى البئر ظلوا

تحرج موقف العرب اذ ذاك ودبت الفرقة بينهم ، كما أن الفوضى التى ضربت أجرانها عليهم أثارت من جديد حدة خصومة المعديين واليمنيين، فأخذ هذان الجنسان يتصارعان صراعا عنيفا كما حدث فى « شذونة » ، أما في ولاية ألبيرة فقد حدث أن اختير خليفة ليحيى ، وحينئذ قام اليمنيون ــ وكانت لهم على ما يظهر الغلبة فى العدد ــ ونازعوا المعديين الزعامة ، وكان تنازعهم فيما بينهم فى تلك الساعة العصيبة مؤديا بهم جميعا الى الهـلاك ، على أن اليمنيين قد أدركوا لحسن الطالع ذلك الخطر فى حينه فتنحوا عن الزعامة ومدوا يدهم لمنافسيهم ، وزعموا عليهم(١٢) « سوارا [القيسى] » وكان زعيما قويا عمل على انقاذ شعبه حتى لقد كانوا يقولون فيما بعد « لولا سوار لأكل العرب بعضهم بعضا » ٠

وكان سوار قيسيا كيحيى ومن ثم كان من الطبيعى أن يتطلع للثأر لابن عشيرته ، واستبد به خاطر آخر هو أنه رآى الاسبان بعينى رأسه يقتلون ابنه الأكبر عند الاستيلاء على حصن « مونت شاقر » ، فتحرق منذ هذه اللحظة للثأر له منهم ، وان كان بشهادته ــ هو نفسه ــ قد طعن فى السن وبلغ من العمر عتيا حيث قال فى احدى قصائده :

صرم الغـــوانى يا هنيـــد (١٣) مودتى
اذ شـــاب مفـــرق، لمتى وقـــذالى

والواقع أن تلك المحاولة الدموية التى أزمع على النهوض بها قد أمدته بعزم وقسوة قل أن تتوافرا حتى لمن كان لا يزال شابا غرانقا ، ولكنهما تظهران فى الشيخ الذى تسيطر عليه عاطفة واحدة أخيرة تنسيه كل شفقة وكل عاطفة انسانية وتحيله الى شيطان مريد قد ماتت فى نفسه جميع الاحساسات الطيبة ــ ان وجدت ــ فى سبيل غايته المنشودة ٠

كان هم سوار الأول ــ بعد أن ضم اليه من استطاع من العرب ــ الاستيلاء على « مونت شاقر » ، وكان مدفوعا لذلك بعاملين ، أما : أحدهما فرغبته فى امتلاك حصن يستطيع اتخاذه قاعدة لعمليـاته التالية ، أما ثانيهما فرغبته الملحة فى اطفاء ظمئه بدم الذين فتكوا بابنه ٠.

واستولى العرب على حصن « مونت شاقر » رغم كثرة المدافعين عنه ، وكان انتقام سوار انتقاما مهولا ، اذ فتك بجميع رجال الحامية وعرضهم على السيف وكانوا زهاء ستة آلاف رجل ، ثم تتابعت هجماته وتوالت

انتصاراته فكان ختام كل واحـدة مذبحة مروعة ولم تأخذه شفقة على الاسبان بل قضى على أسرات على بكرة أبيها حتى بقى كثير من التركات بلا وريث ٠

دفعت الشدة الاسبان فى « ألبيرة » للتوسل الى حاكمها جعد (١٤) لمساعدتهم ووعدوه بالخضوع له ، فلبى جعد رجاءهم وخرج على رأس جنده والاسبان لمهاجمة سوار ٠

لم يطر قلب الزعيم العربى شعاعا بل استحر القتال العنيف بين الطرفين ، وانتصر العرب وقصوا عدوهم حتى أبواب « ألبيرة » وقتلوا أكثر من سـبعة آلاف من رجاله ، وكان « جعد » ذاته ممن وقع فى أيدى الغالبين ٠

اشتد فرح العرب بتلك الخاتمة السعيدة التى انتهت اليها هذه الوقعة المعروفة بوقعة جعـد ، وكانوا قانعين حتى ذلك الحين بمهاجمـة الحصون ، أما الآن فقد تأتى لهم ـ ولأول مرة ـ الانتصار على العدو فى معركة فاصلة وضحوا بالكثيرين فداء ليحيى ، وها هى ذى أبيات أحد أبطالهم الذى كان فى الوقت ذاته من أحسن شعرائهم ، واسمه « سعيد بن جودى (١٥) » حيث يقول :

لم تزالوا تبغونها عوجا حتى	وردتـم للمـوت شر ورود
فاصطلوا حرها وحر سـيوف	تتلظى عليـكمو كالـوقود
هجتموا يا بنى العبيد ليوثا	لم يكونوا عن ثأرهم بقعود
جاءكم ماجد يقـود اليكـم	فتية دارة كمثـل الأسـود
يطلب الثأر : ثأر قوم كرا م	اذ وفوا بالعهود بعد العهود
فاستباح الحمراء لم يبق منهم	غير عان فى قيده مصـفود
قد قتلنـا منكم ألوفا وما	يعدل قتل الكرام قتل العبيد
فلئن كان قتـله غـدرة ما	كان بالنكس لا ولا الرعديد

بعد هذا النصر المبين الذى حازه سوار مضى فحالف عرب رية وجيان وقلعة رباح ذاتها ، ثم عاد لمواصلة غاراته ومتابعة مذابحه فلم يجد الاسبان الذين انفطـرت قلوبهم هلعا سـبيلا للطمأنينة الا بالارتماء بين ذراعى السلطان ، فطلبوا اليه أن يحميهم ، وما كان له الا الاستجابة لهم عن طيب خاطر لو أن ذلك كان فى مقـدوره ، غير أن كل ما استطاعه فى هذه الظروف المحيطة به هو وعده اياهم بتدخله الودى الحميد ٠

وعد السلطان سوارا باستعماله على جزء كبير من ادارة أمور الولاية مشترطا عليه لقاء ذلك الامتثال لأوامره ، وترك الاسبان وشأنهم ، فقبل سوار هذه الشروط وأقسم هو والاسبان على حفظ السلام ، وحينذاك استتب النظام ورفرف الهدوء على الولاية ، غير أن ذلك للأسف كان ظاهريا اذ كان الفزع والقلق يسودان الجميع بلا استثناء ، ولما عدم « سوار » حصما يقاتله قام بمهاجمة حلفاء ابن حفصون وأتباعه ، وترامت أخبار غزواته وقسوته الى آذان الجميع فتحرك الشعور القومي بغتة فى نفوس سكان « ألبيرة » لا سيما وقد سمعوا صرخات الفزع تتعالى من أبناء جلدتهم فهبوا لحمل السلاح ، واقتدت بهم الولاية كلها ، ودوت صيحة الحرب بين جميع الأسر ، ووجد العرب أنفسهم وقد هوجموا من شتى النواحي ونزلت بهم الضربات بعضها فى اثر بعض عن اليمين وعن الشمال فأسرعوا لواذا الى الحمراء (١٦) يلتمسون بها مكانا للنجاة ٠

***

لم تعد الحمراء ــ وقد احتلها الاسبان ثم العرب ــ غير أطلال لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، ومع ذلك فقد كانت الملجأ الوحيد الذى بقى للعرب ، وكان معنى ضياعه من أيديهم فناؤهم قتلا عن بكرة أبيهم ، لذلك صمموا أيضا تصميما قاطعا على الدفاع عنه حتى آخر رمق فيهم ، وكانت الشمس لا تزال فى الأفق وان مالت الى المغيب حين استبسلوا فى دفع هجمات الاسبان المتتالية التى كانوا يرمون من ورائها الى الخلاص الأبدى ممن أسرفوا فى اضطهادهم زمنا طويلا ، ثم أقبل الليل فأضاءوا المشاعل وأعادوا ترميم ما تهدم من الأسوار وشون الحصن ، غير أن التعب ومواصلة السهر وتوقعهم الموت ان هم توانوا لحظة واحدة أدى بهم الى حال من الاضطراب العنيف جعلهم فريسة سهلة للتطيرات التى كانوا يخجلون منها فى ظروف غير هذه الظروف ، فقد حدث ذات ليلة ــ وهم منهمكون فى اقامة التحصينات ــ أن انطلقت حصاة من فوق السور واستقرت عند أقدامهم فالتقطها أحد العرب فاذا بها ملفوفة فى ورقة بها الأبيات الثلاثة التالية : فقرأها بصوت عال على زملائه الذين أنصتوا له وكأن على رؤوسهم الطير :

منازلهم منهم قفار بلاقع   تجارى السفا فيها الرياح الزعازع
وفى القلعة الحمراء تدبير زيفهم   ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حددت آباءهم فى ضلالها   أسنتنا والمرهفات القواطع

***

أنصت العرب الى هذه الأبيات وهى تتلى عليهم على وميض المشاعل الخافت وضوئها الكابى المحزن الذى ترامت أنواره وسط ظلام الليل الكثيف فكانت وحيا عجيبا ، ويئسوا من الانتظار ، واستبدت بهم الأحاسيس الكئيبة حتى لقد قال أحدهم فيما بعد « اشتد ذعرنا لهذه الأبيات حتى لو أن عساكر الأرض أحاطت بنا ما وجدنا أكثر من هذا الذعر الذى وقع منا موقع الهواتف بالنذر » .

لكن كانت هناك جماعة أثبت من هذا الفريق جنانا حاولت تقوية عزائم الآخرين وتثبيتهم فأفهمتهم أن السماء لم ترمهم بهذا الحجر ولا بتلك الورقة ان كانوا يعتقدون ذلك ، بل ان يدا معادية قذفتهم بها ، وأن الابيات من نظم « العبلى » الشاعر الأندلسى . وأخذت هذه الفكرة فى الانتشار بينهم ، ومن ثم طلبوا الى شاعرهم « الأسدى » الرد على شاعر العدو بأبيات من نفس البحر والقافية ، ولم يكن ذلك بالأمر الجديد على « الأسدى » فلطالما اشتبك مع « العبلى » فى مهاجاة شعرية من هذا القبيل ، الا أنه كان فى هذه اللحظة مهتاجا قاصر الخيال فأجهد نفسه حتى واتاه البيتان التاليان وان كان ينقصهما الالهام :

منازلنا معمورة لا بلاقع وقلعتنا حصن من الضيم مانع

وفيها لنا عز وتدبير نصرة ومنها عليكم تستتب الوقائع

وكان لابد للأسدى من بيت ثالث لاكمال الرد فعاقه اضطرابه الشديد عن النظم ، فأحمر وجهه خجلا وخفض ناظريه الى الأرض واضطرب صامتا كما لو لم يكن قد سبق له فى حياته معاناة القريض ولا نظم بيتا من الشعر .

لم تكن هذه الحال بالتى تحيى شجاعة القوم المفقودة ، غير أنهم كانوا قد استردوا بعض هدوئهم فلم يروا فيما جرى شيئا خارقا للمألوف، لكنهم حين رأوا أن الوحى لم يوات شاعرهم ـ وهو ما لم يكن متوقعا ـ تضاعفت أوهامهم مرة أخرى وانقلب الأسدى الى مأواه خجلا ، واذا به يسمع فجأة صوتا يردد هذا البيت :

ألا فاذنوا منها قريبا لوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

فكان هذا البيت هو البيت الثالث الذى أعياه البحث عنه .

وتلفت الشاعر فيما حوله فلم ير أحدا ، فاشتد اعتقاده حينذاك أن روحا خفية قد أجرت ذلك البيت على لسانه ، فهرول يفتش عن صديقه الشيخ الحميم [محمد بن] أضحى ، وقص عليه ما جرى وأنشده البيت الذى ألقى به اليه ، فصاح به ابن أضحى : « أبشر بما سمعت يا بن أخى،

فو لله ما أحسبه الا هاتف صدق في هؤلاء الأخابث فانهم بغوا علينا ، وقد وعد الله من بغى عليه بالنصر ، فقد قال تعالى (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ، ان الله لعفو غفور) ٠

آمن العرب اذ ذاك أن الله مدركهم بعنايته ومؤيدهم بنصره ، فكوروا أبيات شاعرهم حول حصاة قذفوا بها بين عدوهم ٠

وبعد سبعة أيام من ذلك الحادث رأوا الجيش الأسباني — وعدته قرابة عشرين ألف رجل — يتأهب لمهاجمتهم من ناحية الشرق وينصب آلات الحرب على أحد التلال ، ولم يشأ « سوار » تعريض جنده الشجعان للقتل في الحصون الخربة بل آثر المضي بهم لمواجهة العدو ، وما كاد الفريقان يلتقيان حتى فارق « سوار » فجأة الميدان في رعيل مختار من رجاله دون أن يعلم خصمه أمر رحيله وقام بحركة التفاف ثم انقض على الجماعة المرابطة على التل كأنه السيل الجارف انحط عليهم من عل فاضطرها الى الفرار ، فارتاع الاسبان المحاربون في السهل من هذا المنظر الذي يجري فوقهم ، وخالوا الامدادات قد وصلت الى العرب ٠

وتلت ذلك مذبحة مروعة ، وقص العرب عدوهم الآبق الى أبواب «ألبيرة» وقتلوا منه اثنى عشر ألف رجل ، وان قالت رواية أخرى بل كان القتلى سبعة عشر ألف مقاتل ٠

وقد أنشأ سعيد بن جودى قصيدة يشيد فيها بتلك الوقعة الثانية المعروفة بوقعة المدينة ، وفيها يقول :

ولما رأونا راجعين اليهمو	تولوا سراعا خوف وقع المناصل
فسرنا اليهم والرماح تنوشهم	كوقع الصياصي تحت وهج القساطل
فلم يبق منهم غير عان مصفد	يقاد أسيرا موثقا في السلاسل
وآخر منهم هارب قد تضايقت	به الأرض يهفو من جوى وبلابل
لقد سل سوار عليكم مهندا	يجز به الهامات جز المفاصل
سعى لبنى الحمراء اذ حان حينهم	بجمع كمثل الطود أرعن رافل
به قتل الله الذين تحزبوا	علينا ، وكانوا أهل افك وباطل
أدرتم رحى حرب فدارت عليكمو	بحتف — قد افناكم به الله — عاجل
لقيتم لنـا ملموسة مستجيرة	تجيد ضراب الهام تحت العوامل
بها من بنى عدنان فتيان غارة	ومن آل قحطان كمثل الأجادل
يقودهمو ليث هـزبر ضبارم	مجس حروب ، ماجد غير خامل
أرومته من خير قيس ، سما به	الى المجد —قدما والعلى— كل فاضل
له ســورة قيســية عربية	بها ذاد عن دين الهدى كل جاهل

كان من جراء الموقف الحرج الذى أعقب تلك الوقعة المروعة أن لم يعد للاسبان بد من شق طريق لا مناص لهم من شقه. ألا وهو التماس المعونة من زعيم جنسهم عمر بن حفصون والاعتراف بسلطته ، وكان ذلك ما فعلوه ·

***

سرعان ما نهض ابن حفصون بجيشه ودخل « ألبيرة » — وكان على كثب منها — وأعاد تنظيم جندها ، وضم تحت لوائه بعض حاميات الحصون المجاورة ، وسار بهم لمهاجمة سوار الذى اغتنم هذه الفرصة فاستمال اليه عرب « جيان » و « رية » ، وأصبح جيشه من الكثرة بالدرجة التى أطمعته فى التغلب على ابن حفصون ، ولم يكن سوار مبالغا فيما أمل وارتجى ، فقد ارتد ابن حفصون بعد أن فقد كثيرا من جنده ، وكاد هو ذاته أن يكون بين القتلى ، ولكن اشتد غضبه لهذا التقهقر وهو الذى ألف النصر ، فأسرف فى لوم سكان ألبيرة واتهمهم بأن أسلوبهم فى القتال قد أفسد عليه تدبيره ، ثم استبد به الغضب ففرض عليهم غرامة هائلة ألزمهم بدفعها بحجة أنه لم يخض غمار هذه الخرب الا من أجلهم ، ثم قفل راجعا الى « بوبشترو » على رأس معظم جيشه بعد أن عهد بالدفاع عن « ألبيرة » الى قائده « حفص بن ألمورو » ·

***

كان البطل سـعيد بن جودى من بين الأسرى الذين اقتادهـم ابن حفصون ، وها هى مقطوعة لهذا الشاعر المفلق نظمها أثناء منسيره قال فيهـا :

خليلى صبرا، راحة الحر فى الصبر	ولاشىء مثل الصبر فى الكرب للحر
فكم من أسير كان فى القيد موثقا	فأطلقه الرحمن من ربقة الأسر
لئن كنت مأخوذا أسـيرا وكنتما	فليس على حرب ، ولكن على غدر
ولو كنت أخشى بعض ماقد أصابنى	حمتنى أطراف الردينية السـمر
فقد علم الفتيان أنى كميها	وفارسها المقدام فى ساعة الذعر
وان لم يكن قبر فأحسن موطنا	من القبر للفتيان حوصلة النسر

بعـد رحيل ابن حفصـون وقع سوار فى كمين نصـبه له سكان « ألبيرة » وقتلوه ، فلما حمل جثمانه الى المدينة تعالت صيحات الفرح واشتدت شهوة الانتقام عند النسوة فنظرن اليه نظرات الوحوش المفترسة لما أصابهن من الثكل بأبنائهن ، والترمل بفقد أزواجهن ، والحزن على اخوتهن ، ودفعهن الغضب الى تمزيق جثته اربا اربا ورحن يمضغنها (١٧)

حينذاك عهد العرب بقيادتهم الى سعيد بن جودى الذى أطلق سراحه ابن حفصون سنة ٨٩٠ م [= ٢٧٧ هـ] ٠

وعلى الرغم من صداقة سعيد لسوار وتغنيه بمدح أفعاله الا أنهما كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بيّنا ، فقد كان سعيد شريف المولد ، ولى جده القضاء بالبيرة وادارة الشرطة بقرطبة أيام الحكم الثانى (١٨) وكان الى جانب ذلك مثالا للفارس العربى حتى لقد نسب اليه معاصروه الصفات العشر التى ينبغى أن يتحلى بها الرجل الكامل ألا وهى الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والقوة الجثمانية والطعن والضرب والرماية ، وكان هو العربى الوحيد الذى يخشى ابن حفصون لقاءه فى ميدان القتال ، وحدث فى ذات يوم قبل بدء المعركة أن عمد سعيد الى دعوة ابن حفصون للمبارزة فلم يجرؤ ابن حفصون ــ رغم شجاعته ــ على منازلته ٠

وحدث فى مرة أخرى أثناء القتال أن وجد سعيد نفسه فجأة وجها لوجه أمام ابن حفصون الذى حاول أن يتجنبه ، غير أن سعيدا أحاطه بذراعه وبطحه أرضا وكاد أن يقضى عليه لولا أن تكاثرت عليه جماعة ابن حفصون ولم يمكنوه منه ٠

وكان سعيد أرق الناس وأظرفهم، كما كان أبسل الفرسان، ولم يكن هناك من يدانيه فى تقدير الصوت الجميل أو اللحن الرائق ٠

وحدث فى ذات يوم أن قدم الى قرطبة ــ وقت سلطنة محمد ــ ومر أمام قصر الأمير عبد الله حين صافح سمعه غناء شجى من جارية وهو يتصاعد من الطابق الأول المطل على الشارع ، أما المغنية فهى « جهان » الجميلة وكانت اذ ذاك مع مولاها تصب الخمر له وتغنيه ، فأحس سعيد بشىء لا يقاوم يجذبه اليها ، فوقف فى أحد الأركان يستمع فى هدوء دون أن يستلفت انتباه المارة وقد علقت عيناه بالنافذة ، وأصاخ بسمعه ، واستغرقته النشوة ، وتحرق شوقا لمطالعة وجه المغنية ، وطال لبثه ووقوفه حيث هو ، واذا به يلمح فى النهاية يدها البيضاء الصغيرة وهى تناول الأمير الكأس ولم ير شيئا سوى ذلك ، غير أن هذه اليد البضة الفاتنة وهذا الصوت الشديد العذوبة القوى البيان كانا كافيين وحدهما لأن يخفق قلب الشاعر فى قوة وأن يلهبا رأسه ٠

لكن وا أسفاه ٠

كان هناك حاجز لا يمكن تخطيه يفصل بينه وبين من يحب ، فلما فقد الأمل حاول تغيير مجرى عاطفته فدفع مبلغا جسيما من المال ثمنا لأجمل

جارية وجدها وسماها « جيهان » ، وعلى الرغم من المحاولات التي قامت بها هذه الفتاة لارضاء فارسها الجميل الا أنها لم تستطع أن تنسيه سميتها، فقال (١٩) :

سـمعى أبى أن يـكون الروح فى بدنى
فاعتاض قلبى منـه لوعـة الحزن
أعطيت « جيهـان » روحى عن تذكرهـا
هذا ولـم أرها يوما ولـم ترنى
كأننى واسـمها والدمع منسـكب
من مقلتى : راهب صلى الى وثن

الا أن سعيدا لم يبق طويلا على ذكرى جيهان الجميلة ، ولما كان ماجنا متقلبا لا يضـجره التنقل من لذة الى أخرى فلم يكن يقيم منزلـة للعواطف الكبيرة ولا يعشق الأحلام الافلاطونية ، تشهد بذلك أبياته التى لا يذكرها المؤلفون العرب الا مقرونة بقولهم « سامحه الله » :

لا شىء أملـح من سـاق على عنق ... ومن مناقلـة كاسـا على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ... ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى طموح فى الصبا طلق ... وما خرجت لصرف الدهر عن طلقى
ولا انثنيت لداعى الموت يوم وغى ... كما انثنيت وحبل الحب فى عنقى

وبذلك نسى جيهان حين أسرته فاتنة جديدة فى قرطبة ، اذ ما كادت تدخل مسكنه حتى خفضت ناظريها حياء فانطلق سعيد يقول لها .

أمائلة الالحاظ عنى الى الأرض ... أهذا الذى تبدين ـ ويحكـ من بغض؟
فان كان بغضا لست والله أهله ... ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض

***

كان سعيد بلا شك أبرز مثل للأرستقراطية وان تكن له صفات سوار الخشنة الذى كان موته صدعا لا يمكن رأبه ، كما يرجع الفضل فى تمكن العرب من لم شعثهم تحت قيادة سعيد الى حكمة سوار الذى أعاد تشييد الحصون الرومانية العدة التى أوشكت على الاندراس مثـل حصن « منتسة » و « بزة » .

غير أنه على الرغم من أن العرب لم يعودوا لمحاربة السلطان لاعترافه بسعيد الا أنه لم يقدر لهم الانتصار بعدئذ على الاسبان ، أما المؤرخون المسلمون فان امساكهم التام عن الخوض فى حملات سعيد يدفعنا للاعتقاد

بفشلها ، ويحملنا على اليقين بأن « البيرة » خضعت مدة لسلطانه ، فقد حدث أن دخل المدينة ومثل أمامه « البعلى » الشاعر الأندلسى وامتدحه بشعر قاله فيه ، فأكرمه سعيد ، فلما غادر الشاعر مجلسه صاح به أحد العرب « أتجيزه وقد نسيت قوله » :

قد انقصفت قناتهمو وذلـوا   وضعضع ركن عزهمو الأذل

وسرعان ما أربد وجه سعيد واتقدت عيناه غضبا وقال لأحد أقارب يحيى بن صقالة : « امض وراءه فارمه فى بئر مجهولة » ·

وسرعان ما نفذ الأمر (٢٠) ·

***

الفصل الثالث عشر

قلة عدد العرب في اشبيلية أدت الى زيادة نفوذ المحليين • مولدو اشبيلية يربطون وجودهم بالسلطان ويخشون عرب الريف وحدهم • القول في بني حجاج الذين يرجع أصلهم الى غيطشة ، وبني خلدون اليمنيين • استفحال بأس كريب في كورة الشرف ومحاولته اثارة الناس وبعض الأمراء المحليين لفصل اشبيلية عن السلطان • استجابة بعض البربر له • البربر ينهبون اشبيلية فيثيرون مطامع ابن مروان صاحب بطليوس • ثورة الاشبيليين على واليهم لعجزه عن رد عدوان ابن مروان • السلطان يعزل والي اشبيلية ويعين الطمشكة فيقطع الطريق بين اشبيلية وقرطبة • محمد بن غالب يتصدى للطمشكة • المتذمرون يتهمون ابن غالب بمواطأة ابن حفصون سرا • ارسال السلطان ولده محمدا لتقصي الوضع في اشبيلية • عجز محمد عن الفصل في المنازعات الداخلية • غضب بني حجاج وبني خلدون من موقف محمد المتردد • كريب وعبد الله بن حجاج يهاجمان حصون خصومهما • علوج اشبيلية يغضبون من السلطان لشرائه مودة بني حجاج بقتله ابن غالب • الثورة تعم الكورة • ابن حفصون يسعى لدى السلطان ليسلمه جعدا الذي يخاف فيهرب • انتقام أمية من مولدي اشبيلية لمصرع اخوته •

الفصل الثالث عشر

المولدون فى اشبيلية

فى الوقت الذى انصرف فيه سكان ألبيرة لمحاربة الارستقراطية العربية جرت فى اشبيلية أحداث بالغة الخطورة (١) ٠

لم يكن الحزب القومى قويا فى أية ولاية قوته فى اشبيلية التى كانت منذ أيام القوط مركز العلوم والحضارة الرومانية ومقر أنبل الأسرات وأثراها (٢) ولم يحدث الفتح العربى أى تبديل فى النظام الاجتماعى فلم يستقر فى المدينة الاثلة قليلة من العرب لايثارهم الريف عليها ، ومن ثم كانت جمهرة السكان من أحفاد الرومان والقوط الذين أثروا عن طريق الزراعة والتجارة ، فكانت هناك سفن عدة تقوم من وراء البحار ميممة شطر أشبيلية التى كانت تعد من أحسن موانى أسبانيا فتحمل ما تجود به أرضها من القطن والزيتون والتين (٣) ، كما نبذ معظم الأشبيليين المسيحية منذ زمن بعيد وأقاموا لأنفسهم مسجدا جامعا زمن عبد الرحمن (٤) الثالث ، بيد أن أخلاقهم وعوائدهم وطباعهم بل وأسماء عائلاتهم كانت لا تزال تشير الى أصلهم الأسبانى ، ففيهم (٥) بنو « أنجلين » وبنو « شبرقة » ٠

اتسم هؤلاء الأعلاج على وجه العموم بالهدوء ولم يناصبوا السلطان العداء بل كانوا يعدونه المحافظ الطبيعى على النظام ، بيد أنهم كانوا يخشون العرب ، ولا نقصد بهم عرب المدينة الذين صرفتهم مباهج الحياة والحضارة عن الاكتراث بالنزاع القبلى أو الجنسى بل كانوا يخشون عرب الريف الذين ظلوا محافظين على أخلاقهم البدوية وميولهم الوطنية القديمة التى سيطرت عليهم منذ زمن سحيق ، والذين كانوا على استعداد للوثوب على الاسبان الأثرياء وسلبهم وقتلهم متى مكنتهم الظروف من ذلك ، أو متى طلب اليهم زعماؤهم القيام بهذا العمل ، يدفعهم اليه غيرتهم منهم وحقدهم عليهم ، واشتد الخوف من عرب « الغرب » على الخصوص ، وآمن الاسبان بنبوءة قديمة تزعم أن هناك نارا تهب من ناحية كورة « الشرق » فتجتاح

المدينة (٦) ، ومن ثم أعدوا عدتهم على ألا تقع أشبيلية فى قبضة أبناء فتاك الصحراء ، وآلوا ألا يكون نهبها على أيديهم ، وهم الذين ينقسمون الى اثنى عشر فريقا لكل زعيمه ولواؤه ودار سلاحه ، وتحالفوا مع عرب اشبيلية ومع « البتر » من البربر من أهل كورة « مورور » .

كان من بين الأسر العربية البارزة التى تنزل الولاية أسرتـان لهما الصدارة على الجميع هما بنو حجاج وبنو خلدون ، وعلى الرغم من عروبة الأسرة الأولى وميولها الا أنها ترجع أصلا الى زوجة « غيطشة » آخر ملوك القوط الذى تزوجت احدى حفيداته ـ واسمها سارة ـ مرة ثانية من شخص يدعى «عميرا» من قبيلة لخم اليمنية فانجبت له أربعة أولاد تفرعت منهم أسر كثيرة من أغناها « بنو حجاج » الذين ترجع ثروتهم الى ما كانت تملكه « سارة » من أراض شاسعة فسيحة فى « شنند » . ويشير أحد المؤرخين العرب ـ وكان هو الآخر من نسل سارة وغيطشة ـ الى أنه كان لعمير أبناء من نسوة أخريات ، لكن لم يتأت لأحد منهم منافسة أبناء سارة (٧) .

***

أما الأسرة الثانية فهى أسرة بنى خلدون اليمنية الأصل التى انحدرت من احدى قبائل حضرموت وتقوم أملاكها فى كورة « الشرف » ، وقد احترف أفراد هذين البيتين العظيمين فلاحة الأرض والجندية والتجارة والملاحة ، وجرت عادتهم على الاقامة فى حصونهم (٨) ، وان لم يمنعهم ذلك من التردد على المدينة بين حين وآخر حيث تقوم قصورهم .

وفى مستهل حكم عبد الله كان « كريب » ـ شيخ أسرة بنى خلدون ـ وهو رجل طماع غدار ، قد جمع فى ذاته كل صفات زعيم الحزب من اخلاصه لتقاليد جنسه وكراهيته للحكم الملكى ورغبته فى أن تسترد طبقته نفوذها الذى سلبه الأمويون منها ، فحاول فى بادىء الأمر اضرام الثورة فى المدينة نفسها بأن تحدث مع من بها من العرب محاولا ايقاظ حب الاستقلال فى نفوسهم لكنه لم ينجح فى محاولته هذه لأن هؤلاء العرب الذين كانوا فى الغالب رجال صدق من قريش أو من موالى الأسرة الحاكمة كانوا ملكيين ، أو بمعنى أدق من الفريق الذى لا يزال يسمى الى اليوم بفريق « المستقلين » ، وغاية ما يتطلعون اليه هو أن يعيشوا فى وفاق مع الجميع وألا تضطرب أعمالهم ولا هدوؤهم ، ومن ثم لم يعطفوا قط على كريب الذى لم يؤد ما طبع عليه من روح المغامرة وما يعتمل فى صدره من طمع ومخالفة للنظام الا الى اثارة الكراهية العميقة نحوه والخوف الشديد منه ، فكان اذا حدثهم عن الاستقلال أجابوه بأنهم كارهون للفوضى وعدم النظام ، كما أنهم لا يريدون أن يكونوا آلة لتحقيق مطامع الغير ، وأنهم ليسوا فى حاجة لآرائه الفطيرة وأفكاره الخاطئة .

فلما رأى كريب أنه قد أضاع وقته عبثا فى المدينة انكفأ الى كورة «الشرف» حيث تيسر له الأمر فى اثارة أبناء عشيرته فوعدوه بحمل السلاح عند أول اشارة تبدر منه اليهم ، ومن ثم كون عصبية أشرك فيها بنى حجاج وزعيمين يمنيين وآخر من « لبلة » وغيره من « شذونة » وزعيم بربر البرانس فى قرمونة ، وكان هدف المتحالفين فصل أشبيليـة عن السلطان ونهب الأندلسيين ·

أما أشراف اشبيلية الذين لم يستطيعـوا ـ نظرا لبعد المسافة ـ الوقوف على أعمال كريب كما كان ذلك ميسرا وهو بينهم فقد جهلوا كل شيء يتعلق بالمؤامرة التى يدبرها اللهم الا ما كان يتناهى الى سمعهم بين حين وآخر من الأنباء الغامضة ، لكنهم لم يعرفوا على وجه التحديد شيئا مؤكدا ولم يجل بخاطرهم أبدا أنها مؤامرة شديدة الخطورة ·

أراد كريب قبل كل شيء أن ينتقم ممن رفضوا الانصات اليه ، كما أراد أن يسوق اليهم فى الوقت ذاته الدليل على عجز السلطان عن الدفاع عنهم ، فأسر الى بربر « ماردة » و « مدلين » أن ولاية أشبيلية تكاد تكون خالية من الجند ، وأنها ستكون لهم نعم الغنيمة ان أرادوا ذلك ، ولما كانوا على اســتعداد للسلب فسرعــان ما زحفت عليها جموعهــم واستولوا على « طلياطة » (٩) وخربوها وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وأسروا أطفالها، فما كان من والى أشبيلية الا أن دعا الى حمل السلاح كل قادر على حمله وخرج لصد البربر ، غير أنه علم أثناء زحفه باستيلائهم على « طليطلة » ، فعسكر على نجد مرتفع يعرف بجبل الزيتون ، ولم يكن بينه وبين العـدو سوى ثلاثة أميال ، وتأهب الجانبان لمعركة الغد ·

كان كريب قد انضم بجماعته ـ كما انضم غيره من الأشراف ـ الى جانب الاسبان ثم اهتبل فرصة الليل فأخبر البربر بأنه سيسهل عليهم النصر حين يشتجر القتال اذ سوف يركن ومن معه الى الفرار ، وقد أوفى بعهده لهم وتبعه فى هربه كل جيشه ·

أما البربر فقد تتبعوا الحاكم الذى لم يتوقف عن الفرار الا حين أدرك قرية « وبر » فتحصن بها وكانت على مسيرة خمسة فراسخ من أشبيلية ولم يبذل البربر أدنى محاولة للتشديد عليه فى هذا المكان بل عادوا الى «طليطلة» وأقاموا فيها ثلاثة أيام أضرموا خلالها النار فى جميع النواحى ، وأهرقوا الدماء ثم رجعوا الى معسكراتهم محملين بالأسلاب الوفيرة ·

أصيب الأشبيليون بعد هذه الغزوة المروعة (التى قضت على عـدد كبير من الملاك) بلطمة جديدة يقع وزرها على كريب الخائن ، اذ قام أحد المولدين من تلقاء نفسه بتحقيق مشاريع كريب ، وكان هذا العلج من زعماء الجنس المعادى واسمه « ابن مروان » صاحب بطليوس ، ذلك أن رؤيته

عودة جيرانه الى ماردة محملين بالغنائم الوفيرة دفعه لأن يفكر فى الهجوم هو الآخر للحصول على نصيب من الغنيمة ، ولم يكن فى ذلك مخطئا ، ومن ثم زحف على أشبيلية حتى صار على مسيرة ثلاث مراحل منها ، واستمر ينهب جميع ما حولها بضعة أيام متتاليات ، عاد بعدها الى « بطليوس » وقد هدأت غيرته من بربر « ماردة » .

رأى والى أشبيلية الغزاة الغلاظ يخربون ارضه فلم يحرك ساكنا ، فغضب الأشبيليون من مسلكه هذا ومن السلطان الذى أنصت ـ والحق يقال ـ لشكواهم فعزل ذلك الوالى المقصر فى أداء واجبه وخلفه آخر لم يكن ثم ما يعيبه لكن كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لتوطيد النظام فى الولاية والضرب على أيدى اللصوص الذين كثروا بها كثرة مخيفة .

***

كان أخطر هؤلاء اللصوص بربرى من برانس « قرمونة » اسمه « الطمشكة » عمد الى مهاجمة المسافرين فى الطريق الكبير الواصل بين أشبيلية وقرطبة وسلبهم ما معهم ، ولم يستطع حاكم أشبيلية ـ بل ولم يجرو ـ على اتخاذ شىء ما ضده ، واذ ذاك قام مولد شجاع من أهالى « استجة » واسمه محمد بن غالب فوعد السلطان بالقضاء على هذه العصابات ان أذن له السلطان ببناء حصن قرب قرية الأبراج السبعة شانت طرش Siete Torres الواقعة على حدود أشبيلة واستجة ، فقبل السلطان طلبه فشيد الحصن واستقر فيه « ابن غالب » مع عدد كبير من المولدين والموالى الأمويين وبربر البتر ، ولم يلبث قطاع الطرق أن أدركوا أنهم يواجهون عدوا أشد مراسا من حاكم أشبيلية .

ورفرفت الطمأنينة من جديد .

لكن حدث ذات صباح ـ والشمس لم تزل فى خدرها ـ أن ذاع الخبر فى أشبيلية أنه جرى أثناء الليل نزال بين حامية حصن ابن غالب من جانب وبين بنى حجاج وبنى خلدون من جانب آخر ، وأن واحدا من بنى حجاج خر قتيلا فحمل أصدقاؤه جثمانه الى المدينة ومضوا توا الى الحاكم للفصل فى القضية فأنباهم هذا الأخير بأنه لا يستطيع تحمل مسئولية البت فى مثل هذا الأمر وطلب اليهم التحدث الى السلطان ذاته .

***

وقت أن ذاع بأشبيلية خبر هذه الأحداث كان المتذمرون فى طريقهم الى قرطبة يتبعهم عن قرب بعض المولدين الأشبيليين الذين أخبرهم ابن غالب بما جرى ، فمضوا لتأييده وعلى رأسهم واحد من أبرز رجالات المدينة هو

محمد [بن عمر بن الخطاب بن أنجلين] وكان جده أول من أسلم من أسرته ، أما « انجلين » فلقب جده الأكبر ، وبقى اسم « بنو أنجلين » علما على هذا البيت ·

مثل الشاكون أمام السلطان فأذن لأحدهم بالكلام فتشكى بقوله :

« لقد اغتاله ابن غالب بطريق قرطبة ، وانه لينافق الأمير (١٠) ويواطىء ابن حفصون سرا ، وان كثرة من تجمع الى ابن غالب هم من أهل الدعارة ، وهيهات لك أن تامنه على الكورة ، فهلا أنصفتنا ممن قتلوا ابن عمنا بلا ذنب جناه ؟ » ·

فلما فرغ الرجل من كلامه تقدم محمد بن أنجلين ورفاقه بدورهم الى السلطان وقالوا له :

« لقد خرج بنو خلدون وبنو حجاج معتصمين بمحمد بن غالب ، معملين على طروقه فى حصنه ليلا رجاء انتهاز الفرصة وقص الجماعة التى حوله » ، فلما قصدوه وجدوه على استعداد وحذر فوقعت بينهم حرب قتل فيها رجل من قرابة بنى حجاج ، وقد دافع ابن غالب عن نفسه « فجنت الحرب على صاحبهم » ·

ويبدو أن الشك خالج السلطان فى الأمر ، أو لعله خشى أن يغضب أحد الفريقين ان هو وقف الى جانب احدهما ، لذلك أعلن أنه يريد مزيدا من الايضاح ، وقال انه مرسل ولده محمدا الى أشبيلية للتأكد من الموضوع ·

ما كاد الأمير الشاب ولى العهد يبلغ أشبيلية حتى استقدم اليه ابن غالب وبنى حجاج واستجوبهما ، لكنه لم يستطع أن يحق الحق لأحد الجانبين بسبب اصرار كل منهما على اتهام الآخر ، وأعوزه الشهود والعدول، وبينما كان هو فى تردده كانت فورة المشاعر تزداد تأججا وسعيرا ، وانتقل ما بين الأشراف من الغضب الى العامة ، ثم أعلن الأمير أن الحقيقة لم تنجل وأنه مرجىء الحكم الى ما بعد ، ولكنه أذن لابن غالب بالعودة فى لحظته الى حصنه ·

اعتقد المولدون بانتصارهم وأذاعوا أن الأمير رأى الحق فى جانبهم وان لم يجاهر به انكارا على نفسه أن يذهب به الأمر الى مخاصمة العرب ، وفسر بنو حجاج وبنو خلدون مسلك الأمير على نفس الصورة ورأوا أنه قد أسىء اليهم اساءة بالغة ، فصمموا على الانتقام والثورة فغادروا المدينة ·

بينما كان كريب يفرق السلاح على أتباعه الحضارمة من أهل كورة « الغرب » كان عبد الله شيخ بنى حجاج قد جمع تحت رايته لخميى

« شيند » (١١) ومن ثم رسم هذان الزعيمان الخطة التى يسيران عليها واتفقا فيما بينهما على أن يقوم كل منهما من ناحيته بالهجوم ، فيستولى عبد الله على « قرمونة » ، وفى اليوم ذاته يهاجم « كريب » حصن « قورة » الواقع على الحدود الشرقية لكورة « الغرب » بعد أن يكونا قد استوليا على قطعان أحد أعمام السلطان التى ترعى فى احدى الجزيرتين الواقعتين عند منبع الوادى الكبير •

كان كريب أعظم من أن يقوم بنفسه بتنفيذ مثل هذه الخطة فوكلها الى ابن عمه المهدى العربيد الذى لطخت مباذله أشبيلية (١٢) ، فتوجه أولا الى حصن نبريشة LIBRIYA المواجه للجزيرة حيث كان فى انتظاره سليمان صاحب الحصن وحليف كريب ، ثم نزل بالجزيرة فوجد فى المرعى مائتى ثور ومائة حصان يحرسها كلها رجل واحد ، فقتله المغيرون العرب واستولوا على الماشية والجياد وأخذوها الى قورة CORIA حيث احتلوا حصنها واطمأنوا على أسلابهم اذ وضعوها فيه •

أما عبد الله بن حجاج الذى كان يساعده بربر برانس جنيد فقد باغت « قرمونة » واستولى عليها واضطر واليها للفرار الى أشبيلية •

***

كان من أثر شدة العرب والسرعة التى اتسم بها تنفيذ خطتهم أن دب الذعر فى المدينة ، كما بادر الأمير محمد فبعث الى والده يسأله أن يمده بتعليماته وأن يوافيه على وجه الخصوص بالامدادات ، فلما تسلم السلطان كتاب ولده جمع حجابه ، واختلفت الآراء حول الخطة التى يسلكونها ، واذ ذاك طلب أحد الوزراء من السلطان أن يأذن له بمحادثته على انفراد ، فلما خلا به أشار عليه بمهادنة العرب وذلك بأن يقتل ابن غالب ، وحبب اليه ذلك الجرم بقوله : « اذا قتلت هذا العلج استألفت العرب وانصرفا الى الطاعة ، وضمنت خروجهم عن قرمونة وقورة ، وصرفوا لعمك المنذر ما أخذوه منه » •

كانت التضحية بخادم مخلص من أجل العرب والاشتباك مع الأعلاج دون الوثوق من استمالة الأعداء سياسة غادرة خرقاء ، ومع ذلك فقد رأى السلطان ضرورة الأخذ بما أشير به عليه ، وأمر مولاه جعدا ــ الذى رد سوار عليه حريته ــ أن يزحف بجنده على قرمونة وقال له : « قيد محمد بن غالب واستألف عصاة العرب جهدك ، وأثنهم عن المعصية ، فان فاءوا الى الطاعة والا فقاتلهم » •

زحف جعد على قرمونة ، وعلى الرغم مما أحيط به سيره من الكتمان الا أن الشائعة ترامت بأن الحملة تقصـد ابن غالب وليس بنى خلدون ، فاتخذ العلج [ابن غالب] الحيطة وجنح الى ابن حفصون يلتمس حمايته ، واذ ذاك تلقى رسالة من جعد يقول له فيها : « انما خرجت لغير ما بلغك ، وان قصدى حرب العرب لعظم ما أتوه ، وانك عندى من أكبر أعوانى عليهم فاستعد للمسير معى » ٠

وجازت الحيلة على ابن غالب ، وخدعه هذا الكتاب الخائن ، حتى اذا قارب جعد الحصن انضم اليـه ابن غالب ببعض عسكره ، فتظاهـر جعد بالنهوض لمحاصرة قرمونة حتى اذا بلغهـا بعث سرا الى زعيم بنى حجاج بكتاب آخر يفضى اليه بالنية المبيتة لقتل ابن غالب لقاء عودة ابن حجاج الى السلطان ، وتم الاتفاق ، وقتل جعد ابن غالب وأخلى ابن حجاج مدينة « قرمونـة » ٠

لمـا علم علوج أشبيلية بالخيـانة الدنيئة التى راح ضحيتها حليفهم كشحوا للسلطان بالعداوة وتلففوا على حنق ، وتشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، فاقترح أحدهم أن يثأروا لابن غالب بقتل « أمية » أخى جعد وكان أعظم محاربى هذا العصر وكان حاكم أشبيلية اذ ذاك ، وانعقدت النية منهم على ذلك الرأى ٠

لكنهم لما كانوا عاجزين عن القيام بأى عمل قبل الاستيلاء على المدينة فقد تكفل « ابن انجلين » بالذهاب الى الأمير وسؤاله أن يكل أمر الدفاع عنها الى المولدين ، وصمم الأشراف أن يبعثوا الرسل الى حلفائهم والى عرب كورة أشبيلية المعديين والى بربر « موررور » وأن يطلبوا منهم النهوض لمساعدتهم ٠

بينما كان هؤلاء الرسل فى الطريق مضى ابن انجلين فى رفقـة من صحابه الى الأمير محمد وقال له : « انا لا نأمن أن يكون قد عقد علينا عند الأمير أمر لا نعرفه ، ولطخنا بذنب نحن براء منه فيفجؤنا هذا الظلوم جعد وعسكره بما لا قبل لنا به ويخرج الأمر عن يدك ، فاستبقنا وطيب نفوسنا بأن تجعل حرس المدينة الينا ، ومفاتيحها بأيدينا حتى تظهر لنا ولك الأمور فنعمل بحسبها !! » ٠

ولما كان محمد فى نضال مع العرب ، وليس تحت امرته سوى حامية ضئيلة فقد أذعن مكرها لما طلبه المولدون منه ٠

امتلك المولدون المدينة فتنظروا مقدم المعديين والبربر والبتر من أهل كورة « موررور » الذين بلغوا أشبيلية (١٣) صباح الثلاثاء التاسع من سبتمبر ٨٨٩ م [= ٢ جمادى الآخرة سنة ٢٧٦] واذ ذاك هاجم جمهور غفير منهم قصر أمية ، فأسقط فى يد الحاكم ، حتى انه لم يجد وقتا للبس

نعله ، بل امتطى جواده وانطلق الى قصر الأمير ، فلما فشل الثوار فى العثور عليه دمروا قصره ، ثم اتجهوا شطر قصر الأمير وأحدقوا بـه وهم يصرخون غاضبين ، وأخذ عددهم يزداد ساعة بعد أخرى بمن انضاف اليهم من التجار والصناع والعمال ، فلما أسقط فى يد الأمير بعث الرسل على جناح السرعة الى ابن « انجلين » وابن « شبرقة » وغيرهما من أعيان القوم يلتمس منهم القدوم للمشاورة فى أنجع السبل لاخماد الثائرة ٠

كان هؤلاء الأشراف حتى هذه اللحظة واقفين بمعزل عن كل شيء ، فتشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، وتحرج موقفهم ، وخافوا ــ ان هم لبوا دعوة الأمير ــ أن يقعوا فى مكيدة تكون قد دبرت لهم ، كما خافوا ان هم رفضـوها أن يتهموا بمواطأة الثوار وذلك أخشى ما يخشونه ، فقلبوا الأوضاع على شتى وجوهها ، ثم استقر رأيهم على المضى الى الأمير بعد اتخاذ الحيطة ، فلبسوا الدروع تحت الثياب ووضعوا ــ قبل دخولهم القصر ــ جماعة من الأشبيليين المسلمين وجنـد « مورو » خلف الباب وقالوا لهم « متى أذن الظهر ولم نخرج اليكم اهجموا فى القصر وأخرجونـا » ٠ ثم مضوا للقاء الأمير الذى أكرم وفادتهم ، وبينما هم يتحدثون اليه عيل صبر رجالهم الذين بالباب واحتك الشك فى صدورهم ، ففتحوا البـاب قسرا وانطلقوا أولا الى مرابط الجياد فاستولوا على ما فيها من الخيول والبغال ، ثم مضوا الى بـاب « الفصيل » الموجود فى الطـرف الآخر من البهو تجـاه المدخل ، وهنا وجدوا مقاومة عنيفة لم يكونوا يتوقعونها مطلقا ، فقد كان هناك « أمية » ٠

حين سمع هذا البطل المقدام صياح الثوار فى مرابط الخيل أمسك بابن انجلين ورفاقه ثم وضع خدمه الخـاص وخدم الأمير على مدخـل باب « الفصيل » ورتب أكواما من القذائف ، فلما اقترب العلوج وحلفاؤهم من هذا الباب تلقاهم القوم بالأحجار والأثاث يقذفونهم بها ، وعلى الرغم من كثرة عـدد الرمـاة الا أن خصومهم كانوا فى مكان منيـع ، وتحمس المدافعون عن القصر اذ رأوا أمية ، فقد أثارهم منظره وعنايته بالأمر رغم جروح رأسه وصدره الدامية ، وصمموا أن يبيعوا حياتهم غالية ، وكأن اليأس قد أمدهم بقوة فوق طاقتهم ٠

استمر القتال من الظهر حتى انحدرت الشمس للغروب وأقبل الليل لعرس المتقاتلون فى البهو ثم عاودوا النزال فى الصباح ٠

لكن ما الذى فعله الملكيون محبو النظام الذين كان واجبهم يقتضيهم أن يهبوا لنجدة الحاكم ؟ ٠

لقد كانوا مخلصين لشعارهم « كل وشأنـه » ، وأذعنوا للأمر الذى لا مناص لهم منه والذى يفرض على المستضعفين فرضا ، فبقوا حيث هـم وأغلقوا بيوتهم عليهم ، وتركوا معالجة الموقف للحاكم يتصرف فيه بما يراه ، وليس من شك فى أنهم كانوا يتمنون له الخير وأن قلوبهم كانت معه ، الا أنهم لم يبلغوا بعد الدرجة التى يخاطرون فيها بحياتهم لانقاذه ، ومع ذلك فقد قاموا بشىء من العمل ، اذ ما كادت الفتنة تندلع حتى أنفذوا الى « جعد » من يخبره بالخطر المحدق بأخيه وبالأمير ، والواقع أن هذا العمل لم يشق عليهم كثيرا ، وأدركوا أنه لابد من نجاح جعد فى القضاء على الثورة لو أنه بكر فى الوصول .

لم يكد جعد يعلم بما جرى فى أشبيلية حتى خف للزحف عليها بمن استطاع جمعـه من الفرسان وفى صباح ١٠ سبتمبر ٨٨٩ م [= ١٢ جمادى الآخر سنة ٢٧٦ هـ] عاد القتال من جديد فى بهو القصر ، ثم أهل جعد من ناحية الجنوب فحاولت جماعة من المولدين أن تسد عليه الطريق فمر على جثثهم ، ودخل الربض الذى يسكنه « عبد الله بن الأشعث » القرشى الملكى الذى قص عليـه فى ايجاز سير الأمور ، فصاح القائد بجنـده أن يسرعوا ، ثم كر على الجماعة والسيف فى يده ، فثبت له الأشبيليون ونفق حصانه من تحته ، وتقهقر فرسانه ، فحاول ارجاعهم للقتال ونادى كلا منهم باسمه ، وسألهم الثبات ، فعاود أشجعهم ممن معه الكرة ، وآثروا مهاجمة الزعماء ورمى القائد نفسه على واحد من أبسل الأشبيليين فقتله (١٤) ، وحينـذاك دبت الفوضى فى صفوفهم ، فتقهقر البعض ، وتعثر الآخرون ، وتدافع بعضهم بالمناكب ، ومن ثم خاف الفرسان كرهم ولم يلبث الأشبيليون أن تفرقوا أيدى سبا .

استبدت الفرحة بجعد فانطلق الى القصر وضم أخاه الى صدره ، وقبل فى احترام يد الأمير ، وحمد لله على سلامته ، فقال له أخوه : « لقد كنت بآخر رمق ، لا نشك فى حلول الحمام ! » .

فقال الأمير محمد « أجل ، والله ما كنا نشك فى حلول الحمام ، امض فانتهب دور العصاة بالحاضرة وأخرج الخبيث محمد بن خطاب وأصحابه من حبس أمية فاضرب رقابهم أجمعين ، وحز أموالهم » .

***

بينما كان هؤلاء التعساء فى طريقهم الى الموت كانت أشبيلية تشاهد منظرا مروعا اذ أن فرسان جعد الظامئين الى الانتقام والطامعين فى الغنيمة أخذوا يفتكون بالهاربين وينهبون دورهم ، وشاء حسن طالع المولدين أن يكون بينهم وبين موالى أشبيلية الأمويين ما يسمونه بحلف الجوار ، فطلب

هؤلاء الموالى من أبناء جلدتهم مساعدتهم على كف الأيدى عنهم فأجابوهم الى ما طلبوا ، ثم لم يلبث السلطان ذاته أن أصدر أمانا عاما ، ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة الا تأهبا لقتالهم ، وأدرك المولدون أن نهايتهم قد دنت ·

***

عندما عاد الأمير محمد الى قرطبة مع جعد وجنده جاءت رسل ابن حفصون لذى ظل حتى هذه اللحظة مسالما للسلطان يسألونه أن يسلمهم جعدا لقتله ابن غالب حليف سيدهم ·

فخاف السلطان أشد الخوف من بأس ابن حفصون الخطير ، حتى ان جعدا — الذى لم يفعل غير تنفيذ أوامر مولاه — لم يأمن أن يضحى به سيده من أجل خاطر كبير العلوج ، فلم يجد سوى الهرب سبيلا لدفع الخطر المحدق به ، ومن ثم غادر العاصمة متسربلا بالليل ولاذ بأخيه حاكم أشبيلية واستصحب معه أخويه هاشما وعبد الغافر وبعض الأصدقاء ، وكان من بينهم اثنان من القرشيين ، وكذلك خذ معه خدمه وعبيده ، وصاقب الشاطىء الايمن لنهر الوادى الكبير هو وفرسانه ، حتى اذا كان الصباح الباكر صاروا على مقربة من حصن شنت فيلة Sieta Filla فطلبوا الاذن لهم بالتريث قليلا للاستجمام ، فاجيبوا الى ما سألوا ·

غير ان سو طالعهم أبى الا أن تكون عصابة « الطمشكة » البربزى تجول فى هذه النواحى فى تلك الساعة وفيها أخوه ابن غالب ، فلاحظوا قدوم الفرسان الى الحصن وعرفوا جعدا فاضطرمت نفوسهم للثأر منه لقتل أخيهم ، فسهلوا على زعيمهم أمر الاستيلاء على المطايا التى خلفها الفرسان خارج الحصن ، وسرعان ما كر رجال الطمشكة واستولوا على الجياد ، وانتبه جعد ورفاقه على صرخات الخدم فهبوا والسيوف فى أيديهم فلم يستطيعوا زحزحة رجال العصابة الذين استبسلوا فى القتال ، ومكنتهم كثرتهم من قتل جعد وأخويه وواحد من القرشيين الذين كانوا بصحبته ·

كان لهذا الحادث عواقب وخيمة على مولدى أشبيلية ، اذ صب عليهم أمية جام غضبه انتقاما لمصرع اخوته الثلاثة بعد أن عجز عن معاقبة المجرمين الحقيقيين ، فأسلمهم اذ ذاك الى بنى خلدون وبنى حجاج الذين استدعاهم الى المدينة ، وأباح لهم قتل الأسبان — مسلمين كانوا أم نصارى — أنى ثقفوهم ، وسواء أكانوا فى أشبيلية أم فى قرمونة أم فى غيرهما من القرى والضواحى ، وحينذاك جرت مذبحة شنيعة فقد دفع الغضب اليمنيين الى قتل آلاف من الأسبان ، وفاضت الشوارع بأنهار من الدماء المطلولة ، وطوت أمواج الوادى الكبير من ألقى بنفسه فيها هربا من السيف ، ولم يبق على قيد الحياة — بعد هذه النكبة الفضيعة — سوى شرذمة قليلين من الأسبان : أصبحوا سملقين بعد أن كانوا القمة فى الثراء ·

وبقيت ذكرى هذه الحادثة الدموية أمدا طويلا ماثلة فى أذهان اليمنيين ، كما بقيت فى نفوسهم الضغينة على أعدائهم رغم زوالهم بالقتل ، وكان المنشدون فى بيوت السادة أو فى قرى كورة « الغرب » أو « شند » يجعلون مدار أناشيدهم هذه المأساة القاتمة الألوان التى نرويها ، وكانت عيون اليمنيين تتقد حفيظة وحقدا ، ولا يملون سماع مثل هذه الأبيات :

أبدنا بالسيوف بنى العبيد ... فراحوا هامدين على الصعيد

قتلنا منهمو عشرين ألفا ... فقللنا الكثير من العديد

سوى من مات [مقتولا] وغرقى ... بنهر زاخر الأمواج ، مودى

بنو قحطان للأذواء تنمى ... وينمى العبد منهم للعبيد

كلاب فى ثياب الروم رامت ... تغاور فى العرين حمى الأسود

فراش الناس وانتعشوا ، وحلوا ... وقودا فى الجحيم على ثمود

الفصل الرابع عشر

الآثار السلبية المترتبة على نكبة مولدى اشبيلية • مهاجمة اليمنيين للقصر • تأزم موقف أمية ومصرعه • أطماع كل من العرب والبربر والنصارى والمولدين فى البلد • وقوع بعض القلاع الهامة فى أيدى المتمردين • مهادنة الأمير عبد الله لابن حفصون • ابن حفصون يخدع السلطان فى محاربته ابن مستنة•ويجاهره بالعداء • تحول النصارى من الاستشهاد الى المقاومة • موقف الكونت « شربند » ثم مصرعه • استيلاء ابن حفصون على بعض القلاع الهامة ومفاوضته ابن الأغلب والى افريقيا ليكون رسوله عند الخليفة العباسى•ضعف السلطان• واعتزامه الخروج لمحاربة ابن حفصون •

الفصل الرابع عشر

ولاية عبد الله الحكم

لم تجد السلطان نفعا نكبة أعلاج أشبيلية بل عـادت بالكسب على الأرستقراطية العربية، فقد سيطر على الولاية بنو خلدون وبنو حجاج ، وكان الحزب الملكى أضعف وأجبن من أن ينازعهم النفوذ ، بل انه لم يحـاول ذلك أبدا ، وكان أمية وحده هو الذى نهض بتلك المحاولة فبذل كل جهوده لبذر الفتنـة بين بربر « جنيد » وبين عبد الله بن حجاج اللذين تقاسما « قرمونة » فيما بينهما ، كذلك حاول أميـة أن يفسد ما بين « كريب » وجماعته وأن يستميله الى جانبه بالعهود المغرية يبذلها له ويمنيه بها ، كما اتخذ نفس الاجراءات للتخلص مرة واحدة من أولئك اليمنيين الخصوم ، لكن لم يكتب له النجاح فى شىء ما مما أقدم عليه ، ومع أنه دفع « جنيدا » لقتل عبد الله الا أن ذلك عاد عليه بالضرر أكثر مما عاد عليه بالنفع ، فقد قدم بنو حجاج عليهم ابراهيم [بن حجاج] بعد موت أخيه عبد الله ، وكان ابراهيم رجلا موهوبا تشأو هيبته هيبة [شقيقه] عبد الله ، وعلى الرغم من تظاهر كريب بسماع مقترحات أمية التى عرضها عليه الا أنه كان أدهى من أن يخدع ، وبذلك حبط مشروع أمية الكبير الذى دبره للقضاء عن اليمنية ، وقد دفعته الرغبة فى تنفيذ تلك الخطة لبناء سور أحاط بالناحية الموجود بها القصر والجامع ، وأعلن قصر هذه البقعة على الحامية وحدها لا يشاركها فى الاقامة سواها ، ومن ثم أدرك العرب أنهم ملاقون القتل عما قريب وهم داخلون المسجد أو صادرون عنه ، وسيكون مقتلهم على يد شرطة الحاكم فاحتاطوا للأمر قبل أن يعد أمية له عدته ، اذ استعانوا بالقوة فى منع الفعلة من اتمام ما يقومون به من البناء ، فامسك أمية بالمشاغبين وأخذ منهم الرهائن ليجبرهم ــ هم وجماعتهم ــ على الخضوع له ، فلم يغنه ذلك كثيرا .

ولما أدرك الممنون ان خوفه من تمرد القوم عليه وعلى أسرته سيمنعه من أن يمس رهائنه بأذى فقد اغتنموا فرصة خروج معظم الجند للبحث

عن المئونة وهاجموا القصر ، فبادر أمية الى اعتلاء السطح مع الجند القلائل الذين ظلوا ملازمين له وراح يقذف المهاجمين جاعلا الرهائن فى المقدمة ومهددا بقتلهم ، فسخر الثوار منه ذاكرين له أن لهم حقا غير منكور فى الا يكونوا فى مؤخرة الركب بعد أن طرحت جميع الولايات عنها نير السلطان وقالوا له : « ان مذهبنا ملك بلدنا على السلطان على ما فعله سوانا من أهل الكور ، فاذا صح له ارتجاع كورة واحدة ممن خرج عنه كنا نحن أستوة الناس » ، وأفهموه أيضا أن ليس أمامه سوى سبيل واحد ألا وهو الرحيل· فان ارتضاه كفوا عنه أذاهم ·

ورغم كبرياء أمية وعناده الا أنه طأطأ أمام هذه الظروف وقطع العهد على نفسه للثوار بمغادرة المدينة ان هم أقسموا بالمحافظة على حياته ، وحينئذاك اعتلى كريب وابراهيم وثلاثة من الزعماء عتبة الباب الشرقى للجامع ، وأقسم كل منهم خمسين(١) مرة ألا يمس أمية بسوء قط ، وأن يوصلوه سليما الى حيث شاء ، فلما فرغوا من ذلك رد أمية عليهم رهائنهم ، وكان — وهو فى مكانه هذا — يسمعهم ويراهم ، لكنه لم يعجل بالرحيل فقد خجل أن يتهم بالضعف ، حتى اذا ظن أن الخطر قد زال حاول استرداد سلطته ، فلم يلبث العرب أن عاودوا النضال ، وأخطأ أمية خطأ قاتلا حين أبى أن يتنازل مرة أخرى فنقل نساءه وعقر جياده وأحرق كل ثمين فى حوزته وكر على أعدائه واستبسل فى قتالهم حتى خر صريعا ·

❊❊❊

اشتد ساعد اليمنيين منذ ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا يعرفون أنه لم تحن بعد لحظة التحرير التام من سيطرة السلطان الذى كتبوا اليه يخبرونه بقتل أمية لتمرده على الحكومة ولما كان السلطان عاجزا عن معاقبتهم فقد قبل زعمهم العجيب وبعث اليهم حاكما آخر أصبح ألعوبة فى يدى كريب وابراهيم ، وعلى الرغم من استسلام الحاكم الجديد لهذين الطاغيتين وتوجيههما اياه كيفما شاءا الا أنهما دأبا على مضايقته والجور عليه بشتى الوسائل ، فقترا عليه حتى فى أتفه النفقات ، وحينئذاك ظن السلطان ان ربما كان من الخير تغيير هذا الحاكم بآخر ، كما أرسل فى الوقت ذاته عمه هشاما الى أشبيلية دون جيش يعاونه ، فبقيت قوة اليمنيين على ما هى عليه من البطش والبأس ، وتبين ذلك بجلاء لكل من الحاكم وهشام الذى كان له ابن اسمه « المطرف » وكان شابا فاسقا عربيدا اتصل باحدى نساء المهدى الذى ترصد له ليلا — حين علم بالأمر — وطعنه بخنجره طعنة أردته صريعا ، فلما علم هشام بالخبر تريث حتى طلع الفجر فذهب الى حيث سجي ابنه اذ خشى أن يلقى هو نفس ما لقيه ولده ان خرج تحت جنح الظلام ، وكان لابد من معاقبة القاتل ، ثم لم يلبث أن وقعت فى يد بنى

خلدون رسالة كان الحاكم قد بعث بها الى السلطان يستعديه للانتقام لمصرع المطرف ووضع حد لهذه الفوضى ، فأطلعوا الحاكم عليها وأوسعوه تأنيبا وتهديدا ، ثم زادوا فألقوه فى الحبس بضعة أيام (٢) .

***

على هذه الصورة كانت حال أشبيلية عام ٨٩١ م [= ٢٧٨ م] وهى السنة الرابعة من ولاية عبد الله التى تحرر فيها معظم أسبانيا الاسلامية من الخضوع للسلطان ، وتطلع كل أمير من العرب والبربر والأسبان الى نيل نصيبه فى تركة الأمويين ، وكان نصيب العرب منها أقل الأنصبة عامة لانعدام شوكتهم الا فى اشبيلية ، أما فيما عداها من النواحى فكانوا أضعف من محاولة الجنسين الآخرين ومطاولتهما ، وكان فيهم كثيرون أمثال [اسحق بن ابراهيم] بن العطاف (٣) [العقيلى] صاحب « منتسة » و [المنذر بن ابراهيم بن محمد] بن السليم (٤) صاحب مدينة سالم فى كورة شذرونة ، وابن الوضاح صاحب « لورقة » ، و [أبى يحيى محمد ابن عبد الرحمن التجيبى] الأنقر (٥) حاكم سرقسطة ، وكان هؤلاء جميعا لا يستجيبون لتنفيذ أوامر السلطة الحاكمة الا اذا شاءوا ، ومع ذلك فانهم لم يجاهروها بالعداوة بل حاولوا — جهد طاقتهم — مسالمتها شعورا منهم بضعفهم ازاءها .

أما البربر الذين عادوا الى حكومتهم الأولية — أى الى تسويد زعماء القبيلة — فقد كانوا أشد القوم بأسا وأعنفهم شراسة ، فاستولى « الملاحى » (٦) — وكان جنديا بسيطا على قلعة جيان ، كما استولى الأخوان خليل وسعيد [أبنا المهلب] — وكانا من أسرة عريقة المحتد — على حصنين فى مقاطعة « ألبيرة » (٧) . كما كان للبربر السيادة التامة فى الولايتين اللتين لا تزالان تسميان الى اليوم « استراما دورا » و « الجنتو » .

وحكم بنو « فرانق » فى قبيلة « نفزة » المقيمة فى ضواحى « ترجيلة » (٨) ، كذلك قام بربرى آخر اسمه « ابن تاكيت المصمودى » فى « استامادورا » وأعلن العصيان بها أيام محمد ، ثم استولى على ماردة وطرد منها كلا من العرب وبربر كتامة .

كان « ابن تاكيت » هذا فى حرب متصلة ضد ابن مروان صاحب بطليوس الذى لم يغفر له ما قدمه من مساعدة لجند السلطان ضده حين محاصرته (٩) « ماردة » ، غير أن أقوى العائلات بين البربر كانت أسرة « بنى ذى النون » وكبيرها موسى ، وهو رجل نهاب مرذول ، وفتاك كبير ، جم النشاط ، دائم الحركة والعمل ، وكان يحكم السيف أينما حل ويهرق الدماء ، وقد نشأ أبناؤه الثلاثة على غراره : ضخامة جثة ، وقسوة طبع

وهم : يحيى الذى كان أشد بنى جنسه غدرا وفظاظة ، « وفتح » : صاحب « اقليج » و « المطرف » صاحب هويده Huete وان يكن دون أخويه غدرا ، وكان لكل من هؤلاء الاخوة الثلاثة عصابته التى يخرج بها للسلب والنهب ·

ومع ان المولدين كانوا أقوى من البربر الا أنهم كانوا أندى منهم قلبا وأرحم كبدا ، فاهتم كثير من زعمائهم بسيادة النظام ورعاية الحضارة مع ما طبعت به حضارتهم بالطابع العربى الخالص وشهد لهم غزاتهم بالتفوق الذهنى ، وكان « بكر » ـ حفيد « زاد لفو » النصرانى (١٠) ـ حاكما على على ولاية « أكشونبة » (١١) المعروفة اليوم باسم الغرب والواقعة فى أقصى جنوب مملكة البرتغال ، وقد أعلن أبوه « يحيى » استقلاله فى أخريات أيام محمد فتملك أولا « شنتمرية » ، ثم ضم اليه بعدئذ جميع الولاية ·

أما بكر بن يحيى المقيم فى « شلب » فلم يترك مظهـرا من مظاهـر الملوكية الا أحاط به نفسه فاتخذ مجلس المشورة واصطنع الحجاب واستكثر من الجند المسلحين الذين ألفوا النظام ·

وأعجب الناس بتحصينات « شنت مرية » وبأبوابها الحديدية الفخمة وبكنيستها الرائعـة (١٢) التى لم تكن تدانيها فى شهرتهـا غير كنيسة « كوربو » التى كانت محجا ذائع الصيت (١٣) ، ولم يفكر « بكر » فى نهب المسافرين والتجار بل طلب من رعيته حمايتهم وقراهم فلبوا أوامره عن رضى حتى لقد كان الناس يقولون : « ان السالك فى أكشونبة كالسالك بين أهله وأقاربه » (١٤) وكان بكر يميل للموادعـة ويجنح للسلم رغـم اشتداد ساعده نتيجة محالفته لابن حفصون وابن مروان صاحب بطليوس وغيرهما من زعماء بنى جلدته ، ومن ثم عرض عليه السلطان أن يستعمله على الولاية فقبل عرضه طالما أن ذلك لا يقيده بشىء ما ، وكان جاره وحليفه فى الشمال هو عبد الملك بن أبى الجواد الذى كان يعد « باجة » و « مارتلة » من مدنه الرئيسية (١٥) ·

أما فى الشرق حيث جبال « بريجو » فكان الحكم لابن مستنة (١٦) الشجاع : أنشط حلفاء بنى حفصون ، وكانت حصونه الجمـة التى من بينها « كركبولية » المعروفة اليوم باسم Carabwey أمنع من عقاب الجو ، كما كان جميع سادة ولاية « جيان » ما بين حلفاء لابن حفصون أو تابعين له، وهؤلاء السادة هم : « خير بن شاكر » صاحب حصن « شوذر » ، وهو الذى حارب قبل ذلك بفترة قصيرة سوارا زعيم عرب « ألبيرة » واغتصب منه كثيرا من القـلاع (١٧) ، ثم « سعيد بن هذيل » صـاحب حصن (١٨)

« المنتلون » والاخوة الهابليون (١٩) الأربعة الذين كان لهم كثير من القلاع من بينها « مرجريت » و « شنت اشتيبان » .

وأخيرا « ابن الشالية » (٢٠) الذى كان له من الحصـــون حصنا ابن عمرو و « كازلونا » ، وكان هذا السيد الأخير البالغ الثراء مسرفا فى وصل الشعراء ، يحيى حياة الترف حتى ليقول كاتبه الشاعر أبو القاسم عبيد يس بن محمود (٢١) الذى غادر بلاط السلطان ليكون فى حاشية هذا السيد :

قصر الأمير أبى مروان منتسخ . من جنة الخلد ، بالسراء معمور
فيه مجالس قد شيدت بلا عمد بنيانها مرمر ، بالتبر مطـرور

وهناك زعيم آخر هو «ديسم ابن اسحق» صاحب مرسية ولورقة وجل ولاية تدمير ، وكان محبا للشعر ، وكان تحت امرته جيش قوامه خمسة آلاف فارس (٢٢) ، وقد أحبته رعيته لكرمه ولين جانبه (٢٣) .

***

غير أن أخطر أعداء السلطان عبد الرحمن على الدوام كان ابن حفصون الذى استفاد كثيرا فى العامين الأخيرين ، ومع أن السلطان خرج فى ربيع ٨٨٩ م [= محرم ٢٧٦ هـ] لمهاجمته فى « بوبشترو » ، وعلى الرغم من أنه استولى فى طريقه على بضعة قرى وخرب كثيرا من حقول القمح الا أن تلك الغزوة الحربية التى استمرت أربعين يوما لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، اذ ما كاد السلطان يعود الى قرطبة حتى استولى ابن حفصون على « اشتبيط » و « أشونة » فبادر اذ ذاك سكان استجة الى الاعتراف به سلطانا عليهم بأن سألوه أن يدخل هو وجنده بلدهم ، وقال الناس فى قرطبة (٢٤) : « ان استجة بلد مضطرب قد هجره الأبرار وحل محلهم الأشرار » .

خـاف السلطـان من السرعـة التى اتسم بها نجاح خصمه [عمـر ابن حفصون] فيسير لقتاله كل من استطاع جمعهم من العسكر ، فلما رضى ابن حفصون بما اكتسبه شعر بضرورة التريث فعرض على السلطان الموادعة، وقطع على نفسه العهد أن يجنح الى السلم ، على أن يوليه عبد الرحمن حكومة البلاد التى امتلكها ، فقر السلطان عينا وطاب نفسا بهذا العرض وأجابه الى ما طلب (٢٥) .

غير أن ابن حفصون كان يفهم المهادنة بمعنى غير المعنى الذى يفهمها به عبد الرحمن اذ لم يكد يبرم الصلح حتى قـام بمهاجمـة أخلص أتباع السلطان ونعنى به «أبا حرب» من بربر برانس وكان مقيما فى قلعة من قلاع كورة الجزيرة ، ولقى أبو حرب حتفه فى المعركة واستسلم جنده وسلموا قلعتهم للعلج (٢٦) .

حينذاك تلاشت ثقة السلطان عبد الرحمن في عهود ابن حفصون السلمية على الرغم من أن أشد أتباعه حمية كانوا يأخذون عليه ما يسمونه بالتراخي في العمل والضعف ، وهما خلتان لم تكونا فيه ولا فيهم ، لذلك قام أحدهم وهو ابن « مستنة » وكره التقاعد وآثر عليه محالفة جيرانه العرب المتحصنين في قلعة يحصب (٢٧) Alcala Lareal وساهم معهم في غزواتهم التي شنوها لسلب الجماعات الوادعة التي طلبت النجدة من السلطان الذي اهتم بالأمر غاية الاهتمام لعدم استطاعته ترك رعاياه المخلصين يلاقون مصرعهم ، الا أنه كان ينقصه العدد الوافر من الجند اللازم ليبعثه اليهم ، ومن ثم اضطر لأن يكتب لابن حفصون يسأله أن ينضم برجاله الى العسكر السلطاني الزاحف لمحاربة ابن مستنة وحلفائه العرب .

وجرى ابن حفصون على سياسته الخاصة به فنظر بعين القلق الى التحالف الموشك على الانعقاد بين ابن مستنة وبين أعداء جنسه ، لذلك بادر الى استجابة مطلب السلطان في سرعة لم تكن متوقعة ، الا أنه حينما انضم الى قوات (٢٨) القائد الأموي « ابراهيم بن خمير » بعث برسالة سرية الى ابن مستنة يأخذ فيها عليه « محالفته العرب ، ويثبته على الخلاف ، ويثنيه عما شرع فيه من موالاتهم ، ويوصيه بالثبات على دعوته المولدية ويضمن له تخفيف وطأة الجيش (٢٩) الذي هو فيه عنه » .

لم يكن ابن حفصون مبالغا فيما قال نظرا لسيطرته البالغة على الجيش حتى لقد تضاءل الى جانبه القائد الأموي ، وأخذ يعامل جند السلطان كيفما شاء وأراد ؛ فتذرع بالحجج المختلفة لتقييد الرجال وأخذ الأموال وترحيل فرسان العرب ، فيحمل رجاله على خيولهم فان « اعترض عليه ابراهيم ابن خمير موه له العذر وحسن له الرد » .

وأوفى ابن حفصون بما وعد به ابن مستنة فلم يكن سيره عبر البلاد المحاربة سوى مظاهرة حربية ، غير أنه استغل هذه الفرصة للتفاهم مع جميع الأسبان الذين لقيهم في طريقه وللاتفاق معهم على مساعدة أهل ألبيرة الذين هزمهم « سوار » في وقعة « المدينة » ، ومع أنه لم يصادف في تلك الحملة ما كان يؤمله من النجاح الا أن اليأس لم يداخله أبدا بل تشجع بما عقد من محالفات ، ولعله أدرك أن أنصاره قد عيل صبرهم من تسويفاته ومسلكه الغامض ، ورأى أن اللحظة قد حانت لخلع القناع الذي يتستر به فحبس ابراهيم بن خمير وجماعة من ضباط الجيش الأموي ، ثم جاهر السلطان بعدائه (٣٠) .

***

لم يكد ابن حفصون يذيع هذا القرار حتى وجد نعم الحليف فى نصارى قرطبة ، فقد مضى العهد الذى كانوا يرون فيه الاستشهاد هو السبيل الوحيد لاظهار مقتهم للفاتحين ولتحمسهم للدين ، وأغرتهم الفوضى الشاملة بامتشاق الحسام لتحرير بلدهم ، حتى لقد اشتد أكبر صنائعهم فى بغض الأمويين ، ومن هؤلاء الكونت [شربند بن حجاج القومس] وهو ابن خادم من خدم الكنيسة وكان لا يتورع عن الاقدام على أى عمل بالغا ما بلغ من الخسة ما دام هذا العمل يدنى مكانته من السلطان ، ولما كان موقنا أن أحسن وسيلة تقربه من ذلك الهدف هي ملؤه الخزينة فقد عمد الى ارهاق أبناء ملته بالضرائب مما حملهم على جب دينهم ، ويقول عنه أحد المؤرخين انه لم يكتف بقتل الأحياء بل كان أيضـا يمتهن حرمة الموتى ، وقد أراد أن يزيد الكراهية فى قلوب المسلمين على المسيحيين فأخرج جثث الشهداء من تحت مذابح الكنائس وعرضها على حجاب السلطان منـددا بوقاحة المتعصبين الذين جرؤوا على تخصيص مثل هذا المكان الطاهر لمن قتلوا بسيف الشرع ، فمقته النصارى مقتا لم يمقتوه أحدا قط ، وراح القساوسة ينقبون معاجم اللغة بحثـا عن ألفـاظ يستعملونها فى قدحه وتجريحه ، فنعتوه « بالأحمق والسفيه والمتكبر والطاغية والطماع والشره والسلاب القاسى العنيد المتعجرف » ، وقالوا « ان قحته دت الى معارضة ارادة الرب » ، ولقبوه « بالشيطان المريد » ، وكانوا محقين فى كراهيتهم اياه اذ أثقل كاهل جميع كنائس العاصمة بالضرائب الباهظة حتى عجزت عن دفع رواتب رجالها ، وفرض عليها سرفاندو [أى شربند] قبول رجال جبناء مغمورين ممن يؤثرهم هو ويتناولون رواتبهم من الحكومة . أضف الى ذلك أنه كان ألد عدو للشهداء ، كما كان شديد الوطأة على المدافعين عنهم ممن كان ينصب لهم الأحابيل فى حذق بالغ ودهاء شيطانى . فقد حدث ذات مرة أنه لام كلا من الشماس سمسون وفاتسيس أسقف قرطبة لاغرائهما أحد تلاميذهما بالتجديف فى الرسول ثم قال للسلطان « هلا استدعيت سمسون وفاتسيس وسألتهما عما اذا كانا يعتقدان فى صدق ذلك المجدف ؟ فاذا دفعهما الخوف الى الانكار فمر لهما بخنجرين واطلب اليهما قتل ذلك الرجل ، فان رفضا قامت الحجة لديك على أنه صنيعتهما ، وحينذاك أعطنى سيفا أجهز به على ثلاثتهم » (٣١) .

مضى على هذا القول عشرون سنة تغير معها الزمن وتبدل الرجال الذين على غرار « شربند » الذى كان على جانب كبير من بعد النظر اذ سرعان ما اشتد فى كراهيته للسلطان الذى أوشك على السقوط عن العرش ، كما بالغ فى تأييده لزعيم الحزب الوطنى الذى اعتقد أنه سيخلف السلطان ، واذ ذاك أخذ فى التقرب الى اخوانه المسيحيين الذين اضطهدهم من قبل ، وراح يدبر معهم المؤامرات ويعمل غاية جهده لاثارة الفتنة ، وعلم البلاط

بطرف من مؤامراته فقبض على أخ له ، فلما علم شربند بما جرى تحالف هو واخوانه المتامرون ، حتى اذا صار خارج العاصمة اطمأنت نفسه لأن نفوذ السلطان لم يكن يجاوز قرطبة ، ولما لم يعد هناك ما يخشاه من ناحيته فقد رسم خطته للاستيلاء على حصن « بلاى » الهام المعروف باسم « أجويلار » وهو على مسيرة يوم جنوبى (٣٢) قرطبة ، ولم يكن أمنع من بقية حصون السلطان الأخرى ، لذلك نجح فى الاستيلاء عليه ، ولما استقر فى « بلاى » رأى محالفة ابن حفصون الذى رحب به وأنفذ اليه بعض القوات وأوصاه بمواصلة الحملات على ريف قرطبة ، ولم يكن هناك من يشأو «شربند» فى تنظيم تلك الحملات وفى معرفته التامة بجميع نواحى ذلك الاقليم ، ويشهد له المؤلفون العرب بأنه كان فارسا جريئا ، فكان اذا جاء المساء غادر حصنه ثم عاد اليه مع تباشير الصباح ويكون هو فيما بين المساء والصباح قد خرب الحقول وأحرق ما أمكنه من القرى ، وكانت الجثث المطروحة على الأرض تشير الى الطريق الذى سلكه ، وانتهى به الأمر أخيرا الى أن لقى مصرعه فى أثناء غارة له ، غير أن أتباعه واصلوا عمله الدموى الذى بدأه (٣٣) ٠

أدى استيلاء ابن حفصون على حصن بيانة (٣٤) الى أن أصبح فى حوزته ــ أهم الحصون الموجودة فى جنوب الوادى الكبير ــ ، وخضعت له كل بلاد الأندلس تقريبا ، واعتقد السلطان أنه لم يعد يستطيع أن يخلع على أى شخص لقب « حاكم ألبيرة » أو جيان ، وهو لقب صار اجوف فقد (٣٥) قيمته ، ثم ان زعيم المولدين تباهى بقوته الفعلية فأراد توكيدها ، وكان يعتقد أن قرطبة لن تلبث أن تقع فى يده ، واذ ذاك تؤول اليه مقاليد الأمور فى اسبانيا ، لكنه أدرك أنه اذا ظل كما هو اضطر لمناضلة العرب ثقة منه أنهم لن يخضعوا لسلطانه طالما أنه قادر على أن يطلع عليهم بلقب « زعيم الاسبان » ، فكان هدفه ومطمحه أن يحصل من خليفة بغداد على قرار بتوليه حكم الأندلس ، ولم يكن ذلك الأمر بالذى يؤوده اذ لم يكن لخلفاء بغـــداد سوى ســـلطة اسمية على الولايات البعيـــدة عن مركز امبراطوريتهم ، وكان له أن يطمع فى طاعة العرب اذا رضى الخليفة أن يبعث اليه بمرسوم يوليه فيه الولاية فلا يغدو حينذاك اسبانيا بل ممثل أسرة لها الصدارة بين الجميع ٠

ولما استقر رأى [ابن حفصون] على هذا القرار أخذ فى مفاوضـــة ابن الأغلب والى افريقية من قبل الخليفة العباسى مستميلا اياه بالهدايـا العظيمة التى راح يصله بها ، فرحب ابن الأغلب وأجزل له العطاء ، وشجعه على المضى فى خطته ووعده ببذل جهده حتى يتسلم من الخليفة المرسوم المنشود (٣٦) ٠

وشرع ابن حفصون فى التأهب للحظة التى يرفع فيها راية بنى العباس ، واقترب من قرطبة ، وضرب معسكره الكبير فى أستجة (٣٧) ، وكان يزور بين آونة وأخرى «بلاى» يحث القوم على سرعة اتمام التحصينات التى أمر بها فى تلك البقعة حتى تزداد منعة على منعة ، وليأتى بالامدادات لجند الحامية ، يثير بها حميتهم ان كانت فى حاجة الى الاثارة ، وبذلك لا تنقضى أشهر — أو ربما بضعة أيام — حتى يدخل العاصمة فاتحا ٠

وخيمت الكآبة المحزنة على العاصمة التى كابدت مخاوف الحصار قبل أن يضربه عليها ، وكان المؤرخون العرب يقولون ان قرطبة صارت أشبه ببلد بعيد معرض لهجمات العدو (٣٨) ، وطالما استيقظ السكان مذعورين أثناء الليل على صرخات الفزع من الفلاحين التعساء تنطلق من الشاطىء الآخر للنهر يفتك بهم فرسان « بلاى » (٣٩) ٠ وحدث فى احدى المرات أن دفع التهور أحد أولئك الفرسان للتقدم حتى عبر الجسر ثم رمى بسهم فى التمثال القائم فوق باب القنطرة (٤٠) ٠

ولقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث يقول ان الدولة كانت مهددة بالخراب التام ، وتوالت عليها النكبات بعضها فى أثر بعض ، وعمتها السرقة وفشى النهب ، وسبيت النساء والأطفال (٤١) ، وضج الناس من تقاعس السلطان وتراخيه وخوفه (٤٢) ، وتذمر الجند لعدم تسلمهم رواتبهم ، وكفت الولايات عن أرسال الضرائب ، ونضبت خزينة الدولة ، وعمد السلطان الى الاستدانة لدفع ما يبعثه الى من ظلوا الى جانبه من العرب فى الولايات المختلفة (٤٣) ، و قفرت الأسواق لعدم التجارة ، وارتفع ثمن الخبز ارتفاعا فاحشا (٤٤) ، ولم يعد أحد يفكر فى المستقبل ، وران اليأس على الأفئدة ٠

وكتب ابن حبيب يقول « انه سرعان ما سيعز الذليل ، ويذل العزيز » وخاف النـــاس أن يفقد الأمويون أمنهم الذى كانوا يجـــدونه فى ظل راية عبد الرحمن الأول ٠

أما الفقهاء الذين عدوا المصائب العامة التى حاقت بالناس غضبا من الله والذين سموا ابن حفصون بغضب الله (٤٥) فقد أزعجوا البلد بتكهناتهم المحزنة فكانوا يقولون (٤٦) : « واها لك يا قرطبة ، وما أتعس حظك أيها المتلف الخسيس ، يا بالوعة الأقذار ورمز الخراب ، ويا وطن المصـائب والشدائد ، أنت يا من عدمت الحليف والصديق ٠٠٠ غدا حين يقف على بابك القائد ، الكبير الأنف ، الضخم الجثة ، الذى تتالف مقدمة جيشه من المسلمين ، ومؤخرته من المشركين ، حينذاك يتم خرابك ، ويفتش سكانك عن ملجأ لهم فى «قرمونة» غير أنه سيكون ملجأ ملعونا » ، وأخذ الناس

يلعنون على المنابر «خانقاه الظلم» قاصدين بذلك قصر السلطان ، بل لقد حددوا الوقت الذى ستقع فيه قرطبة فى أيدى الكفار ، ويقول فى ذلك أحد المتنبئين : « يا قرطبة المرذولة ، لقد أبغضك الله منذ أن أصبحت مباءة للأغراب والمجرمين والعاهرات ، وستحل عليك نقمة الله القاهرة .... أما أنتم أيها الذين تستمعون الى فسترون أن الفتنة تخرب كل بلاد الأندلس، ففكروا فى أى شىء آخر غير الأباطيل الدنيوية ، واعلموا أن الضربة القاتلة سوف تأتيكم من الجانب الذى ترون فيه الجبلين : الأسمر والأسود ، وستبدأ فى الشهر التالى : شهر رمضان ، ثم ينقضى شهر وفى اثره آخر ، وحينذاك تحيق نكبة فادحة بالقصر العظيم : خانقاه الظلم فارعوا جيدا نساءكم وأطفالكم يا سكان قرطبة ، واهتموا ألا تدعو عزيزا لكم على مقربة من خانقاه الظلم أو المسجد لانه لن يبقى القوم يومذاك على طفل و امرأة ، وستحل هذه النكبة يوم الجمعة بين الظهر والعصر وتظل حتى غروب الشمس ، أما المكان المأمون فسيكون فى جبل أبى عبدة حيث كانت تقوم الكنيسة » (٤٧) .

وربما كان أشد الناس انزعاجا هو السلطان فقد باتت الأخطار تهدد ذلك العرش الذى كان السلطان شديد الحرص عليه والذى لم يجلس عليه الا باغتيال أخيه ، ثم انه استفرغ جميع ثروته ولم تجده نفعا محاولة اصطناع سياسة خالها نافعة مجدية .

اذن فما الذى يفعله الآن ؟

أيعود الى سياسة أخيه الفظة ؟

لم يكن يتأتى له ذلك اذا أراد ، فقد نضب المال الذى عنده ، وانفض عنه جيشه ، هذا الى جانب ما طبع عليه هو نفسه من كراهية للحرب اذ كان أميرا تقيا ملازما للبيت غريبا عن المعسكرات وميادين القتال ، ومن ثم اضطر لمتابعة سياسته السلمية حتى لا يقع ثانية فى يد العلج الخبيث الذى طالما غرر به وخدعه ونعنى به ابن حفصون الذى أصبح عازفا عن الاتفاق معه ثقة منه بانتصاره عليه ، وحاول عبد الله عبثا أن يحمله على مسالمته ، لكن لم تجده نفعا الشروط الطيبة التى تقدم بها اليه ، فقد رفض ابن حفصون جميع عروضه مستخفا بها (٤٨) ، وكان السلطان كلما رد خائبا اتجه الى الله (٤٩) ليأسه من الناس مغلقا حجرته على نفسه وعلى أحد النساك (٥٠) ، أو عكف ينظم مثل هذه الأبيات (٥١) :

أرى الدنيا تصير الى فناء ... وما فيها لشىء من بقاء
فبادر بالانابة غير وان ... على شىء يصير الى فناء
كأنك قد حملت على سرير ... وغيب حسن وجهك فى الثراء
فنافس فى التقى واجنح اليه ... لعلك ترضين رب السماء

غير أنه قدر له أن يسترد فى أحد الأيام شجاعته وذلك فى ختام عام ٨٩٠ م [= ٢٧٧ هـ] حينما أقبل عليه أحدهم من ناحيـة ابن حفصون يقدم اليه رأس خير بن شاكر صاحب « شوذر » ،فرآى عبد الله فى هذا بارقة أمل ، وخيل اليه أن خصمه اللدود موشك على أن يعقد معه الصلح الذى يرتجيه منذ أمد بعيد ، وكانت رأس « خير » عنده أصدق دليل على أن الوفاق قريب ، وظن أن ابن حفصون يشكره على معروفه معه ، اذ حذره السلطان بأن « خيرا » يخادعه ويرى فى « ديسم » أمير « تدمير » منافسا آخر لابن حفصون الذى كان شديد الغيرة على سلطته فانتقم منه أشد انتقام، ذلك ان خيرا سأله أن يوافيه بمدد يقوى به فوافاه به الا أنه أصدر سرا أمره الى قائده « الأحيمر » بقطع رأس الخائن فأطاعه (٥٢) ٠

لكن ابن حفصون لم يلبث أن أخرج السلطان من حلامه فلم يمض لمصالحته بل نهض لحصار قلاع كورة « قبرة » التى كانت لا تزال تابعة للسلطان (٥٣) ٠

ما كان للأمور أن تتعقد أكثر مما هى عليه وأدرك عبد الله أخيرا أنه ينبغى عليه أن يخاطر بكل شىء فى سبيل المحافظة على كل شىء ، فصارح وزراءه بعزمه على النهوض لقتال العدو ، فوقع ذلك الخبر من حجابه موقع الدهشة وقالوا له :

« استنب بعض قوادك للمسير بجيشك لاستغلاظ شوكة الخبيث (٥٤) وكثرة أنصاره » ، ولكنه أصر على مشروعه (٥٥) ٠

ودفعه احساسه بكرامته ومعرفته بطيب تبعته الى ايثاره الموت فى ساحة الوغى على البقاء ذليلا ٠

***

الفصل الخامس عشر

خروج ابن حفصون لمهاجمة السلطان عبد الله الذى أخذ يزحف على « بلاى » • تخاذل قائد جيش السلطان وانتشار النبوءات فيه • هزيمة جناح الأندلسيين الأيمن • ابن حفصون يوشك على الهلاك فى الوقعة • ورجوع عسكر استجة الى كورتهم •

هروب ابن حفصون الى ارشذونة واستيلاء السلطان على حصن بلاى • مقاومة استجة لهجوم عبد الله عليها ثم استسلامها له • ارتداد السلطان رغم أنفه الى أرشذونة وعودته الى قرطبة •

الفصل الخامس عشر

وقعة بلاى من أعمال قبره سنة ٢٧٨ هـ

تلقى ابن حفصون تصميم السلطان بشيء من السرور والدهشة ، وقال بالأسبانية لابن مستنة : « هذا توهيم للبيطة (١) ، ليته فعل ، من جاءنى بفصوله نحوى أعطيته خمسمئة دينار » ، ولم يلبث طويلا حتى وافاه الخبر وهو فى « استجة » بأن السلطان قد ضرب خيمته فى سهل « شقندة » فأجمع ابن حفصون العزم على أن يمضى فى لحظته لاحراقها فان كتب له التوفيق فيما نهض به جلل السلطان بعار الدهر •

بلغ ابن حفصون سهل « شقندة » وقد مد الظلام طنبه على الدنيا ، واستصحب معه بعض الكتائب وباعت القائمين بحراسة الفسطاط من العبيد الجند الذى لم تمنعهم قلة عددهم من الاستبسال فى مقاتلة عدوهم، وتعالى صراخهم ، فهب العسكر لنجدتهم من خارج المدينة ، ولما كان ابن حفصون يرمى من وراء ذلك الى خديعة السلطان فانه سرعان ما أمر فرسانه أن يلووا أعنة جيادهم ويكروا على «بلاى» وذلك حين رأى خطته موشكة على الفشل ، فقصهم فرسان السلطان وقتلوا بعضا منهم •

وعلى الرغم من تفاهة هذا الهجوم الليلى الا انه كانت له دلالات عظمى فى أعين القرطبيين ، فما تنفس الصباح حتى خرج جميع سكان العاصمة لاستقبال فرسان السلطان الذى عادوا من وراء مطاردتهم ومعهم بعض جيادهم التى استولوا عليها ، وكذلك بعض رؤوس قتلاهم ، ونظر الناس بعين الاعجاب الى تلك الغنائم ، وأسر بعضهم الى بعض فى كبرياء ونشوة بأن ابن حفصون قد ضل الطريق ولم يدخل « بلاى » الا مع فارس واحد • ومع ذلك فان معركة هائلة كانت على وشك الوقوع ، ولم يكن ثم محيص عن الاشتباك رغم أن احدى الجماعتين كانت ضعف الأخرى ، فلم يكن

جيش السلطان يتجاوز أربعة عشر ألف جندى منهم أربعة آلاف من العسكر النظاميين ، أما ابن حفصون فكان فى ثلاثين ألف مقاتل ، ومع ذلك فقد أمر السلطان بالمسير الى « بلاى » والزحف عليها ، حتى اذا كان يوم الخميس ١٥ أبريل ٨٩١ م [= ٢ محرم ٢٩٨ هـ] أصبح الجيش على مقربة من نهير صغير (٢) لا يبعد عن الحصن سوى نصف فرسخ ، واعتقد رجال كلا الفريقين أن المعركة ناشبة فى الغد ٠

كان ذلك يوم الجمعة ــ جمعة الآلام ــ عند النصارى(٣) ، وزحف جيش السلطان فى الصباح الباكر بينما كان ابن حفصون يعبىء جنده للمعركة عند سفح الجبل القائم عليه الحصن وقد امتلأوا حماسة ودفعهم شوقهم للقتال الى الثقة بانتصارهم ، وكانت الحال على غير هذا المنوال عند عبد الله فقد كان جيشه آخر ما تبقى لديه ، وهو السند الذى كان عليه وحده يتوقف مصير الأمويين فان أخفق ضاعوا نهائيا ، ومما زاد الطين بلة سوء قيادته حتى ان قائده عبد الملك بن أمية لم يأخذ حذره ازاء عدوه ولم يفكر فيما يلزمه للقضاء عليه ، فتقدم حتى اذا أدرك صعوبة موقفه آمر الجيش بالارتداد الى جبل واقع شمالى الحصن ، وبينما هم آخذون فى تنفيذ هذا الأمر اذا بقائد المقدمة ــ وكان مولى أمويا شجاعا اسمه عبيد الله ــ يتقدم من جماعة أبى عبده وقال له : الله الله فى الناس ! ٠٠٠ أين يذهب بك أيها الأمير ؟ ، أبعد أن استقبلنا عدونا واستقبلونا نولهم أدبارنا ؟ وتحيد عنهم بسنتنا ؟ ٠٠٠ اذن والله يقوى طمعهم فينا ويتصور حيادنا عنهم بغير صورته فيقدمون علينا ولا نأمن أن يكسرونا ! » ٠

كان الحق فيما قاله عبيد الله هذا ، فقد أدرك ابن حفصون غلطة عدوه وتأهب للاستفادة منها ، كما أن السلطان لم يكن راضيا أبدا عن مسلك قائده هذا ، ومن ثم سأل عبيد الله عما يفعل فأجابه : « المضى قدما ، والاختلاط بهم صمتا ، واطلب مناجزتهم عزما ، ويقضى الله قضاءه » ٠

فقال السلطان : دونك فتقدم ! ٠

لم يضع عبد الله لحظة فما لبث أن عاد الى كتيبته وأمرها بمهاجمة العدو ، فلبى الجند أمره رغم يأسهم من النصر ، واذ ذاك قال أحد الضباط للفقيه أبى مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى ، وكان معروفا هو الآخر بشدة تقواه حتى ليسمونه بشيخ المسلمين : « ما عندك فيما قد حضر أيها الشيخ ؟ » ٠

فأجابه أبو مروان : « لا أقول لك يا ابن أخى غير ما قاله الله تعالى(٤) ان ينصركم الله فلاغالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده »٠

لم تكن بقيــة الجيش أحسن حالا من مقدمته ، وتلقى الجند الأمر بحط متاعهم وضرب الخيام تأهبا للقتال ، وبينما هم منهمكون فى مـد فسطاط السلطان اذا بأحد الأعمدة يسقط فيسقط السرادق على الأرض ، فتهامس القوم فى كل ناحية بأن ذلك نذير سوء وطالع شر ، واذ ذاك قام ضابط شهم فقال : « أيها الناس : انه لا بأس بكم ولا طيرة تلحقكم فقد اندق عمود القبة يوم الكركريد فكان بعده الفتح المبين » . ثم ثقف الرجل السرادق بعمود أخذه من المتاع .

كان على الفقهاء والضباط الذين فى المقدمة ـ حين بدأ القتال ـ أن يعملوا على محو الأثر الذى نجم عن كثير من التكهنات ، وكانوا يتمتعون بذاكرة طيبة وخيال ممرع ، فلم يجدوا صعوبة فى اقتباس كل ما يلائمهم من الحوادث السابقة ، فحارب فى الصف الأول عبد الله الرميمى وكان محاربا شجاعــا فلبس الخوذة والدرع ، كما كان فى الوقت ذاتــه شاعرا مبرزا فأخذ يرجز كلما ضرب بالرمح أو السيف ، ثم اذا به يسقط فجأة ميتا فذعر الجند وصاحوا « ما نرى هذه الطيرة الا شرا » . فقال الفقهاء : « أيها الناس ، لا يهولنكم قتل عبد الله فان ذلك علامة النصر ، هكذا كان أول قتيل من الطائفتين يوم وقعة وادى سليط مع أهل طليطلة : فارس من فرساننا ، ثم كان النصر الذى لا كفاء له ! » .

سرعان ما احتدم القتال وتعالى الصراخ ، واختلط ضجيج الأبواق بأصــوات الفقهــاء المسلمين يتلون آيات من القرآن العظيــم ، والقساوسة يرتلون الانجيل ، وحدث ما لم يكن فى الحسبان اذا نتصرت ميسرة السلطان على ميمنة ابن حفصون وأرغموها على الارتداد ، وأخذوا يتسابقون فى ضرب الرقاب وحملها الى السلطان الذى وعد بمكافأة كل جندى يحمل اليه رأسا من رؤوس الأعداء على الرغم من أنه هو نفسه لم يساهم فى القتال بل كان قاعدا فى فسطاطه يراقب الآخرين وهم يتحاربون من أجله ، على حين أخذ هو ينشد هذه الأبيات :

من كان بالكثفــة أو كثر العــدد
ذا ثقــة فى نفســه أو مستعد
فثقتى بالواحـد الفـــرد الصـمد

بعد أن حاقت الهزيمة النكراء بجنــاح الأندلسيين الأيمن كر جميع جيش السلطان على الميسرة التى يقودها ابن حفصون نفسه ، لكن على الرغم من مجهوداته وما أظهره كما هى العادة من ضروب الشجاعة وآيات الكفاءة الا أنه لم ينجح فى حمل جنده على الثبات فى أماكنهم ، ذلك لأن التهور والاندفاع كان أكثر من تريثهم ، كما كان من السهل دفعهم للتمرد واليأس

من الخاتمة ، فولوا الأدبار تاركين الميدان لعدوهم ، وهرب بعضهم الى « أستجة » ، فتعقبهم الفرسان الملكيون الذين قتلوا منهم المئين ، ومضى بعضهم – وفيهم ابن حفصون ذاته – للاعتصام بالقلعة التى تزاحم هاربو الميمنه على بابها ، فحاول الجدد عبثا أن يشقوا طريقهم وينقذوا زعيمهم ابن حفصون ، لذلك جذبه الجند الواقف على السور من ذراعيه وحملوه من فوق حصانه الى داخل الحصن .

بينما كانت هذه الجماعة لاتزال تتدافع على أبواب الحصن كان جند السلطان ينهبون معسكر عدوهم وقد دبت نشوة الفرح فى أعطافهم ازدهاء بالنصر الذى كان فوق ما يأملون ، فأخذوا يهللون سخرية من أعدائهم الذى كانوا يعدونهم جميعا كفارا ، والذين فشلوا فى القتال قبل وقعة « شقندة » ، فأخذ العسكر فى التندر عليهم ، وقال شاعرهم :

محى السيف ما زخرفت أول وهلة	ودونك فانظر ما أضاء لك القدح
فكم شارب منكم صحا بعد سكرة	وماكان لولا السيف من سكره يصحو
أقمنا عليها النهو فى يوم عيدهم	فكم لهم فصحانه : قطع انفصح
ألا تعست تلك الوجوه وقبحت	فما خلقا الا لها : التعس والقبح
فيا وقعة أنست وقيعة راهط	ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويالينة أبقت لنا العز دهرنا	وذلا على الأعداء صل به الترح

وأخيرا قام شاعر البلاط ابن عبد ربه فنظم هذه القصيدة الطويلة التى ضمنها تلك المساخر الكبيرة وكلمات الحراس ، والتى يحتل الذوق الفاسد والتلاعب بالألفاظ فيها مكان الصدارة ، لكنها كانت على الاقل تمتاز بأنها أجلى تفسير للكراهية والاحتقار اللذين يحس بهما أتباع السلطان للأندلسيين .

وتم دافع آخر كان مدعاة لسرور جند السلطان ألا وهو ايثار ابن حفصون البقاء فى الحصن واصراره على عدم رحيلهم وأراد أن يحملهم على البقاء بالحصن رغم أنوفهم ، لكنهم نقبوا السور الشمالى ونفذوا منه الى بلادهم ، فلما [illegible] الجند الآخرون بأنفسهم قالوا انهم شرذمه قليلون استطاعوا أن ينهضوا وحدهم بالذب عن الحصن ومن ثم فلا مناص لهم من [illegible] ابن حفصون – بعد لأى – لطلبهم ، لذلك فانه ما كاد الليل أن ينتصف حتى كانوا قد غادروا الحصن ولم يكن ذلك ارتدادا بل هزيمة [illegible] شاملا .

تقضت فترة طويلة على ابن حفصون وهو – فى وسط هذه الفوضى [illegible] الشامل – يفتش لنفسه عن دابة يمتطيها ، حتى تسنى له

أخيرا أن يجد فرسا هزيلا واهيا كان لجندى نصرانى ، فلما امتطاه لم يكف عن وخزه بقدميه محاولا حمل هذا الحيوان التعس على الركض ، وكانت قد انقضت على هذا الحصان سنوات عدة لم يعرف فيها سوى التمهل ، لكن راكبه اليوم كان مضطرا للاسراع اذ ما كاد رجال السلطان يعلمون بهرب ابن حفصون حتى راحوا يتعقبونه ، وحينذاك قال ابن مستنة الذى كان يركض بجواده الى جانبه وكان لا يزال محتفظا بهدوئه رغم الخطر المحدق به وبرفيقه : « قد وفر الله عليك الخمسمائة دينار التى كنت بذلتها فكيف رأيت عقبى الاغترار ببنى أمية ؟ » •

فرد عليه ابن حفصون غاضبا حنقا ولم يكن من طبعه المرح ولا الدعابة وقال : « ذلك من جبنك وجبن أمثالك أشباه الرجال ولا حقيقة !! •

***

ولما تنفس الصباح كان ابن حفصون قد بلغ مع ربعة من رفاقه بلدة « أرشذونة » لكن لم يطل لبثهم بها ولم يستقروا بها غير برهة وجيزة ، ثم أمر سكانها باللحاق به فى « بوبشترو » التى أغذ السير اليها •

أما السلطان فقد استولى على قلعة « بلاى » حيث وجد بها وفرة من المال والذخيرة وآلات الحرب ، فطلب السجل المتضمن أسماء جميع رعاياه المسلمين ، ثم جاءوا اليه بالأسرى فأبقى على حياة مسلميهم ، على أن يقسموا أنهم لازالوا على اسلامهم ، أما غيرهم فقد أمر بشنقهم عن آخرهم ان لم يسلموا ، فآثروا جميعا الموت على الارتداد عن دينهم ولم يشذ عنهم سوى واحد خانته شجاعته وهم يسيرون به الى القتل فاشترى حياته باسلامه ، أما الباقون وكانوا قرابة ألف رجل فقد لاقوا منيتهم ، وربما كان هؤلاء الجند المجهولون أحق بلقب الشهادة من متعصبى قرطبة الذين أدخلوهم فى عداد القديسين منذ أربعين سنة قبل هذا الحادث •

***

ترك السلطان حامية كافية فى حصن بلاى ونهض هو لمحاصرة استجة التى قاومته أعنف مقاومة بفضل كثافة حاميتها التى زادها عددا الجمهور اللجب ممن فروا اليها ، الا أن ذخيرتها لم تكن كافية لسد رمق المدافعين عنها فلم تنقض بضعة أسابيع حتى أحس الناس بالجدب الذى أخذ يتزايد يوما بعد يوم ومالوا الى التسليم ، واذ ذاك شرع الأندلسيون فى التفاوض فأصر السلطان على أن يستسلموا بلا قيد أو شرط ، فرفضوا ذلك رفضا تاما رغم المجاعة التى كانت تهدد المدينة بالدمار المروع مما دفع سكانها لأن يظهروا للمحاصرين ـ من فوق أسوارها العالية ـ نساءهم وأطفالهم

الجوعى وصاحوا مسترحمين ، فرضى السلطان أخيرا وأمنهم وأخذ منهم الرهائن وعين عليهم حاكما ، ثم تابع هو زحفه على بوبشترو ، وضرب معسكره على كثب من حصنها ٠

كان من المستحيل قهر ابن حفصون وهو يعرف كل جبل وواد وممر فى منطقة بوبشترو مما لم يخف على جند قرطبة الذين آخذوا فى التذمر ، زاعمين أن أمد الحرب قد طال ، و نهم لا يريدون انهاك ما بقى من قواهم فى مجهود غير مجدى ، وقالوا ان عدد خصمهم لابد وأن يتكاثر فى صراع يظهر فيه تفوقه حين تضطره الظروف للدفاع عن نفسه ، فاضطر السلطان للنزول على ارادة عسكره ، وأصدر أمره بالارتداد الى « رشذونة » ، لكنهم فى أثناء رجوعهم اليها مروا عبر ممر شديد الضيق باغتهم فيه ابن حفصون بالهجوم لكنه لم يستطع هزيمتهم بفضل مهارة عبيد الله وشجاعته ٠

ثم دخل السلطان مدينة «ألبيرة» التى سلمه أهلها الرهائن ، ومن ثم سار بجيشه الى قرطبة (٥) ٠

الفصل السادس عشر

ابن حفصون يتظاهر بموادعة السلطان ويعمد الى اثارة سكان أرشذونة ضده • موقف الجماعات المختلفة من الأحداث • ابن حفصون يباغت السلطان اذ يدخل ألبيرة ويزحف على جيان ثم رجوعه الى بوبشترو • اغتيال سعيد بن جودى وأثره • السلطان عبد الله يحارب صغار الثوار من أجل المال • كريب يطالب هشاما بأطلاق سراح أخيه المطرف الذى يهاجم بعض القلاع والمدن • توافد الامدادات على كريب • النزاع بين القادة وتهديدهم السلطان بابن حفصون • تنصر ابن حفصون وأثره • الصلح بين ابن حفصون والسلطان عبد الله ثم الحرب بينهما سنة ٢٩٠ هـ • مهاجما ابن حفصون لابن أبى عبيدة وانتصار السلطان وانتقامه • السلطان يستألف ابن حجّاج اذ يرد عليه ولده • الأديب أبو محمد العذرى الحجازى • قمر الجارية وشعرها فى ابراهيم بن حجاج • عظمة البلاط ووفود ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد • عظمة خاق ابراهيم بن حجاج •

الفصل السادس عشر

بقيـة عهـد عبد الله

انتصر السلطان قـرب بلاى فى لحظة كان موشكا فيها على الضياع واستولى على بلاى واستجة وأرشذونة التى تعتبر جميعها المراكز الأمامية للفريق الوطنى ، كما عادت « ألبيرة » الى طاعته (١) ، وحذت حذوها جيان التى ارتد اليها ابن حفصون بجنده ، ولاشك أن ذلك كله كان فوزا عظيما للسلطان لما أحدثه من الأثر العميق فى الرأى العام كان أكبر مما هو متوقع ، وفقد ابن حفصون كثيرا من هيبته ولم يكن شيء من ذلك خافيا عليه ، وأصبح ابن الأغلب يزور عن لقاء رسله بعد أن كان عظيم الترحيب بهم ، متذرعا بانشغاله باخماد الثورات ، وان ليس لديه من الوقت ما يصرفه فى الاهتمام بشئون الأندلس (٢) ، وطبيعى أنه لم يكن فى استطاعـة ابن الأغلب أن يشغل نفسه ــ وهو بافريقية ــ بمساعدة دعى باء بالهزيمة ، كما أنه لم يكن هناك ما يدعو خليفة بغداد لأن يولى هذا الدعى أمر الأندلس .

أما السلطان فقد تبوأ مكانة عظمى فى نفوس الأهالى ، ورأى المواطنون: الوادعون الذين كرهوا الاضطرابات والفوضى ــ فى اعادة القوة للسلطان الوسيلة الوحيــدة لاقرار الهدوء واستتبات السلام ، وأجمعوا أمرهم على ذلك . ومع أنه لا يمكن تجاهل الفوائد التى جناها السلطان الا أنه راح يبالغ فى تقديرها ، ولاشك أن ابن حفصون قد أصيب بصدمة عنيفة فى قوته وان لم تتلاش نهائيا ، كما أنه لم ييأس قط من استعادتها ، ولكنه كان فى لحظته هذه أحوج ما يكون للسلم فجنح اليه حتى لقـد استجاب الى ما طلبه السلطان منه من تسليمه أحد أبنائه رهينة لديه ، غير أنه لما كان يضمر معاودة القتال حالما تواتيه الفرصة فقد تمكن من أن يخدع السلطان اذ لم يسلمه ابنه بل رهن لديه ابن خازن له ، وبقى أمر هذه الخديعة مكتوما حتى ثارت الشكوك ، فلما علم السلطان بالحقيقة استنكر هذا العمل من ابن حفصون وأنبه على يمينه الفاجرة وأصر أن يكون الرهينة ابنه الحقيقى ،

فلما أبى ابن حفصون اجابة هذا الشرط عاد القتال بين الجانبين من جديد (٣) ٠

استرد الزعيم الأندلسي بسرعة عجيبه الأراضي التي فقدها من قبل ، ولما كان موقنا من قدرته على الاعتماد على سكان مدينة « أرشذونة » فقد بعث اليها طائفة من الرجال يشجعونها على التمرد فألقوا القبض ليلا على العاملين اللذين وكل اليهما السلطان حكومتها وأسلموهما الى ابن حفصون ساعة أن دخلها هو وجنده سنة ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] ، وسرعان ما وفد اليه مبعوثو «ألبيرة» يعلنون اليه أن مدينتهم قد ثارت هي الأخرى ، وأنها تعتمد على مساعدته لها ، فأجاب ملتمسهم وزودهم بحامية من عنده ، غير أن الحزب السلطاني المتكاثر في « ألبيرة » لم يطاطىء لهذه اللطمة اذ بادر كل رجاله الى حمل السلاح بمعونة حاكم Ubeda وطردوا جند ابن حفصون ، وانتخبوا مجلسا محليا ، وجاءوا بالحاكم الذى بعثه السلطان اليها فادخلوه البلد ٠

أما دعاة الانفصال وأنصار الاستقلال فقد فزعهم اقتراب جيش السلطان الذى كان ينازل وقتذاك « كركبولية » ـ أحد حصون ابن مستنة وظلوا ساكنين لم يقاوموا لكن ما كاد الجيش يعود الى قرطبة حتى رفعوا رؤوسهم وتحركوا وأرسلوا الى ابن حفصون يسألونه المشورة ، واغتنموا فرصة الظلام فأدخلوا بعض جنده الى القلعة ، ولما أدرك ابن حفصون نجاح الخطة اذ رأى المشاعل التي أوقدها أنصاره دخل المدينة فى معظم رجاله فاستولى الذهول من المفاجأة على جند السلطان الذين انتبهوا على صيحات الفرح من جانب عدوهم فلم يفكروا في مقاومته ونزل بهم أشد ضروب العقاب ، فصودرت كل ممتلكاتهم وقتل الوالى الذى عينه السلطان ٠

لما استتب الأمر في ألبيرة لابن حفصون وجه جنده لمحاربة ابن جودى وعرب غرناطة ، وأدرك ابن جودى أن المعركة القادمة ستكون فاصلة ، فاستدعى لنجدته جميع حلفائه الا أنه أصيب بهزيمة نكراء ، ودفعته غفلته للابتعاد عن غرناطة وهي دعامته ، فلقي الكثيرون من جنده مصرعهم اذ كان عليهم أن يسلكوا بقاعا كثيرة قبل أن يستطيعوا العودة الى حصنهم ، ورأى سكان « ألبيرة » في هذا النصر تعويضا كبيرا لهم عن الهزائم التى لحقت بهم من قبل ، والواقع أن فشل العرب كان فشلا ذريعا فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ٠

واستخف النصر ابن حفصون فزحف على « جيان » وواتاه من الفوز مثل الذى واتاه في « ألبيرة » فاستولى عليها ، وولى أمرها حاكما من قبله ، كما أقام بها حامية حتى اذا فرغ من ذلك انقلب الى بوبشترو (٤) ٠

وشاهد عام ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] استرداد ابن حفصون لكل ما كان قد فقده من قبل باستثناء بلاى واستجة ، ولقد ظلت قوته مدة خمس سنوات على حالها ، غير أنه فقد ألبيرة ، ولم تسعفه مفاجآته أنصار السلطان فى هذه المدينة فى التغلب عليها ، بل ان مسلكه تجاههم أحنقهم عليه فأخذوا يترقبون أول بادرة تسنح لهم للتخلص من نيره ، وحانت هذه الفرصة عام ٨٩٣ م [= ٢٨٠ هـ] حين وقف جيش السلطان أمام أبواب مدينتهم بعد غزوة قام بها فى أرباض بوبشترو وأعطى قائده الأمير مطرف أمانا شاملا للسلطان على شرط أن يسلموه جند ابن حفصون وقائدهم ، ورضى الأهالى بذلك نظرا لتأثير رجال السلطان العظيم عليهم ، ومنذ ذلك الوقت عادت ألبيرة الى طاعة السلطان وضعفت الروح الوطنية والحركة ، كما أخذوا يحاربون عرب غرناطة حربا أعنف من محاربتهم السلطان .

ولم يكن استدعاؤهم ابن حفصون الا للوقوف ضد العرب الذين دب اليأس فيهم منذ هزيمتهم فى واقعة غرناطة ، وازداد ضعفهم بما جرى بينهم من الشقاق ، فانقسموا فريقين أحدهما فى جانب سعيد بن جودى والآخر فى جانب محمد بن أضحى سيد الحامة القوى الذى كان سعيد يضمر له البغض الشديد حتى لقد وضع جائزة لمن يأتيه برأسه ، وكانت غفلة سعيد وطيش مسلكه عاملين فى حرج موقفه ، وأدت به غطرسته وخيلاؤه وكثرة مباذله الى كراهية كثير من الزعماء له ، وانتهى الأمر أخيرا بأن قام أحدهم وهو أبو عمر عثمان الذى هدم سعيد سعادته العائلية فصمم أن يمحو عاره بدم الفاسق اذ علم أن امرأته قد واعدت الأمير على اللقاء فى بيت امرأة يهودية فذهب اليه وكمن له هو وبعض أصحابه ، حتى اذا جاء سعيد بن جودى وثب عليه أبو عمر وقتله ، وكان ذلك فى ديسمبر (٥) ٨٩٧ م [= ٢٨٤ هـ] ، وقد أدى هذا القتل الى زيادة اضطراب الأمور ، واغتنم القاتل وجماعته الفرصة فأسرعوا للاعتصام بقلعة « نوالش » شمالى غرناطة وأمروا عليهم ابن أضحى ، ولما كانوا لا يميلون لمعاداة السلطان فقد سألوه أن يقر هذا الاختيار ، وحاولوا أن يفهموه أنهم انما قتلوا سعيدا من أجل صالح الدولة ، زاعمين أنه كان يدبر اشعال الثورة ، وأنه نظم أبياتا يقول فيها :

قل لعبد الله يجـد فى الهرب ... نجـم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنـا ... انما الملك لأبناء العـرب
قربوا السورد (٦) المحلى بالذهب ... واسرجوه ، ان نجمى قد غلب

وغير بعيد أن يكون سعيد هو ناظم هذه الأبيات .

ومهما يكن الأمر فان السلطان الذى فرح بتبرير العرب لموقفهم على هذه الصورة قد أجاز عملهم وأقرهم عليه ، الا أن أصدقاء سعيد القدامى رفضوا الاعتراف بابن أضحى ، اذ أحنقهم وأغاظهم قتل زعيمهم ، ولم يتعزوا عن قتله فتناسوا كل عيوبه ومثالبه التى ارتكبها فى حقهم ولم يعودوا يذكرون سوى حسناته ، فقام أحدهم واسمه مقدام بن معافى ـ وكان سعيد قد جلده ظلما ـ ونظم هذه الأبيات :

من الذى يطعم أو يكسو وقد حوى حلف الندى رمس
لا اخضرت الأرض ولا أورق الـ ـعود ولا أشرقت الشمس
بعد ابن جودى الذى لن يرى أكرم منه الجن والانس

وسمعه عربى وهو ينشد هذه الأبيات فصاح به : « أترثيه وقد أمر بجلدك ؟ » ، فأجابه : « والله انه نفعنى حتى بذنوبه ، ولقد نهانى ذلك الأدب عن مضار جمة كنت أقع فيها على رأسى ، أفلا أرعى له ذلك .. ؟ والله ما ضربنى الا وأنا ظالم له ، أفأبقى على ظلمى له بعد موته ؟ » .

أما أصدقاء سعيد الخلص فقد تطلعوا للانتقام وقال الأسدى من قصيدة طويلة (٧) :

لا ساغت الراح لى من كف ساقيها
حتى تقرب نفسى من تمنيها
وأن أرى الخيل تردى فى أعنتها
لثأر من كان قبل اليوم يرضيها

●●●

وثار أصدقاء سعيد من أجله ، غير أن العرب دأبوا على مناضلة بعضهم البعض فما كان من السلطان والأندلسيين الا أن تركوهم يتناحرون ويتقاتلون فيما بينهم (٨) .

أفاد السلطان فائدة عظمى من خضوع ألبيرة الذى كان فاتحة خير عميم موصول الحلقات ، فقد أدرك عدم جدوى محاربته لابن حفصون ومن ثم وجه جيشه ضد الثوار الذين هم دون ابن حفصون قوة غير باغ من ذلك القضاء عليهم أو الاستيلاء على مدنهم وحصونهم ، بل كان جماع هدفه أن يرغمهم على دفع الجزية اليه (٩) ، ولذلك كان يبعث لهم كل عام بحملة أو حملتين يفسد فيهما حقول القمح أو يحرق القرى ويحاصر الحصون، فان رضى الثوار بدفع الجزية وتسليمه الرهائن تركهم فى سلام وقصد غيرهم لمهاجمتهم ، ولم يكن من شأن هذه الحملات أن تأتى بنتائج حاسمة أو تسفر عن عواقب خطيرة ، لكنها كانت مع ذلك مجدية ، فقد كانت

الخزينة خاوية وأدركت الحكومة أنه ينبغي عليها أن تتجهز بعصب الحرب قبل اقدامها على حرب شاملة ، أعني أنه يجب آن يتوفر عندها المال الذى هيأته لهذه الحملات لا سيما حملة ٨٩٥ م [= ٢٨٢ هـ] ضد اشبيلية التى كانت لا تزال فى نفس الحال ، فعليها وال من قبل السلطان وكان عمه هشام مقيما بها ٠

أما الحكام الحقيقيون فهم بنو حجاج وبنو خلدون الذين كانوا راضين كل الرضى عن مكانتهم التى تهيىء لهم كل مظاهر الاستقلال دون أن يلاحقوا المتاعب التى تصاحب الاستقلال فى العادة فكانوا يفعلون ما يشتهون : لا يدفعون الضرائب على الرغم من أنهم لم يكونوا فى حرب ضد السلطان ، وكانوا يعرفون أنه لا استقامة لمصالحهم الا باستمرار هذه الحال ، حتى كان عام ٨٩٥ م [= ٢٨٢ هـ] حين نادى أحد عمال السلطان بالنهوض للحرب ، فبادر ابراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون [أخو كريب] باجابة الدعوى والمضى الى قرطبة مع أبناء جنسهم ، واقتفى مثلهم حليفهم سليمان صاحب شذونة وأخوه مسلمة ٠

***

كان الجميع يعتقدون أن الحملة ناهضة لمهاجمة المولدين من أهل تدمير ، ويمكن للمرء أن يتصور حيرة كريب وفزعه حين رآى الجيش يزحف على اشبيلية بدلا من الزحف على الشرق ، ووجد سليمان الفرصة للانفلات ، أما بقية ضباط وجنود أشبيلية وشذونة فقد قبض عليهم تنفيذا لأمر الأمير مطرف ٠

كان من الضرورى تنفيذ اجراءات ناجعة حاسمة ، وذلك ما فعله « كريب » فقد احتل هو ورجاله جميع أبواب القصر واتجه شطر البهو فوجد به الأمير هشاما فصاح به وعيناه تتقدان غضبا : « لقد قبض المطرف على أخى ، وانى لمانعك من التسوق وطلب الحاجات ، وأقسم بالله لئن بدر من القائد الى أخى شيء أكرهه لآخذن بثأرى فيك ٠٠٠ ، فكاتبه بالكف عنه وعن قومه ، والرفق بهم ، والاسترحام على نفسك » ٠

كان هشام يعرف أن ليس « كريب » بالرجل الذى يرجع عن تنفيذ تهديداته فبادر فأطاعه الا أن الكتاب الذى بعث به الى المطرف لم يأت بالغرض المنشود ، ذلك أن الأمير تهيأ للزحف على اشبيلية بدلا من اطلاق سراح الأسرى وبعث الى كريب يأمره بفتح الأبواب ، وخاف كريب على حياة أقاربه ، وكره مباشرة عمل ما قبل أن تصله الامدادات المنتظرة من « لبلة » و « شذونة » ، ومن ثم رآى الحكمة فى الاعتدال والمسايرة ،

وأذن لعسكر السلطان بدخول المدينة فى جماعات صغيرة لشراء الطعام ، كما وعد بدفع الجزية واطلاق سراح الأمير هشام الذى لم يكن يهتم بشىء اهتمامه بأن يغادر المدينة سالما ٠

وجه مطرف جيوشه بعد ذلك ضد جند طالب بن مولود المعدى (١٠) وهاجم قلعتى : « مونت قيق » الواقعة على نهر « وادى آره وحصن « أقوظ » (١١) ، واستبسل طالب فى الدفاع ، ثم تعهد بدفع الجزية واعطاء الرهائن وحذت حذوه مدينة « بنى السليم » و « وبر » ، واستولى مطرف بالقتال على « بنريشة » وأقام بها حامية ، غير أن سليمان صاحب هذا الحصن والذى كان اذ ذاك فى « أركش » هاجم جيش السلطان قبل وصوله الى مورة ، وكبده خسائر فادحة ٠

استشاط المطرف غيظا من هذه الهزيمة ، وتجلى غيظه فى الانتقام من ثلاثة من أصـدقاء سـليمان وأقاربه كانوا بين أسراه حيث عمد الى قتلهم ٠

وحوالى شهر أغسطس وجد الجيش نفسـه ثانية أمام اشـبيلية ، واعتقد مطرف أن « كريبا » سيبدى من الطاعة ما أبداه فى المرة الأولى ، ولكن أخطأه التقدير فقد اغتنم « كريب » المهلة التى أتيحت له وصرفها فى اعداد نفسه للدفاع ووصل حلفاؤه الى المدينة ، ومن ثم أبى الخضوع ووجد مطرف حينذاك الأبواب مغلقة ، فقيد بالحديد خالد بن خلدون وابراهيم بن حجاج وغيرهما من الأسرى ، على أن ذلك لم يجده نفعا ولم يفل من شوكه « كريب » الذى عمد الى مغادرة المدينة وباغت طليعة جيش « مطرف » الذى مرت عليه لحظة توقع القوم فيها له الهلاك ، غير أن قواده نجحوا فى تجميع عسكرهم وصدوا الاشبيليين ، وأسرف فى تعذيب خالد وابراهيم ، كما ظل مقيما ثلاثة أيام سويا يهاجم المدينة دون أن ينال منها ما يشتهى ، ولما كان يريد الانتقام جهد ما أمكنه من بنى خلدون وحجاج فقد استولى على حصن لابراهيم قائم على الوادى الكبير ، وأضرم النيران فى السفن التى وجدها فى الحوض ، ثم أمر بهدم البناء ، وقيد ابراهيم من يديه ورجليه وناوله فأسا وأرغمه على العمل فى هدم حصنه كما خرب حصنا آخر لكريب ، فلما فرغ من ذلك كله انقلب الى قرطبة (١٢) ٠

ولما عاد الجيش الى العاصمة ووصلت اليها جزية اشبيلية اقترح أحد الوزراء على سيده الذى كان يعمل جهده على الظفر بابن حفصون وان لم يبذل أى محاولة لمسالة الارستقراطية العربية ، أقول ان أحد الوزراء اقترح على مولاه أن يرد على أسراه حريتهم ، بعـد أن يحملهم على قطع يمين الولاء له ، وقال له : « ان حبسهم عن حصونهم مما لا يؤمن معه تغلب

ابن حفصون عليها ، وهم على كل حال أضعف شوكة منه ، وان توثقت منهم بالايمان ؛ ومننت عليهم بالاطلاق شكروا حادث النعمة » ، فنزل السلطان على هذه المشورة ونادى باطلاق سراح الأسرى على أن يعطوه الرهائن ، وأن يقسموا خمسين مرة بالمسجد الجامع أن يظلوا مقيمين على الاخلاص له ، فأقسموا له كما أراد ، وسلموه الرهائن ، وكان من بينهم ابن ابراهيم البكر واسمه عبد الرحمن ، لكنهم ما كادوا يعودون الى اشبيلية حتى نقضوا عهودهم ورفضوا دفع الجزية وقاموا بالثورة (١٣) ، وتقاسم ابراهيم وكريب الولاية بينهما مناصفة (١٤) ٠

ظلت الأمور على هذا المنوال حتى سنة ٨٩٩ م [= ٢٨٦ هـ] ، غير أن تكافؤ قوة كل من الزعيمين أدت الى انقسامهما على بعضهما فما لبثا أن تنازعا فيما بينهما ، وحاول السلطان اذكاء هذه الفرقة جهد ما أمكن ، فأبلغ « كريبا » ألفاظا كريهة زعم أن ابراهيم قد قالها ضده كما ذكر لابراهيم نوايا كريب السيئة نحوه ٠

وفي ذات يوم تسلم عبد الله من خالد رسالة يذم فيها له ابراهيم فكتب جوابه في نهايتها وأعطاها مع رسائل أخرى الى خادم من الخدم عهد اليه بايصالها ، لكن تهاون الخادم ادى الى سقوط الرسالة منه فالتقطها أحد الخصيان وقرأها فرآها فرصة للحصول على مكافأة طيبة فأعطاها الى رسول من رسل ابراهيم وأوصاه بتسليمها الى مولاه ٠

ما كادت عينا ابراهيم تقعان على المكتوب حتى تأكد لديه أن بني خلدون يتآمرون على سلطته وحريته بل وعلى حياته ، لكنه كان يعرف أن لابد من اصطناع الحيلة ان أراد الانتقام ، ومن ثم تغالى في الظاهر بالود لهم ، ودعاهم لتناول الطعام عنده فأجابوا دعوته ، وبينما هم على المائدة اذا بابراهيم يطلعهم على كتاب خالد وانطلق يسلقهم بألسنة حداد ، فانتصب خالد واقفا واستل خنجره من كمه وضرب به ابراهيم في رأسه فتمزقت قلنسوته وأصابت الجراح وجهه ، وسرعان ما نادى على جنده الذين تكاثروا على رجلي بني خلدون وقتلوهما ورمى ابراهيم برأسيهما في الساحة ، وهاجم حرسهما الموجود بها فقتل البعض وفر البعض الآخر ٠

خلصت سيادة الولاية بلا منازع لابراهيم ، لكنه لما كان يشعر بضرورة تبرير مسلكه أمام السلطان الذى كان لا يزال محتفظا بابنه عنده فقد بعث اليه يقول انه لم يكن له أن يسلك غير ما سلك ، وأن بني خلدون كانوا يحرضونه دائما على الثورة ، وأنه كان في أعماق نفسه لا يقرهم على وجهة نظرهم ، كما تعهد له بتدبير جميع الأموال المطلوبة لبيت المال ، ودفع سبعة آلاف دينار سنويا اذا عينه السلطان حاكما ، فقبل السلطان

عرضه ، غير أنه بعث فى الوقت ذاته الى ولاية اشبيلية شخصا اسمه « القاسم » ليشارك ابراهيم فى حكمها ، ولم يكن ابراهيم راضيا عن وجود شريك له ، وبعد بضعة أشهر أعلن للقاسم أنه زاهد فى خدماته ، شاكرا له اياها .

بعد أن تخلص ابراهيم من القاسم بهذا الأسلوب المتشامخ أراد من السلطان أن يرد عليه ولده ، فكثرت توسلاته اليه من أجل ذلك الغرض ، لكنهـــا باءت بالفشـــل ، وأبى الســلطان أن يتخلى له عن رهينتـــه ، وطمع ابراهيم فى ارهاب السلطان فرفض دفع الجزية وحالف (١٥) ابن حفصون سنة ٩٠٠ م [= ٢٨٧ هـ] .

●●●

كان هذا التحالف فى صالح الزعيم الأندلسى الذى استولى على « استجة » قبل ذلك بثلاث سنوات (١٦) فلما كان العام المنصرم تخلص من تردده واستقر عزمه على التنصر فتنصر هو وجميع أفراد أسرته ، والواقع أنه كان مسيحيا فى قرارة نفسه من زمن بعيد ، ولم يكن يحول بينه وبين اقتفاء مسلك أبيه الذى عاد الى حضن الكنيسة قبل ذلك بعدة سنوات (١٧) سوى خوفه من أن يفقد حلفاءه المسلمين ، وقد برهنت الحوادث على صدق مخاوفه ، اذ انفصل عنه واحد من أبرز قواده وهو يحيى بن أناتول ، الذى كان شديد الرغبة فى العمل تحت امرة عمر بن حفصون المسلم ، ثم أبى عليه ضميره أن يشتغل مع صمويل النصرانى وهو الاسم الذى تسمى به عمر بعد تعميده (١٨) .

كما أن [عوسجة] بن الخليع (١٩) سيد قنيط البربرى وحليف عمر حتى ذلك الوقت أعلن الحرب على ابن حفصون وحاول التقرب من الســلطان ، وهكذا كان لمســلك المرتد وقع عميق فى كل مكـان ، ففزع المسلمون الذين فى اقليم «الكافر» من أن يشغل النصارى الوظائف العليا، كما ضاع أمل المؤمنين الصادقين وخافوا أن تساء معاملتهم ، ودأب البلاط — بمعاونة الفقهاء — على اذاعة هذه الشائعات سواء أكانت حقيقية أم مدسوسة . وحاول أن يؤثر على المخلصين بأن خلاصهم النهائى فى خطر ان لم يقوموا قومة رجل واحد لتحطيم هذا « الخبيث » (٢٠) .

فى تلك الظروف لم يكن هناك أجدى على ابن حفصون من عروض صاحب اشبيلية عليه فقد بحث فى كل مكان عن حلفاء له ، ففاوض ابراهيم بن القاسم صاحب « أرزيلة » فى مراكش (٢١) ، وفاوض بنى قسى (٢٢) وملك ليون (٢٣) ، غير أن تحالفه مع ابن حجاج كان بلا شك أجداها جميعا عليه ، اذ طمع أن يقربه هذا الحلف من نفوس المسلمين فبادر الى عقده .

وأسعفه ابراهيم بالمال والخيل فعادت قوته الى ما كانت عليه سالفا من البأس (٢٤) ٠

عاود سوء الحظ السلطان الذى كانت سياسته تسير عكس ما يشتهى رغم كل ما يفعله ، فقد فشلت المحاولة التى اصطنعها لمسالمة أقوى سيد عربى ، مثلما فشلت محاولاته السابقة فى كسب زعيم الجماعة الاسبانية ، وأصبح موقفه يدعو الى الرثاء ، فقد كان عليه ــ اذا أراد مقاومة التحالف المعقود ضده ــ أن يوجه ضده جميع جنوده مما يحمله على التخلى عن الحملات السنوية التى كان يرغم بها الثوار الآخرين على دفع الجزية له فان هو فعل ذلك وقع فى ورطة الحاجة الى المال ، وواضح أنه لم تكن له حرية الاختيـــار اذ لم يبق أمامه غير سبيل واحد ألا وهو التذلل أمـــام ابن حفصون والاتفاق على شروط صلح يرتضيه الطرفان ، ونحن نجهل ما ارتضياه من الشروط وان كنا نعرف أن أمد المفاوضة طال حتى تم الصلح سنة ٩٠١ م [= ٢٨٩ هـ] فأرسل ابن حفصون الى قرطبة أربع رهائن من بينها أحد صرافيه واسمه خلف وكذلك ابن مستنة (٢٥) ٠

لم يطل أمد هذا السلم بينهما ، وسواء أكان ابن حفصون لم يجد فيه ما كان يؤمله أو أن السلطان لم ينفذ شروط الاتفاق فقد شبت الحرب بينهما عام ٩٠٢ م [= ٢٩٠ هـ] ، ففى هذه السنة تحادث ابن حفصون مع ابن حجاج فى « قرمونة » فقال له : « أنفذ الى خيرة رجالك وول عليهم هذا العربى الكريم (٢٦) ، واننى لماض لقتال ابن أبى عبدة فأظهر عليه وأقتله ثم ننهب قرطبة » ٠

وسمع « فجيـــل » هـــذا الحديث ولما كان عربيا صميما فقد كان أميل للسلطان منه الى هؤلاء الاسبان ، فجرحه أسلوب ابن حفصون الساخر وقال له : « انك لتعلم انك من نفل الذين عليهم مداره من ذوى الحمية ، وهم كثير » ٠

فقال له ابن حفصون :« ومن هو ابن أبى عبدة هذا حتى تخوفنيه ؟٠٠ وهل عنده من الرجال ما عندى ؟ » ٠

فأجابه به : « انه والله ما يرضى بالفرار » ٠

ووافق ابن حجاج على خطة حليفة رغم معارضة « فجيل » وأمر قائده بالانضمام اليه ٠

وعلم ابن حفصون من جواسيسه أن القائد الأموى غادر « شنيل » ، وأنه ضرب خيامه فى « اسطبة » فمضى ابن حفصون لمهاجمته ، وعلى الرغم

من أنه لم يكن معه سوى فرسانه فقد كان انتصاره كبيرا ، وقتل ما ينيف على خمسمائة رجل من العدو ، حتى اذا دنا المساء وصل مشاته الى ميدان القتال وكانوا خمسة آلاف رجل فلم يدعهم يستجمون بل أمرهم بالتقدم في لحظتهم ثم دخل خيمة « فجيل » وقال له : « هلا نهضت للقتال ؟ » فسأله : « ومن أقاتل ؟ » قال : « تقاتل ابن أبي عبدة ! » فأجابه فجيل : « الرجل حمى الأنفة ، عظيم الهمة ، لو اجتمع عليه أهل الأندلس ما رضى بالفرار ولا ركب طريقه ، وقتحان في يوم واحد تحكم على الله واحتقار لما ابتدأ به من النعمة ، وقد تهيأت لك وقعة يتحير في ذلها مدة ، وبالحرى أن تدرك منه فرصة فحد عنه جهدك ، وخله والطريق ، وتهن مسرة فتحك » .

فقال ابن حفصون : « ما أبعده مما ظننت ، وما هو الا أن يشعر بنا فيركض فرسه ويطير على وجهه ، وحماداه أن يفوتنا بركضه ، وغدا يدخل قرطبة لا محالة لا يستثنى في أمنته » فنهض ابن فجيل ولبس سلاحه ودرعه وقال : « اللهم انك تعلم أني بريء من شؤم هذا الرأى فسلمني من خطئه » .

● ● ●

بينما كان المتحالفون يسيرون صامتين بغية مفاجأة العدو كان ابن أبي عبدة - وهو لايزال خجلا من هزيمته - جالسا الى احدى الموائد ، واذا به ينتبه فجأة الى عاصفة من العجاج ثارت على مسافة بعيدة فقام للحال واحد من أحسن رجالاته واسمه « عبد الواحد الروطي » وغادر الفسطاط ليتبين الأمر ثم عاد ليقول : « ان غبش الظلام يطمس المعالم أمامي ، لكنى أحسب أن ابن حفصون قادم نحونا برجاله وفرسانه ليفجؤنا » .

ما كاد «الروطي» يقول هذا حتى بادر الضباط الى سلاحهم وجروا الى خيولهم فاعتلوا ظهورها واستصحبوا رجالهم لصد العدو،حتى اذا صاروا على مقربة منه صاح كثير من الجند « أغمدوا الرماح وأشهروا السيوف ! »، فلبى القوم أمرهم واذ ذاك هاجم رجال السلطان أعداءهم في ضراوة شديدة حتى لقد قضوا على أكثر من ألف وخمسمائة رجل منهم وأرغموهم على طلب النجاة في الهروب الى مخيماتهم .

فلما كان صباح اليوم التالي بلغ السلطان خبر انتصار جيشه بعد هزيمته ، فأظهر غضبه على المتحالفين وأمر بقتل من عنده من رهائنهم ، وأجهز بيده على ثلاثة منهم ، أما الرابع وهو ابن مستنة فقد أبقى السلطان على حياته اذ قطع العهد على نفسه أن يخلص للسلطان منذ الآن (٢٧) .

● ● ●

جاء دور عبد الرحمن بن حجاج الذى لم يدخر أبوه المال ولا المواعيد في سبيل توفير أصدقاء له في البلاط ، ودأب على القول بأنه عائد الى

طاعة السلطان حالما يرد عليه ابنه (٢٨) ، فكان من أصدقائه « بدر الصقلبى » الذى جرؤ على الاشارة الى ذلك القول أمام السلطان وهو يتهيئو لقتل عبد الرحمن [ابن حجاج] قائلا له : « يا مولاى عندى نصيحة تسمعها وان لم يكن من قدر مثلى الاشارة عليك بالنصح ، فقد نفذ قتل ابن أخى ابن حفصون بقدر لا يرد ، فان قلت ولد ابن حجاج معه فى مقام واحد عقدت ما بينهما من الحلف ما بقيا ، وابن حجاج عربى ترجى فيأته ، وابن حفصون مولد لا تطفأ غلته»،فاستدعى السلطان وزراءه(٢٩) وسألهم الرأى فاستصوبوا رأى بدر ، فلما خرجوا من عنده عاد بدر لمحادثة مولاه مؤكدا قدرته على الاعتماد فى المستقبل على اخلاص الزعيم الاشبيلى ابن حجاج ان هو رد عليه ابنه عبد الرحمن ورد على عبد الرحمن [بن حجاج] حريته ، فلما رأى [بدر] تردد مولاه وتوسل اليه بصديق له من ذوى النفوذ هو الخازن التجيبى فى أن يشير عليه بالرأى الذى ارتآه بدر والأخذ به فى كتاب يرفعه اليه ، فلما طالعه عبد الله تلاشى تردده وطلب الى التجيبى أن يبعث بعبد الرحمن [بن حجاج] الى أبيه (٣٠) ٠

لن نصف الفرحة الغامرة التى أحسها ابن حجاج حين ضم الى صدره ابنه البكر الذى افتقده سنوات عدة ، وفى هذه المرة أظهر عرفانه للجميل بصورة أعظم من كل مرة سابقة ، ولقد صدق حينما قال فى الخطاب الذى وجهه الى السلطان بعد موت رجلى ابن خلدون أن هذين كانا يدفعانه دائما على الثورة ، وكان « كريب » شيطان سوء له ، فلما مات هذا الخائن الطماع تغير ابن حجاج تغيرا تاما ، فهو ـ وان لم يقطع علاقاته مع ابن حفصون الذى دأب على وصله بالهدايا ـ الا أنه لم يعد حليفه ، كما أخذ يبعث فى انتظام الى السلطان بالجزية والرجال بدلا من مناجزته العداء (٣١)، وأصبحت علاقاته به منذ ذلك الوقت علاقة الأمير الاقطاعى بسيده الا أنه كان مطلق التصرف فى أملاكه ، فكان له جيشه الخاص به يدفع له أجره من جيبه كما يدفع السلطان رواتب عسكره الخاص ، وكان هو الذى يعين جميع الموظفين بأشبيلية من القاضى وصاحب الشرطة الى أقل حاجب أو حارس للمدينة ، ولم يكن ينقصه أبدا شيء من الأبهة الملوكية ، فكان له مجلس قضاء وجيش يتألف من خمسمائة فارس ، وكانت الطرز تخرج باسمه ، ولقد أحسن استعمال سلطته فكان شديدا فى الحق حتى انه لا تأخذه هوادة فى الضرب على أيدى المجرمين ، وأقر النظام بيد من حديد ، فكان أميرا وتاجرا وأديبا ومحبا للفنون ، وكانت سفنه تأتى اليه محملة بهدايا الحكام عبر البحار وبأقمشة مصر ، ويفد عليه علماء بلاد العرب ومغنيات بغداد ، ودفع مبلغا جسيما فى « قمر » الجميلة (٣٢) التى سمع الثناء المستطاب على مواهبها ، كما استقدم الى بلاطه أبا محمد العذرى(٣٣) البدوى أحد علماء اللغة بالحجاز ٠

وكان العذرى نسيج وحده فى فصاحة اللغة وجمال التعبير ، وكانت « قمر » الرقيقة تضم الى موهبتها الغنائية فصاحة طبيعية وعبقرية شعرية ، وكانت عالمة بضروب الادب ، وفى ذات يوم عرض بعض الجهال الذين يتفاخرون بشرف مولدهم بأصلها وماضيها فقالت (٣٤) :

قالوا أتت « قمر » فى زى أطمار … من بعدما هتكت قلبا بأشعار
تمشى على وجل ، تغدو على سبل … تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هى من أحرار موضعها … ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم … لله من أمة تزرى بأحرار
ما لابن آدم فخر غير همته … بعد الديانة والاخلاص للبارى
دعنى من الجهل لا أرضى بصاحبه … لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنة الا لجاهله … رضيت من حكم رب الناس بالنار

ويبدو أن قمرا لم تكن توقر عرب الأندلس ، ولما كانت قد تعودت بشاشة بغداد المستملحة فقد وجدت نفسها ملقاة فى بلد لا يزال يحتفظ الى حد بعيد بمظاهر خشونة العهد القديم ، ولم يلق أحد من قبول لديهم غير الأمير الذى قالت تمدحه :

ما فى المغارب من كريم يرتجى … الا حليف الجود ابراهيم
انى حللت لديه منزل نعمة … كل المنازل ـ ماعداه ـ ذميم (٣٥)

لم تبالغ قمر فى امتداحها ما كان عليه ابراهيم من السخاء الذى شهد له به الجميع فوفد عليه زرافات من شعراء قرطبة التى كان سلطانها البخيل يكاد يتركهم يموتون جوعا ، وكان على رأسهم شاعر القصر ابن عبد ربه (٣٦) ، فما قصر ابراهيم أبدا فى وصلهم وصلا جميلا ، وحدث فى مرة واحدة فقط أن كف يده عن العطاء وذلك حين أنشده القلفاط (٣٧) ـ وكان هجاء مقذعا ـ قصيدة تفيض بالسخرية المريرة من وزراء قرطبة ورجال البلاط فيها ، وعلى الرغم من أن ابن حجاج كان يكره بعضهم الا أنه لم يبد أى مظهر من مظاهر الاستحسان لهجوهم ، فلما فرغ الشاعر قال له فى برود « أخطأت ان كنت تحسبنى ممن يغرهم النيل من غيره ! » .

وعاد القلفاط الى قرطبة صفر اليدين يائسا مغضبا ، فنفس عن حقده بقوله :

لا تنكرى للبين طول بكائى … فالبين برح بى وعيز عزائى
أبغى نوال الاكرمين معا ، ولا … أبغى نوال البومة البكماء

ولم يكن ابن حجاج بالرجل الذى يحتمل أمثال هذه السفاهات فلما سمع كيف انتقم الشاعر منه كتب اليه يقول : « والله الذى لا اله الا هو لئن لم تكف عنى ما أخذت فيه لآمرن من يأخذ رأسك وأنت فى فراشك » •

ومنذ ذلك الحين كف القلفاط عن هجو صاحب اشبيلية (٣٨) ٠

***

الفصل السابع عشر

استسلام اشبيلية للسلطان عبد الله ثم استسلام بقية الأقاليم له • الانتصارات السلطانية • «لب» يوادع السلطان• موت عبد الله واستخلاف عبد الرحمن الثالث وسياسته الصريحة• توالى هزائم الثوار وضعف حماستهم • ابن حفصون يضاعف من كراهيته للعرب والمسلمين • تطلع « أرجنتيا » بنت ابن حفصون للاستشهاد • قيام عبد الرحمن الثالث بمهاجمة حصنى جيان والمنتلون • استسلام كثير من حلفاء ابن حفصون لعبد الرحمن • انتصارات عبد الرحمن المتتالية• الأرستقراطية الاشبيلية تتطلع الى ابن حفصون ولكنها تمنى بالهزيمة أمام عسكر عبد الرحمن الذى تعتزم قواته مهاجمة مرية • استيلاؤه على حصن طرش • المجاعة تجتاح قرطبة • نهاية ابن حفصون وموته •

الفصل السابع عشر

عهد عبد الرحمن الثالث

كان اتفاق السلطان مع ابن حجاج فاتحة عهد جديد هو عهد استقرار قوة السلطان ، فقد كانت اشبيلية مركز الثوار في جميع أنحاء الغرب ، فلما استسلمت وجدت جميع الأقاليم الممتدة من الجزيرة الخضراء حتى لبلة نفسها مضطرة هي الأخرى للاستسلام (١) ، وقد دأبت هذه الولايات ـ في السنوات التسع الختامية من حكم عبد الله ـ على دفع الجزية بانتظام تام ، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لارسال الجند اليها ، واستطاع السلطان اذ ذاك توجيه كل قواته ضد الجنوب ويرجع الفضـل في هذه النتيجة الطيبة الى نصـيحة بدر الحكيمة ، لذلك لم يتوان السـلطان عن اظهار امتنانه له ، فلقبه بالوزير وأدناه اليه ووثق به ثقة بالغة حتى ان بدرا رغم انه لم يكن حاجبا الا أنه « كان الحاجب في الحقيقة (٢) » ·

لقيت جيوش السلطان في الجنوب انتصارات توالى بعضها في اثر بعض فاستولى جنده عام ٩٠٣ م [= ٢٩١ ـ ٢٩٢ هـ] على « جيان » ، وانتصروا سنة ٩٠٥ م [= ٢٩٣ هـ] في معركة وادي بولون على ابن حفصون وابن مستنة (٣) ·

كذلك انتزع السـلطان قنيط من بني الخليع (٤) سنة ٩٠٦ م [= ٢٩٤ هـ] ، فلما كان العام التالي ٩٠٧ م [٢٩٥ ـ ٥٢٩٦] استخلص « لوقة » من ابن مستنة (٥) ، كما استولى على « بياسة (٦) ، في سنة ٩١٠ م [٢٩٨ ـ ٢٩٩ هـ] ، كما ثار في السنة التالية سكان « أشر » على مولاهم « فضل بن سلمة » صهر ابن مستنة فقتلوه وبعثوا برأسه الى السلطان (٧) الذي أصاب نفس هذا التوفيق في الشمال ، فقد حدث في سنة ٨٩٨ م [= ٢٨٥ هـ] أنه اشتد الخوف من اتحاد أقوى رجل في الشمال مع أقوى رجل في الجنوب ، اذ وعد محمد بن لب ـ من بني

قسى ــ بالشخوص الى ولاية جيان للاتفاق مع ابن حفصون ، وحالت حربه مع الانقر (٨) حاكم سرقسطة من المجيء بشخصه ، فأرسل مكانه ابنه « لبا » الذى بلغ « جيان » وتلبث ينتظر مقدم ابن حفصون ، واذا به يعلم بنبأ مقتل أبيه وهو قائم على حصار سرقسطة وذلك فى أكتوبر ٨٩٨ م [= ربيع الآخر ٢٨٥ هـ] ومن ثم عاد الى بلده دون أن ينتظر مجيء ابن حفصون ، وانطوى كل خبر عن مشروع التحالف الذى كان يقض مضجع البلاط (٩) ٠

بذل لب كل جهده فى الحصول على عطف السلطان عليه بدلا من مناجزته العداء ، فعينه السلطان حاكما على تطيلة و « طرزون » ، واستعمل « لب » قواته فى حروبه الدائمة ضد جيرانه ومنهم صاحب وشقة وملك ليون وكونت برشلونه وكونت « بلادز » وملك نفارة ، ولم يكف عن محاربتهم حتى لاقى منيته فى معركة ضد ملك نفارة (١٠) سنة ٩٠٧ م [= ٢٩٥ هـ] فلما خلفه أخوه عبد الله لم يحارب السلطان بل حارب ملك نفارة (١١) ، واذ ذاك لم يعد بنو قسى خطرا على الأمويين ٠

كانت الأمور تجرى فى كل مكان وفق ما يشتهى السلطان ، فكان أهل قرطبة ينظرون فى طمأنينة الى الغد (١٢) ، وراح الشعراء ينظمون أناشيد النصر التى بعد العهد بينهم وبينها منذ تسع سنوات ، وكانت قوة عبد الرحمن تخطو خطوات وئيدة الى الأمام ولكن لم يتم شيء ذو بال حتى كان يوم ١٥ أكتوبر ٩١٢ م [= الثالث من ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ] حين مات عبد الله فى الثامنة والستين من عمره بعد أن امتد حكمه أربعة وعشرين عاما (١٣) ٠

***

كان اسم ولى العهد عبد الرحمن وهو حفيد عبد الله ابن محمد البائس الذى قتله أخوه مطرف بأمر أبيه (١٤) ، فدرج عبد الرحمن فى مهاد اليتم ، وكفله جده الذى كان ضميره يوخزه على الدوام ، ومن ثم أحاط هذا الطفل الصغير بكل عطفه ، واختاره منذ زمن بعيد ليكون خليفة من بعده (١٥) ، ولما كان عبد الرحمن لا يعدو الثانية والعشرين (١٦) من عمره فقد خيف أن ينازعه أعمامه التاج اذ لم يكن ثم قانون للوراثة فقد جرت العادة أن يعتلى العرش ــ حين يخلو العرش من جالس عليه ــ الابن البكر أو أقوى رجال الأسرة المالكة ، ولكن الأمور سارت على عكس ما كان متوقعا ، فلم يعارض أحد فى اختيار عبد الرحمن الذى رحب به جميع الأمراء ورجال الحاشية ، ورأوا فيه الدليل على مقدم الرخاء والمجد ، وقد عرف الأمير

الشاب كيف يجتذب العطف عليه وأوحى الى جميع من عرفوه بفكرة عالية عن مواهبه (١٧) ٠

ومع أن عبد الرحمن الثالث قد تابع العمل الذى بدأه جده الا أنه اصطنع لذلك وسيلة أخرى فاستبدل بسياسة عبد الله الرجعية الملتوية سياسة تتسم بالصدق والجرأة والاقدام ، ودفعه ازدراؤه للوسائل المعوجة الى مصارحة الثوار الاسبان والعرب والبربر أن ليست الجزية هى غاية ما يطلبه منهم بل انه يطلب أيضا حصونهم ومدنهم ، ووعد الذين يخضعون له بالعفو الشامل ، وهدد من ليسوا كذلك بالعقاب الشديد ٠

وخيل للناس أن هذه المطالب لابد وأن تدفع اسبانيا كلها للتكاتف ضده ، لكن لم يحدث شيء من ذلك أبدا ، فلم تجر شدته المتاعب عليه بل كبحت الجماح ، كما أن الخطة التى انتهجها لم تكن بعيدة عن الصواب ، فقد كانت خطة نيرة أملتها ظروف الأحداث الجارية ومقتضيات الأحوال ٠

وحدث التطور بالتدريج ، ولم تبق الأرستقراطية العربية على ما كانت عليه من البأس فى مستهل حكم عبد الله ، اذ فقدت أبرز رجالها بموت سعيد بن جودى وكريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج (١٨) ، وخلا الميدان من رجل تؤهله مواهبه وقدرته على سد الفراغ الناجم عن موت هؤلا الرجال البارزين ٠

لكن بقى الفريق الاسبانى الذى كان معظم زعمائه لا يزالون على قيد الحياة ، ولم يفقد هذا الفريق كثيرا من قوته ، غير أن الشيخوخة كانت قد دبت فى هؤلاء الزعماء الذين لم تعد جماعتهم — كما كانت من قبل ثلاثين سنة — تفيض حماسة وحمية فتقوم قومة رجل واحد استجابة لدعوة ابن حفصون لخلع النير الأجنبى ، بل خمدت هذه الحمية الأولى وانطفأ سعيرها ، وانقضى جيل ٨٨٤ م [= ٢٧١ هـ] المتحمس الثائر ، وخلفه جيل جديد لم يرث عن سلفه آلامه وأنفته ، ولا مشاعره وحماسته ، ولم يعد هناك ما يدعو الى كراهية الحكومة اذ لم تتعرض لهذا الجيل بالضغط ، ومع ما كان يشعر به هذا الجيل من البؤس فى أعماقه ، وعلى الرغم من تذمره الا أنه لم يكن يشكو من الاستبداد قدر شكايته من الفوضى والحروب الأهلية لما كان يشاهده كل يوم من قيام جند السلطان وجماعات الثوار بتخريب الحقول التى تمدهم بالغلة الوفيرة وقطعهم أشجار الزيتون المثمرة وأشجار البرتقال ، وحرقهم الدساكر والقرى ، ومع أن عرش السلطان كان يضطرب فى بعض الأحيان الا أنه كان يعود ثانية كالطود الراسخ مما لم يكن مشجعا لهذا الجيل على عمل ما ، ودلت الجميع غرائزهم على أنه اذا كانت الثورة الوطنية الكبرى قد عجزت عن تحقيق

أهدافها ابان الفترة الأولى من الحماسة فلن يتأتى لها بعد ذلك أبدا تحقيق هذا الهدف، واذا كان هذا هو الشعور السائد فى الوقت الذى كان الفريقان فيه يتناوبان النصر والهزيمة فقد تأكد هذا الشعور فى النفوس تأكيدا راسخا حين لم يعد الثوار يلقون غير الهزيمة بدل النصر ، وغير التقهقر بدل التقدم ، وبدأ الناس حينذاك يتساءلون عن الجدوى من قتل هؤلاء الشجعان وموتهم ، وعما اذا كان هذا عقابا للقتل والتدمير اللذين لا يرضاهما الله ، وكان أول المتسائلين بهذا السؤال هم سكان المدن الكبرى الذين كانوا أميل الناس للراحة وأرغبهم فى الرفاهية ، ولم يجدوا جوابا مقنعا عن سؤالهم هذا ، وقالوا بأن التمتع بالسلم أجدى عليهم من الحروب الأهلية التى تصحبها الاضطرابات وتعقبها الفوضى ، فأذعنت البيرة من تلقاء ذاتها وسقطت جيان ودفعت أرشذونة الجزية ، أما سيرانيا Serrania مهد الثورة فلم تخمد حماستها بسرعة لكن أخذت تظهر فيها دلائل الضعف وعلامات التخاذل ، فلم يعد الجبليون يبادرون الى الانضمام الى الراية الوطنية ، حتى لقد اضطر ابن حفصون لأن يقتفى أثر السلطان في استعماله الجنود المرتزقة من طنجة (١٩) ، ومنذ ذلك الحين أخذت الحرب تفقد كثيرا من طابعها الأول ، واتسمت بازدياد التخريب اذ كان هدف كل من الفريقين افقار الآخر حتى يعجز عن دفع رواتب جنده الافريقيين ، وأصبحت الحرب تنقصها الحماسة العنيفة التى كانت تتسم بها من قبل فلم تعد حربا دامية، وكان بربر طنجة على استعداد على الدوام للعمل تحت راية أى فريق يلوح لهم بأتفه زيادة فى رواتبهم (٢٠) ، فلم يكونوا يرون الحرب سوى وسيلة سهلة لقضاء الفراغ والتسلية ، فكانوا يحاربون خصومهم الذين كانوا أصدقاءهم بالأمس وربما صاروا كذلك فى الغد ، وكان قتلاهم فى أكثر المعارك لا يتجاوزون اثنين أو ثلاثة ، وربما لم يقتل أحد منهم فى بعض الأحيان ، وكانوا يكتفون من الحرب بجراح تصيب بعض رجالهم وبقتل بعض الخيل (٢١) ، ولا شك أن الرغبة فى الحصول على الاستقلال بمعونة مثل هؤلاء الجند وفي وقت لم يعد به التجنيد من المتحمسين الثائرين كافيا ... لا شك أنه مشروع خيالى ، والظاهر أن ابن حفصون قد أدرك هذا الأمر وعرف تلك الحقيقة فاعترف فى سنة ٩٠٩ م [= ٢٩٧ ـ ٢٩٨ هـ] بسيادة عبيد الله الشيعى الذى انتزع الشمال الافريقى من الأغالبة (٢١) ، ولم يؤد هذا التحالف الغريب الى اى فائدة ، لكنه دل على أن ابن حفصون لم يعد يعتمد على أبناء بلده .

والى جانب أسباب الانحطاط العام فى اليقين والشجاعة فانه يجب علينا أن نذكر تدهور القيم المعنوية عند السادة أصحاب القصور لا سيما فى ولايتى جيان وألبيرة الذين نسوا أنهم امتشقوا الحسام من أجل الدافع الوطنى ثم أصبحوا فى قصورهم ذات الأبراج العالية لصوصا لا يردعهم

رادع من قانون ولا دين ، وأصبح هؤلاء السادة يتربصـــون فى قلاعهم للمسافرين وينقضون عليهم انقضاض الصقر على الفريسة غير مفرقين بين عدو وصديق ، فراح الناس فى كل دسكرة وقرية يلعنون هؤلاء الطغاة ، أما من تحدثه نفسه بتخريب أبراجهم الضخمة وهدم أسوارهم الحصينة فكان يستحق شكر المقيمين بتلك الناحية ، لكن من ذا الذى يقدم على هذا العمل وقد أحجم السلطان ذاته عنه ؟

ثم أليس من الطبيعى بأن تلتف آمال الشعب المنكود حول سلطانه ؟

زد على ذلك أنه ينبغى علينا أن نلاحظ أن الصراع فقد طابعه الوطنى والعالمى الذى امتاز به فى البداية وأصبح صراعا دينيا بحتا ٠

لم يكن ابن حفصون يفرق فى مستهل الأمر بين المسلمين والمسيحيين، ولم يكن يسأل أحدا ما عما هو عليه من دين ، بل تكفيه اسبانيته ورغبته فى الدفاع عن الصالح العام ومعرفته أساليب القتال ، لكن تغير كل شئ منذ أن جاهر هو وحليفه القوى ابن منتسة (٢٢) باعتناقهما النصرانية ، ومنذ أن استردت هذه الملة قوتها السالفة ، ومنذ أن أخذت الكنائس الفخمة تقام فى كل مكان ، ولم يعد ابن حفصون ــ أو صمويل كما سمى نفسه ــ يثق بغير النصارى الذين اقتصرت عليهم الوظائف السامية ، وخصــهم بالمراتب الرفيعة ، كما غدت « بوبشترو » بؤرة للتعصب الشديد الذى يضارع التعصب الذى كان يضطرم فى نفوس رهبان قرطبة قبل ستين عامــا ٠

وقامت «أرجنتا» بنت ابن حفصون المتحمسة منكرة على أبيها الحاحه عليها الانصراف الى شئون البيت بعد موت زوجها « كولومبرا » ، وأقامت فى القصر نفسه شبه دير ، ولما كانت يائسة كغيرها من انتصار الأندلسيين فقد تطلعت للاستشهاد لا سيما حين تنبأ لها أحد الرهبان بأنها ستموت فى سبيل المسيح (٢٣) ٠

ولقد وقف هذا التحمس الدينى والاستخفاف بالمسلمين حجر عثرة أمام المحاربين من أجل استقلال البلد ، وكان الكثيرون منهم ــ رغم كراهيتهم للعرب ــ شديدى التعلق بالدين الذى أخذوه عنهم ، اذ يجب ألا ننسى أن الاســبانى شــديد التعصب للدين الذى يعتنقه ، فعمل العبيد القدامى وأبناؤهم جهدهم على الحيلولة دون سيادة النصرانية مرة أخرى لأنها اذا عادت عادت معها الادعاءات القديمة البالية التى سيكونون ضحية لها ، ومن ثم أخذ الاسبان ــ المسلمون والمسيحيون ــ ينظرون الى بعضهم نظرة الغيرة والحقد فى كل مكان ، حتى لقد شبت بينهم فى بعض المناطق حروب

دامية ، وقد حدث فى ولاية جيان أن استعاد « ابن الشالون » (٢٤) قلعة Cazlona التى كان النصارى قد سلبوها منه ، كما قتل جميع حاميتها سنة ٨٩٨ م [= ٢٨٥/٢٨٦ هـ] .

غير أن هذا الفريق كان أقل قوة مما يخطر بالبال ، اذ انطفأت فيه جذوة الحماسة التى تستطيع وحدها القيام بأعمال البطولة والعظمة ، ويرجع انطفاؤها لتفرق رجال ذلك الفريق أيدى سبا ولعدم استطاعته البقاء الا بواسطة استئجار المرتزقة الافريقيين فدبت فيه الفوضى ، اذ كان بين رجاله فئة تكره فكرة الاتفاق مع السلطان وهو المدافع الطبيعى عن الأمور لا سيما اذا كان هذا السلطان هو عبد الله (٢٥) .

كان من المستحيل على تلك الفئة أن تضع يدها فى يد ذلك الطاغية الفظ الذى دس السم لاثنين من اخوته وشنق ثالثا ، كما قتل اثنين من أبنائه لمجرد الشك البسيط « دون أن يحاكمهم » .

●●●

مات عبد الله وخلفه سلطان ليس على شاكلته ، لكن كان له ما يجتذب اليه عطف الشعب وثقته فيه ، وكان فيه كل ما يسر هذا الشعب ويحببه اليه ويدفعه الى طاعته ، كما كان له ذلك المظهر الخارجى الذى لم ينله الحاكمون جزافا ، فكان على جانب كبير من الظرف الجذاب مما هيأ له الأبهة (٢٦) ودفع كل من عرفه من قرب للثناء عليه والى امتداح خصاله والاشادة برحمته وطيبته التى تجلت فى تخفيف (٢٧) الضرائب ، كما عطف عليه ذوو القلوب الرحيمة لنكبة أبيه المقتول فى نضرة شبابه ، ولم ينس الناس أن هذا الأب قد لاذ ببوشترو مستعيذا بها ، وأنه انضم حينذاك للراية الوطنية .

اعتلى الحاكم الشاب العرش وسط مظاهر العطف الشديد عليه ، ووجدت المدن الكبرى غاية أمانيها فى فتح أبوابها له ، وضربت « أستجة » المثل فلم ينقض شهران ونصف شهر على موت عبد الله حتى استسلمت يوم ٣١ ديسمبر ٩١٢ م [= ١٥ جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ] لمحاصرها بدر الذى لقب فيما بعد بالحاجب (٢٨) ، غير أن عبد الرحمن أراد أن يكلل هامته بالغار فى ميدان القتال ، فما أقبل الربيع أعنى ابريل ٩١٣ م [= ٣٠١ هـ] حتى تسلم قيادة الجيش ومضى لاخضاع أصحاب حصن «جيان» ، وكان الجند لم يروا منذ سنوات سلطانا يتولى قيادتهم اذ لم يساهم عبد الله فى القتال منذ حملته على « كركبولية » (٢٩) سنة ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] ولا شك أنه كان لتغيب السلطان أثر سيىء فى نفسية الجنود ، أما الآن فقد هتفوا فى حماسة للحاكم الشاب الألمعى الذى أراد مشاطرتهم فى فخرهم وفيما يكابدونه من المتاعب والأخطار .

وصل عبد الرحمن الى « جيان » فعلم باتصال ابن حفصون بالحزب الثائر فى « أرشذونة » (٣٠) وبتطلعه الى الاستيلاء عليها ، فأرسل فى لحظته احدى الكتائب وأمر قائدها بمهاجمة البلد بأقصى سرعة ممكنة ، فنفذ القائد الأمر مما أدى الى فجيعة ابن حفصون فى أمله ·

ثم مضى السلطان فحاصر « المنتلون » وكان صاحب حصنها سعيد ابن هذيل أحد حلفاء ابن حفصون القدامى فآثر المفاوضة على الحرب لكنه أبصر الحصن وقد أحدق به العسكر السلطانى يوم الأحد ، ثم ما لبث أن وقع فى أيديهم يوم الثلاثاء ·

أما ابن الشالية : اسحق بن ابراهيم بن منتسة فقد قام هو وسبعة (٣١) آخرون من أصحاب القلاع فخضعوا للسلطان قبل أن يظهر أمام حصونهم وطلبوا الأمان لأنفسهم ومن يلوذ بهم ، فاستجاب لهم عبد الرحمن وأرسلهم الى قرطبة محروسين مع نسائهم وذراريهم ، وأقام قواده فى القلاع التى خرج عنها هؤلاء ، وجرت مثل هذه الأمور فى ولاية « البيرة » ، ولم يجد السلطان شيئا من المقاومة الا عندما وقف أمام « فنت طحنة » التى يغلب عليها أنصار ابن حفصون الذين ألقوا فى روع بقية سكانها أن المدينة منيعة على من يرومها ، ومع ذلك فلم يطل أمد مقاومتها اذ ما كاد أهلها يرون النار ترعى فى البيوت القائمة على صخور الجبل الذى تقوم عليه مدينتهم حتى شرعوا فى المفاوضة ، ونزلوا عند طلب السلطان فسلموه المتمردين ، ثم خاطر عبد الرحمن بنفسه فى شعاب « سيرانيفادة » الوعرة فاستسلم له جميع أصحاب الحصون بلا استثناء ، وحينذاك سمع السلطان أن ابن حفصون يهدد « البيرة » فبادر بارسال نجدة لها ، فلما وفد ذلك المدد على حاميتها هزت الحماسة الحامية فخرجت لدفع المهاجم واصطدمت به قرب غرناطة ، وهزمته ، وأسرت أحد حفدة ابن حفصون ·

فى هذه الأثناء كان عبد الرحمن مقيما على حصار Joviles التى هرب اليها نصارى القلاع الأخرى ، فظل محاصرا لها خمسة عشر يوما حتى استرحمه مسلمو الأندلس ووعدوه بتسليمه النصارى الموجودين لديهم وبروا بوعدهم ، ثم مر السلطان بعد ذلك على مدينة Salobrena وسار فى طريق « البيرة » وهاجم شنت اشتيبن و « بينا فورتا » واستولى عليهما ، وكانا معقلين من أقوى المعاقل يبعثان الفزع ويبثان الخوف فى قلوب سكان البيرة وغرناطة ·

بذلك تخلصت ولايتا البيرة وجيان من اللصوص واطمأنتا ، وكانت هذه الحملة التى استغرقت ثلاثة أشهر كافية لتحقيق هذه النتيجة الهامة (٣٢) ·

***

جاء بعد ذلك دور الارستقراطية الأشبيلية .

ذلك أنه بعد موت ابراهيم بن حجاج خلفه ابنه البكر عبد الرحمن فى أشبيلية وابنه الثانى فى قرمونة ، غير أن الموت عاجل عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج سنة ٩١٣ م [= ٣٠١ هـ] فتاق ابنه محمد (الذى كان محبوبا من الشعراء لوصله اياهم بالعطايا شأن أبيه من قبل) لحكم أشبيلية أيضا فلم يفلح فى تحقيق ما تطلع اليه ، فحاول التقرب من السلطان ، غير أن القوم فى أشبيلية كانوا يطلبون الاستقلال فاتهموه — وربما كان ذلك افتراء منهم — أقول اتهموه بأنه دس السم لأخيه ، وما كان أشد نكبته حين اختير ابن عمه أحمد بن مسلمة — وكان محاربا باسلا — وبذلك جرح محمد جرحا عميقا ، ومضى الى البلاط ليعرض خدماته على السلطان الذى كان قد بعث جيشا ضد أشبيلية لعدم رغبته فى الاعتراف بالحاكم الجديد .

واشتد الحصار شدة أرغمت أحمد بن مسلمة على البحث عن حليف له فاستنجد بابن حفصون الذى مد يده مرة أخرى لمعاونة الارستقراطية العربية المهددة ، غير أن الحظ قلب له ظهر المجن فما كاد يغادر اشبيلية بحلفائه لمهاجمة جنود السلطان الذين عسكروا على شاطىء الوادى الكبير الأيمن حتى منى بهزيمة ساحقة ، وترك الأشبيليين يواجهون الموقف بما لديهم من قوة ، وعاد هو على جناح السرعة الى بوبشترو .

حينذاك أدرك أحمد بن مسلمة ونبلاؤ أشبيلية الآخرون ألا جدوى تعود عليهم من وراء استمرارهم فى المقاومة ، ومن ثم أخذوا فى مفاوضة « بدر » الذى وصل الى العسكر ، وفى يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٩١٣ م [= ٢٦ جمادى الأولى ٣٠١ هـ] فتحوا أبواب مدينتهم بعد أن أخذوا العهد بأن تبقى الحكومة الأمور والعادات على ما كانت عليه أيام بنى حجاج (٣٣) .

أما محمد بن حجاج الذى كان يرى مصالحه فى الاستيلاء على اشبيلية والذى لم يدر شيئا عن المفاوضات الجارية فما كان أعظم دهشته حين وصله كتاب من « بدر » ينبئه فيه باستسلام المدينة ، وان عليه الآن الارتداد عن قرطبة فغادرها محطم القلب غضبانا وأقسم لينتقمن لما جرى ، فلما عاد الى قرمونة عارضه قطيع لأهل قرطبة فاستولى عليه ثم اعتصم بالقلعة وأخذ يتحدى السلطان الذى لم يحرك ساكنا بل أنفذ اليه أحد رجال بلاطه ليعلمه — فى أسلوب مهذب جاد — أنه قد انقضى العهد الذى كان النبلاء فيه أحرارا قادرين على سلب ما بأيدى الناس ، وأنه ينبغى عليه رد القطيع الذى سلبه .

أدرك محمد بن حجاج مكانة الصدق في هذا القول فرد الغنم ، لكن على الرغم من ألمعيته ودقة فهمه الا أنه لم يلاحظ أن الزمن صار غير الزمن الذى كان من قبل ، اذ ما كاد يصل الى سمعه أن الحكومة قد هدمت أسوار أشبيلية حتى رغب في اغتنام الفرصة للاستيلاء على المدينة بالقوة فمضى لمهاجمتها ، لكنه لم يوفق فى خطته الطائشة ، وتذرع السلطان بالصبر عليه مرة أخرى وبعث اليه من يفهمه الأفكار الجديدة ، وعهد بهذه المهمة الى رئيس شرطته : « قاسم بن وليد » الكلبى الذى لم يكن يستطيع تفضيل سواه عليه فى هذه المهمة ، فقد ظل القاسم بضعة أشهر — زمن عبد الله — زميلا لابراهيم بن حجاج وصديقا حميما لمحمد ، وكانا لا يفترقان عن بعضهما أثناء حصار أشبيلية ، ولم يخطىء السلطان فى أناته وتمهله عليه فقد أدى قاسم مهمته خير أداء ، وأحسن الحديث الى محمد [بن حجاج] حتى لقد قطع على نفسه العهد لقاسم بالحضور الى البلاط على أن يؤذن له بترك قائده فى قرمونة ، فقبل السلطان طلبه ومضى محمد [ابن حجاج] الى قرطبة فى حاشية كبيرة ، وكان ذلك فى ابريل ٩١٤ م [= رمضان ٣٠١ هـ] ، فبالغ السلطان فى الحفاوة به ووصله وجنده بالهدايا الجمة العظيمة ، ولقبه بالوزير ، وطلب اليه أن يصاحبه فى الغزاة الجديدة التى أزمع على القيام بها (٣٤) .

***

صمم السلطان هذه المرة على مهاجمة الثورة فى عقر دارها فى جبال رية ، والواقع أنه لم يكن يتوقع الحصول على فوائد عاجلة ومكاسب باهرة كالتى أصابها فى العام المنصرم فى ولايتى جيان والبيرة .

***

كان الاسلام قد كاد أن يتلاشى فى منطقة جبال « سيرانا » فكان على السلطان أن يحارب النصارى ، وأعلمته خبرته السابقة أن المسيحيين الاسبان أشد استبسالا من المسلمين الاسبان فى الدفاع عن أنفسهم ، لكنه أدرك أن لابد من وجود جماعات فى صفوف المسيحيين سمعت بصلابته واخلاصه ،وأنها لابد مستسلمة (٣٥) له عن طواعية ؛ وانه لمن الانصاف أن نشير الى حسن معاملة الحكومة للنصارى الذين استسلموا لها ، فقد حدث أن جاءت زوجة مسيحى — كان قد استنزل فى السنة الماضية وأقام فى قرطبة — الى القاضى [أسلم بن عبد العزيز] وذكرت له أنها مسلمة حرة وتطمع فى التخلص من الأسر الذى تعيش فيه ، وتمسكت بعدم جواز استرقاق النصرانى للمسلمة ، فما كاد بدر الحاجب يسمع قصتها حتى ندب رسولا من قبله الى القاضى يقول له : « ان هؤلاء العجم انما استنزلناهم بالعهد ، ولا يحل الخفر بهم ، وأنت أعلم بما يجب من الوفاء بالعهود ، فدع

بين فلان العجمى و بين الأمة التى فى يديه » ، فتعجب القاضى من هذه الرسالة، ورأى ان الوزير قد جار عليه وجاوز حدوده ، فما كان منه الا ان سأل الرسول : « الحاجب ارسلك بهذا ؟ » ، فلما اكد له الرسول الامر قال له : « اخبره أن الأيمان كلها لازمة لى ، لا نظرت بين اثنين حتى أنفذ على العجمى ما يجب عليه من الحق فى هذه الحرة المسلمه » ، فلما تسلم الحاجب هذه الرسالة لم يعد يخامره شك فى نزاهته ، الا أنه عاد يقول له : « انى لا أعترضك فى الحق ، ولا أستحل سؤال ذلك منك ، وانما أسألك التثبت فيما يجب من حق هؤلاء المعاهدين ، فقد علمت بما يجب فى رعايتهم وانت أعلم بالواجب » (٣٦) .

لقد دل مسلك بدر فى هذا الحادث على صدق اخلاص الحكومة وعن روح التوفيق التى تسترشد بها ، وهى سياسة جميلة نبيلة تتفق وخلق عبد الرحمن الذى كان قليل التعصب ، حتى حدث ذات مرة أن رغب فى خلع منصب قاضى القضاة بقرطبة على علج مسيحى الأبوين ، ولقى الفقهاء صعوبة كبرى فى صرفه عن ذلك المشروع (٣٧)

لم يجاوز عبد الرحمن الحق فيما توقعه من ناحية أصحاب القلاع المسيحيين فى « سيرانا » ، فقد طلب الكثيرون منهم الأمان فلم يضن به عليهم ، ولم تقاوم سوى « طرش » التى قويت عزيمة حاميتها بمجىء ابن حفصون فاستبسلت فى الدفاع استبسالا عجز السلطان عن تملكها لكن ما كادت حاميتها تغادرها حتى جرت معركة دامية (٣٨) .

وحدث أن قاومه حصن آخر مقاومة عنيفة دفعته لأن يقسم ــ وهو فى سورة غضبه ــ ألا يمس الشراب « أو يأنس الى منادمة » قبل الاستيلاء عليه، وبر عبد الرحمن بقسمه فاستولى على ذلك الحصن وعلى آخر معه (٣٩)

***

وفى حوالى هذه الحقبة ذاتها أدى له اسطوله خدمة جليلة فقد استولى على بضعة سفن محملة بالذخيرة وهى فى طريقها الى ابن حفصون الذى اضطره عسر حاله الى طلب الذخيرة والمئونة من افريقية (٤٠) .

ومر السلطان فى عودته الى عاصمته بالجزيرة الخضراء (٤١) وولايتى « أرشذونة » و « موررور » ثم راد دخول « قرمونة » حينما أصبح على مشارفها فبلغ أبوابها يوم٢٨يونيو سنة ٩١٤ م [أول ذى الحجة ٣٠٢ هـ].

كان حبيب قائد محمد قد رفع بقرمونة علم الثورة فهل كن قيامه بها من تلقاء نفسه ؟

لسنا ندرى حقيقة تلك المسألة فلقد قيل انه أضرمها بتحريض مولاه ومال عبد الرحمن للأخذ بهذه الفكرة ، ومن ثم جرد محمدا من لقب « الوزير وزج به في السجن ؛ ثم أخذ في محاصرة قرمونة فقاومه حبيب عشرين يوما طلب بعدها الأمان فأجيب اليه .

أما محمد بن حجاج فلم يعد مرهوب الجانب ، وسرعان ما رد عليه عبد الرحمن حريته ، غير أنه لم ينعم طويلا بهذه النعمة فقد مات فى ابريل سنه ٩١٥ م [= رمضان ٣٠٣ هـ] فكان آخر رجل من بنى حجاج قدر له أن يلعب دورا في التاريخ .

وحدث في عام ٩١٥ م أن طال القحط فأدى الى مجاعة مهلكة منعت السلطان من القيام بأية حملة ، كما مات الألوف من أهل قرطبة وبقيت الجثث بلا دفن، وبذل السلطان وحاجبه كل ما استطاعاه لتخفيف النكبة ، لكنهما صادفا أشد الصعاب في رد المتمردين الذين دفعتهم المجاعــة للخروج من جبالهم بغية الاستيلاء على التافه الباقى من مواد الاعاشة التى كانت لا تزال موجودة في السهول (٤٢) .

فلما كان العام التالى استولى السلطان على « ريولـة » و « لبـلة » وتركزت دعائم قوته من جديد بصورة مكنته من شن الغارات على نصارى الشمال (٤٣) حتى جاء الموت الى أشد أعدائه خطرا عليه فخلصه منه ، اذ مات ابن حفصون سنة ٩١٧ م [= ٣٠٥ هـ] فعم السرور قرطبة لموته ولم يعد أحد يشك في أن الثورة تتلاشى عن قريب (٤٤) .

مات البطل الأسبانى الذى ظل أكثر من ثلاثين سنة يهزم غزاة وطنه ، والذى طالما جعل العرش يضطرب تحت الأمويين ، ولاشك أنه كان ينبغى عليه أن يشكر العناية الالهية التى ساقت اليه الموت فى تلك الساعة ووفرت عليه المشهد المحزن : مشهد انهيار جماعته ، فلقد مات غير مغلوب على أمره وقضى نحبه في ظروف هى خير مما كان يتمنى ، ولم يكن قط من شأنه تخليص وطنه وتأسيس أسرة له فيه ، كما أنه كان خير بطل لم تر اسبانيا مثيلا له منذ أن أقسم فرياثا Viriatha على انقاذ وطنه من النير الرومانى .

***

الفصل الثامن عشر

موقف كل من ابناء ابن حفصون الأربعة من عبد الرحمن • مصرع سليمان بن ابن حفصون • انخراط أخيه حفص فى جيش السلطان بعد المعاندة • مقتل « أرجنتيا » • السلطان يتغلب على خصومه بما فيهم البربر • محاربته الشيخ الأسلمى صاحب « لقنت » وانتصاره عليه وارساله اياه أسيرا الى قرطبة • عبد الرحمن يؤدب طليطلة • نجاح عبد الرحمن الثالث فى مزج عناصر الأمة فى بوتقة واحدة •

الفصل الثامن عشر

عظمة عبد الرحمن

امتد أمد الحرب في « سبرانا » عشر سنوات ، وقد ترك ابن حفصون من بعده أربعة أبناء هم : جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص الذين ورثوا شجاعته وان لم يرثوا مواهبه ·

أما سليمان فقد اضطر للاستسلام في مارس سنة ٩١٨ م [= رمضان ٣٠٥ هـ] والانخراط في جيش السلطان مشاركا في الحملات التي شنها ضد ملك ليون ونفارة ·

وأما أخوه عبد الرحمن قائد طرش فكان أميل للقلم منه الى السيف ، فلم يلبث أن بادر الى الاستسلام (١) ، وشخص الى قرطبة حيث قضى بقية أيامه عاكفا على نسخ المخطوطات (٢) ·

وأما جعفر فكان لا يزال شديد البأس ولابد أن يكون السلطان قد أدرك ذلك الأمر فيه اذ لم يمتنع عن الدخول في مفاوضته حينما حاصر بوبشترو سنة ٩١٩ م [= ٣٠٦ هـ] ، واكتفى عبد الرحمن من جعفر بما قدمه اليه من الرهائن والجزية السنوية (٣) ، الا أن جعفر هذا سرعان ما ارتكب هفوة قاتلة أودت به ، ذلك أنه كان يؤمن بأن أباه قد ألحق الضرر بنفسه حين أعلن تنصره هو وجميع أفراد أسرته ، ذلك لأن ابن حفصون ـ حين بدل دينه ـ باعد ما بينه وبين قلوب الأندلسيين ، وما كان له ولأولاده ـ وقد خطوا هذه الخطوة ـ أن يتراجعوا ، بل كان يتحتم عليهم أن يعتمدوا منذ ذلك الحين على النصارى وحدهم ، وأن يربطوا مصيرهم بهم ان نصرا أو هزيمة ، وكان المسيحيون الفئة التي ظلت محافظة على شجاعتها فقد حدث قبل هذا بوقت قصير في قلعة « بلدة » وقت حصار السلطان لها أن انضم رجال الحامية المسلمون بأجمعهم اليه أما مسيحيوها

فقد آثروا الموت على الاستسلام (٤) ، ومع علم جعفر بذلك الموقف الا أنه كان لا يزال مؤمنا بالركون الى المسلمين الذين أراد استمالتهم اليه فأعلن عزمه على الرجوع الى الاسلام . ففزع جناح النصارى منه ومن ثم تآمروا ضده بالاتفاق مع أخيه سليمان وقتلوه سنة ٩٢٠ م [= ٣٠٨ هـ] وولوا مكانه أخاه سليمان الذى سارع بالوقوف الى جانبهم (٥) .

***

لم يكن عهد سليمان عهدا سعيدا فقد وقعت « بوبشترو » فريسة الشقاق الحاد ، وشبت بها الثورة وأدت الى طرد سليمان ، واطلاق سراح أسراه ، ونهب قصره ، لكن لم تنقض فترة وجيزة حتى انساب أعوانه فى البلد ودخله هو متنكرا ، واستمال العامة اليه حيث أباح لهم النهب ودعاهم الى حمل السلاح ، فلما تملك الأمر ثانية لجت به شهوة الانتقام العنيف فأطاح برؤوس معظم خصومه حتى : ليأخذ عليه أحد مؤرخى قرطبة (٦) ما فعل

لم يمد القدر فى أجل سليمان بعد جمعا الأمور فى يده ثانية فقد حدث أن ترجل فى مناوشة جرت يوم ٦ فبراير ٩٢٧ م [= ذو الحجة ٣١٤ هـ] فتكاثر عليه الملكيون وقتلوه وتفجر غيظهم على جثته ففصلوا رأسه ثم بتروا ذراعه فساقيه (٧) .

ولما قتل سليمان خلفه أخوه حفص ، لكن اللحظة الفاصلة كانت قد آذنت بالمجىء ، فقد مضى السلطان فى شهر يونيو ٩٢٧ م [= ربيع الثانى ٣١٥ هـ] لمحاصرة بوبشترو وصمم على ألا يرفع الحصار حتى يستسلم له البلد ، ثم أمر باقامة التحصينات فى كل مكان ، وأعاد بناء حد الحصون الرومانية القديمة وكان موشكا على الانهيار ، فلما فرغ من ذلك أحدق بالمكان من كل نواحيه ومنع عنه كل مواد التموين ، واحتمل حفص مدة ستة أشهر مضايقة العدو له وارهاقه اياه الا أنه اضطر للتسليم يوم الجمعة ٢١ يناير ٩٢٨ م [= ذو القعدة سنة ٣١٦ هـ] فاحتلت قوات السلطان البلد ، ونقل حفص الى قرطبة ، واستنزلوا جميع السكان ثم انخرط حفص بعد ذلك فى جيش الغالب (٨) .

أما أخته « أرجنتيا » فقد كان فى استطاعتها المضى الى أحد الأديرة فتبقى فيه سالمة لو أنها رضيت بالحياة الهادئة الرتيبة ، الا أنها كانت شديدة التعصب وكانت تتطلع منذ أمد بعيد للاستشهاد ، فأثارت غضب السلطة اذ جاهرتها بتنصرها ، ولما كان الشرع يعتبرها مسلمة اسلام أبيها يوم ولادتها فقد أدينت اذ عدت كافرة مرتدة ، وحكم عليها بالموت الذى قابلته من جانبها بشجاعة نادرة أهلتها لأن تكون ابنة عمر بن حفصون (٩) وكان ذلك سنة ٩٣١ م [= ٣١٩ هـ] .

***

دخل السلطان بنفسه « بوبشترو » بعد شهرين من اخضاعها اذ أراد أن يرى بعيني رأسه هذا الحصن الشامخ الذى بقى مدى نصف قرن يرد هجمات أربعة سلاطين على التعاقب ، فلما بلغه وطل من فوق أسواره تفحص بعينيه نواحيه المحصنة وأبراجه المنيفة ، واذ شاهد شموخ الجبل الذى يقوم الحصن على قنته وعمق الهوة المحيطة به عرف أنه حصن أنف عديم الضريب ، وحمد الله على نعمائه اذ مكنه من الاستيلاء عليه ثم ركع شكرا لله ، ودأب طول رحلته على الصوم ·

غير أن الذى يحط من قيمة انتصاره هو ضعفه الشديد وتخاذله فى موقف كان ينبغى فيه عليه أن يرفض ما اتفق القوم عليه ، فقد تاق من رحلوا معه الى بوبشترو من الفقهاء أن يروا هم أيضا ذلك البلد العظيم الذى كان مسرحا لرجل أخافهم كل الخوف فلم يدعوا السلطان يستجم قبل أن يأذن لهم بنبش قبرى عمر بن حفصون وولده جعفر ، فلما شاهدوهما مدفونين على الطريقة المسيحية أخرجوا جثتيهما وبعثوا بهما الى قرطبة فسمرتا الى عمودين وكتب أحد مؤرخى هذه الفترة : ما يشير الى هذا الحدث فى فرحة مبتذلة (١٠) ·

***

حينذاك بادرت الحصون التى كانت لاتزال فى حوزة المسيحيين الى الاستسلام فهدمها السلطان لم يستبق منها غير ما دعت الحاجة القصوى الى استبقائه لارغام البلد على ملازمة الخضوع ، ثم نقل الى قرطبة أعظم الرجال نفوذا وأشدهم خطرا (١١) ·

***

لازمت « سيرانا » الخضوع والهدوء منذ ذلك الحين وان كان ذلك بعد أن أخمد السلطان الثورة فى كثير من النواحى ، فقد أرغم رجال ابن مستنة فى جبال « بريجو » على التخلى له عما بيدهم من الحصون ، كما حمل بربر بنى المهلب من أهل « رية » على القاء السلاح (١٢) ، واستولى على « مونت روبى » الواقعة على حدود جيان والبيرة ، ولما كان هذا الحصن قائما على جبل شاهق شديد الانحدار فكثيرا ما كان مبعث رهبة كبيرة للحكومة ، كما كان يقطنه كثير من المسيحيين الذين كانوا ينزلون من أوكارهم بين آونة وأخرى ينهبون القرى ويقطعون الطريق على المسافرين ويفتكون بهم ، لذلك أقام السلطان سنة ٩٢٢ م [= ٣١٠ هـ] على محاصرة هذا العرين ففشل ولم ينجح فى تحقيق بغيته الا بعد أربع سنوات (١٣) ، كذلك اضطر كثير من ثوار اقليم بلنسية الى الاستسلام (١٤) له سنة ٩٢٤ م [= ٣١٢ هـ] وهى السنة التى دانت فيها للسلطان جميع بلاد الثغر الأعلى واغتصبها من يد بنى قسى (١٥)

الذين اضنتهم الحروب التى نشبت فيما بينهم أو التى خاضوها ضد ملوك نفارة ، ثم أجبرهم عبد الرحمن على الانخراط فى جيشه (١٦) وما انقضى عامان على ذلك حتى شن قائده عبد الحميد بن بسيل حملة على بنى ذى النون (١٧) ، وقد تكللت بالنجاح

***

لم يعد هناك ما يبلبل خاطر السلطان من ناحية الجنوب ، ومن ثم وجه كل قواه لمحاربة ثوار الولايات الأخرى ، واتسمت حملاته بالنجاح السريع ، واشتبك فى معارك فاصلة ، ففى سنة ٩٢٨ م [= ٣١٦ هـ سير الجند لمحاربة « الشيخ الأسلمى » صاحب لقنت و Callosa فى ولاية تدمير ، وكان هذا الرجل قطع طريق وفاسقا من أحط الفساق ، شديد التظاهر بالدين ، فلما طعن فى السن تنازل عن الحكم لابنه عبد الرحمن قائلا انه يريد تكريس نفسه للعبادة ، وطابق الخبر الخبر فواظب على صلواته والصلوات العامة ، غير أن تلك التقوى الظاهرية لم تمنعه من الخروج بين آونة وأخرى لنهب النواحى المجاورة له ، ثم لم يلبث أن تولى قيادة الجيش بعد قتل ابنه فى معركة دارت بينه وبين جند السلطان وأنصاره ، لكن لم تطل قيادته اذ استولى القائد أحمد بن أسحق على قلاعه واحدة بعد الأخرى وأرغمه على التسليم ، واستنزله هو وجميع أفراد أسرته من معاصمهم الى قرطبة (١٨) كما استسلمت فى الوقت ذاته « ماردة » دون أن تضطر القوات التى بعثها السلطان اليها الى امتشاق الحسام (١٩) .

فلما كان العام التالى أطاعته باجة بعد مقاومتها اياه مقاومة عنيفة (٢٠) مدة أسبوعين ، فسير السلطان قواته بعد ذلك ضد العلج « خلف بن بكر » أمير « أكشونبة » الذى أبدى استعداده لدفع الجزية ، وبرر امساكه عن دفعها من قبل ببعد ولايته ، وكان خلف محبوبا من رعيته كأسلافه الأمراء الخيرين ، وأدرك السلطان أن اصراره على خضوع خلف له يدفع سكان كورة الغرب الى الاستبسال فى المقاومة ، ومن ثم خالف نهجه وأبرم معه اتفاقا لم يعد خلف بمقتضاه خاضعا له بل تابعا اقطاعيا يؤدى له الجزية ، وبذلك تعهد أمير «أكشونبة» بدفعها وألا يسمح للثوار باللجوء اليه (٢١) .

وكانت « بطليوس » لاتزال تحت حكم أحد أبناء ابن مروان الجليقى اقطاعيا يؤدى له الجزية ، وبذلك تعهد أمير « أكشونبة » بدفعها وألا يسمح كاملا (٢٢) وذلك سنة ٩٣٠ م [= ٣١٨ هـ] .

***

لم يبق أمام عبد الرحمن لاسترداد سيطرته على ميراث جده الا اخضاع طليطلة .

وقد مهد عبد الرحمن لذلك الاسترداد بأن ندب اليهـا جمـاعة من الفقهاء يذكرون لاهلها خطل بقائهم على المجاهرة بحبهم للجمهـورية فى الوقت الذى دانت فيه جميع انحاء البلاد للسلطان ، لكن لم يقدر النجاح لهذه الخطه وذلك لأن الطليطليين امتلات نفوسهم بحب الحريه التى تمتعوا بها ثمانين عاما سواء تحت حماية بنى قسى أو ملوك ليون ، ومن ثم ردوا ردا اتسم بالمراوغة وعدم الجراة ، ولم يجد السلطان أمامه بدا من استعمال الشدة فلم يتوان عن سلوك سبيلها ، وفاضت نفسه بالغضب والصلابة اللتين امتاز بهما ، لذلك أرســـل ضد طليطلة فى شهر مايـــو ٩٣٠ م [= ربيع الثانى ٣١٨ هـ] أحد قواده وهو الحاجب ســـعيد بن المنذر وامره أن يبدأ الحصار قبل أن يلتئم شمل الجيش الكبير الزاحف لتأديب النوار ، فلما كان شهر يونيو ٩٣٠ م [= جمادى الأولى سنة ٣١٨ هـ زحف السلطان بنفسه على المدينة بجميع قواته وعسكر على شواطىء (٢٣) نهـــر Algodoz قرب حصـــن مورور ، ثم طلب من العلج الطليطلى الجلاء ، وكان فى هذا الانذار البسيط الكفاية اذ شعر العلج باستحانه الوقوف فى وجه جيش السلطان الكثيف وبادر الى اخلاء القلعة ، فأقام بها عبد الرحمن حامية من عنده ، ثم مضى فضرب معسكره قرب طليطلة من جبل يعرف باسم « جرنكش » (٢٤) فلما وقع بصره على الحدائق والكروم رأى أن المقبرة المجاورة قد تكون خير بقعة لمعسكره العام ، ومن ثم صار بجيشه كله اليها وأمر باحراق القرى وبالشدة فى مهاجمة الطيلطليين ومع ذلك فقد دام الحصار عامين ولم يداخل اليأس السلطان فشيد بلدة على جبـل « جرنكش » . ولم تنقض غـير أيـام قلائل حتى أقيمت بلدة « الفتح » فأدرك الطليطليون أن الحصار لن يرفع عنهم أبدا وكانوا لايزالون يعتمدون على معاونة ملك ليون الا أنه هزم على أيدى جند السلطان هزيمة نكراء (٢٥) ، كما أرغمتهم المجاعة على فتح أبواب مدينتهم ، ويالهـا من فرحة عظمى أحس بها عبد الرحمن حين تم له الاستيلاء على البلد ، وهى فرحة لا يعد لها الا فرحته ونشوته حين امتلك بوبشترو ، وحمد الله على نعمه التى حباه بها (٢٦) .

***

هكذا تمكن السلطان من ان يقهر العـــرب والبربر والأســـبان . واضطروا جميعا للركوع أمام القوة الملوكية التى لم يعد لسلطانها حد . ولم تكن الخسائر التى منيت بهـــا الأحزاب المختلفة المشتركة فى ذلك

الصراع الطويل متكافئة ، ذلك ان الارستقراطية كانت تمثل الحزب الذى صادف أسوأ المعاملة ، وهو بلا نزاع الحزب الذى يمثل الاستقلال الفردى ، شأنه فى ذلك شأن الألمان فى فرنسا وايطاليا ٠

ووجد الأشراف العرب أنفسهم مضطرين للخضوع لحكومة أشد استبدادا وأقوى ساعدا من الحكومة التى حاولوا اسقاطها ، وكانت تلك الحكومة تناصبهم العداء بطبيعتها وتنظم جهودها لتجردهم من كل قوة على مر الزمن ووجدوا أنفسهم وقد قضى عليهم أن ينجرفوا شيئا فشيئا مع التيار ، وأخذوا يفقدون فى كل العهود ما كان لهم من مجد ومستقبل ، وكان هذا خير تعزية للأسبان الذين عدوها نوعا من النصر لهم والذين كانت كراهيتهم للسلطان — حين امتشقوا الحسام ضده — أقل من كراهيتهم للأرستقراطية العربية ، ومن ثم أخذوا يوهمون أنفسهم بأنهم قد نجحوا الى حد ما ، ذلك لأنهم بدلا من أن يكونوا محل اهانات أصبحوا منذ الآن بمنجاة من الازدراءات ومن اضطهاد الأشراف لهم ، ولم يعودوا الجماعة المنعزلة أو الفئة المنبوذة المهجورة من المجتمع ٠

ولقد كان الهدف الذى يسعى اليه عبد الرحمن الثالث والذى تمكن من تحقيقه على مر الأيام هو امتزاج جميع أجناس شبه الجزيرة وتحويلها الى أمة متحدة اتحادا حقيقيا (٢٧) ٠

لقد احتفت العهود القديمة — أو لا أقل من أنها أخذت فى التلاشى شيئا فشيئا لتحل مكانها امتيازات الرتب والطبقات والحرف ، والواقع أن هذه المساواة لم تكن الا مساواة فى الخضوع لكنها كانت فى عيون الأسبان نصرا مبينا ، ولم يكونوا يطلبون فى لحظتهم هذه أكثر مما حدث ، أما فى أعماق نفوسهم فقد كانت أفكارهم عن الحرية لاتزال شديدة الغموض لعدم كراهيتهم الحكم المطلق أو السياسة الاستبدادية ، اذ كان هذا النوع من الحكومة فى نظرهم تقليدا قديما ولم يعرفوا سواه ، سواء فى أيام حكم ملوك القوط أو فى عهد أباطرة الرومان ، ولعل أوضح دليل يؤيد ذلك أنهم فى أثناء حروبهم لاستعادة استقلالهم لم يقوموا على وجه العموم الا بمحاولات ضئيلة من أجل الحرية ٠

***

هنا ينتهى الجزء الأول ويليه الثانى عن :

عصر الخلافة فى الأندلس

حواشي الفصل الأول

(١) Cf. Salvien : De Gubernatione Dei, L. IV, p. 60 (ed. de Bréme) 1683.

(٢) انظر عبارات سيدوان الأبولى الواردة فى :

Fauriel, Hist. de la Gaule Meridionale sous la Domination des conquerants Germains, t. I, pp. 387 et suiv., (Epist. IX ; 13).

وليست لدينا اية أخبار عن أسلوب حياة السادة الأسبان فى خلال هذه الحقبة ، لكن كل ما هناك يبعث على الظن بأنه كان يشبه الى حد بعيد حياة سادة الأقاليم المجاورة.

(٣) Giraur : Essai sur l'Hist. du droit francai au moyên âge, t. I, pp 104 et suiv., Cf. aussi P. J. Williams : Le droit public romain, 7eme, ed., Louvain, 1910, pp. 607-609.

(٤) امتد حكم دقلديانوس من ٢٨٥ حتى ٣٠٥ م وامتاز بروحه الحربية وتطلعه الى توحيد ارجاء الامبراطورية تحت ظل الامبر طور وأن تكون الامبراطورية ذاتها ممثلة لما يمكن أن يسمى بالمركز الحضارى للعالم مما تطلب من دقلديانوس أن يكون على استعداد للضرب على يد من يقوم بالفوضى والاضطراب فى الداخل والقضاء على اى هجوم خارجى ولقد صادف فى اول حكمه ثورة الفلاحين فى غالة (فرنسا الحالية) من جراء ما سببه غارات القبائل المتبربرة ومن الفقر وكثرة الضرائب ، مما حملهم على هجرة الاراضى ، لذلك انفذ احد قواده واسمه Valerius Maximianus لاخمد ثورة هؤلاء الفلاحين المسمون فى تاريخ تلك الحقبة باسم « باجوداى » ، كما عمل على تقوية حدود الراين ، واهتم دقلديانوس بالاصلاحات التى تناولت شتى فروع الادارة الحكومية لكنه اسرف فى اضطهاد المسيحيين اذ راى تزايد أعدادهم حتى قاربوا فى بعض الاقوال عشر السكان ، وقد اصدر مرسوما بهدم الكنائس سنة ٣٠٣ م وحرق الكتب المسيحية ثم اصدر مرسومين آخرين بسجن جميع رجال الدين على شتى مراتبهم وأرغمهم على تقديم القرابين لآلهة الدولة . هذا ويلاحظ أن نظام الرقيق ارتبط بما يمكن تسميته بالمزارع الكبيره لاتيفونداى « وقد ساعد على ذلك عدم استطاعة صغار الملاك اجابة المطالب الحربية المتزايدة وتزايد عدد الرقيق فى المجتمع الغربى منذ زمن بعيد والمعروف انه ما بين عامى ٣٠٠ و ١٥٠ ق.م. كان عدد الرقيق الذين جيء بهم من بلاد اليونان حوالى ربع مليون شخص ، ونستدل من كتاب « كاتو » على أن القوم كانوا يفضلون الرقيق لعدة عوامل منها عدم انخراطهم فى الجيش وارتباطهم بالأرض وبالسيد الذى يعملون عنده ، وكان هؤلاء الرقيق يعملون عنده ، وهم مكبلون بالاغلال ، مما أدى بهم الى الثورة فى صقلية عام ١٣٥ وقام حوالى سبعين الفا منهم بتحدى الجيش . (المترجم) .

(٥) انظر جيرو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ وما بعدها ، وكذلك المؤلفات الفرنسية والالمانية التى أوردها فيلليمز ، نفس المرجع ، ص ٦٤٥ وحاشية رقم ٨ ص ٦٤٦-٦٤٨ .

(٦) كان أوجستوس أحد الاباطرة القدماء وكان اسمه أولا Octavius ثم منحه مجلس الأعيان فى سنة ٢٧ ق٠م لقب Augustus تعظيما له ثم أطلق عليه الجيش لقب Imperator. وذلك عقب انتصاره فى وقعة موتينا سنة ٤١ ق٠م٠ (المترجم) ٠

(٧) غالة هى فرنسا الحالية ٠

(٨) Polemus : Utrius que The auri Antiquitatum mova supplementa (1737) t. III, Introd., par Pignori.

(٩) Ammien Macclin, t. XXVIII, 4, 16 : "Si aquam callidam tardius attulerit servus, trecentis arfligi verberibus wbeatur".

(١٠) SALVIEN : op. cit., 91-92.

(١١) Ibid., L. V. pp. 91-92, Querbos, Oct. I. Sc. II. Vers. 194-195.

(١٢) انظر النصوص الواردة فى الجزء الأول من Français, pp. 566, 573, 597, 609.

وفى الحقيقة اننا لسنا متأكدين من وجود العصابات فى اسبانيا قبل فتح المتبربرين لها ، غير أن هناك ما سيحمل على الاعتقاد بأنها كانت موجودة قبل هذا العصر اذ يبدو من كلا Idace الذى كتب فى القرن الخامس أنه لم يكن يعد وجودها فى اسبانيا شيئا جديدا

(١٣) Isidore de Seville : Historia de regibus Gothorlum (Esp. Sag., t. IV, p. 493).

(١٤) Paul Orose : Hi toriae, VII, 40. "Servubos tantum suos ex. propriis praediis colligentes a vernaculis Alentes sumtibus.

(١٥) Paul Orose : Historiae, VII, 40 : "Cum paroaris quibusdam, qui quondam in foedus receptiatique in milidam, aliecti. Honoriani (sive Honoriaei) Vocabantur."

(١٦) انظر فى هذا الصدد ما جاء فى Salvien : op. cit., L. VI, 121-123.

ويمكن ان نطبق الى حد ما على الأسبان كل ما قاله هذا المؤلف عن الغاليين ، اذ الثابت ان فساد الاخلاق كان فى اسبانيا أكثر مما هو فى غالة ، انظر نفس المرجع ١٣٧/٧ ٠

(١٧) Idace : Chronicon, ad. ann 409 et 410.

(١٨) Ibid., ad ann 425.

(١٩) Idace : op. cit., ad. ann. 425.

(٢٠) Orose : Hist., VII, p. 141

(٢١) أى بعد الكاهن بول أوروز ٠

(٢٢) Salvien : De gub. Dei, L. V, p. 95.

(٢٣) Epist., VII, p. 14.

(٢٤) Hist., VII, p. 41.

(٢٥) احدث تخريب رومة على يد الاريك سنة ٤١٠ هزة عنيفة فى نفوس الناس استمرت عدة أجيال حتى أن موضوع هذا الانهيار أصبح شغل الفلاسفة والعلماء ورجال الدين والوثنيين والمؤرخين وفى مقدمة الجميع « القديس اوجستين صاحب كتاب مدينة الرب » ، ومن هنا يمكن تفسير ما أخذه العالم المؤرخ البريطانى المحدث توينبى فى كتابه Toynbee Study of Hist., IV, p. 61 fol. من نقد للمؤرخ « جيبون » من أن انهيار الامبراطورية بدأ من أربعة قرون قبل قيامها » وأن ذلك حدث منذ الصراع العنيف بين أسبرطة والأثنيين عام ٤١٢ ق٠م٠ ، وقد كان الصراع بين المسيحية والوثنية عنيفا =

= ونجد فى سنة ٣١٧ أن القديس أوجستين يسال أحد تلاميذه ان يكتب موجزا لتاريخ رومية ليكون لبنة تساعده على تأليف كتابه « مدينة الرب » ، انظر :

M. Monigliano : Pagan and Christian Historiography in the 4th Cent A.D., p. 87. ولقد عاش القديس أوجستين من ٣٥٤ حتى ٤٣٠ م وكان عازفا عن كل المناصب حتى الدينية لأنها فى اعتقاده تخرجه من نطاق تأملاته الروحية الخالصة ، انظر :

H. I. Marrow : Synesius of Cerene & Alexandrian Neoplatonism, p. 143; Mcrrow St. Augusrin et la fin de la culture antique, Paris 1939, p. 3.

(٢٦) Salvien : De gub. Dei, L. IV, p. 74.

(٢٧) Claudien Mamert : De Statue animae, II, 8.

(٢٨) Salvien : op. cit., L. VI, p. 115, L. VII, p. 142.

(٢٩) Ibid., L. IV, p. 74.

(٣٠) Ibid., L. V, p. 86.

(٣١) Ibid., L. VII, pp. 140, 142.

(٣٢) Ibid L. VII, p. 140.

(٣٣) Braulien, Epistulae, 33-41, (Esp. Sagr., t. XXX, pp. 374-377). 360, 382.

(٣٤) انظر قرارات مجمع طليطلة الثامن فى Forum Indicum, p. 15. Col. I.

(٣٥) راجع قرارات مجمع طليطلة الرابع فى Esp. Sagr., VI, p. 162.

(٣٦) راجع قرارات نفس المجمع .

(٣٧) يقول ايزيدور الباجى فى معرض كلامه عن ركسفنت :

"licet flagitiosio tamen bene monitus" (Esp. Sagr., t. VII, p. 290). pp. 359, 360, 382.

(٣٨) Paulos Emeritensis : De Vita (Esp. Sagr.), t. XII, p. 359,

(٣٩) Neander : Denk würdigheiten aus der Geschichte des Chris- t. II, p. 236-240. Ozanam : La civilisation au 5ème iécle, t. II p. 50-57.

(٤٠) Sentent., L. III, c. 47.

(٤١) Munoz : Fueros, pp. 123-125.

(٤٢) Munoz : Del Estado de la persona en los reinos de Austririas Y. Leon.

(٤٣) Forum Indicum, V, 4, 19; De non alienandis privatorum et corialium rebus.

(٤٤) انظر قرارات مجمع طليطلة الثامن فى Esp. Sagr., L. VI, p. 189.

(٤٥) انظر المادة الثامنة من قرارات مجمع طليطلة الثامن .

(٤٦) يعنى المؤلف بذلك المسيحيين . (المترجم)

(٤٧) يقصد دوزى بذلك اليهود . (المترجم)

(٤٨) انظر قرارات مجمع طليطلة السابع عشر فى : Mansi., t. XII, p. 94 et suiv.

(٤٩) فيما يتعلق بمركز اليهود في اسبانيا في ظل حكم القوط الغربيين ، راجع :
H. Graetz : Les Juifs d'Espagne (trau., G. Sterne, Cn.-I, pp. 11-50.

حيث يجد القارىء فيه تفاصيل الاضطهاد الأولى وذكر المجامع والمجادلة مع ايزيدور الاشبيلي الذى وضع كتابا في سبهم والنيل منهم وهو يقع في مجلدين واسمه . Contra Jndaeos ، كذلك راجع أحدث مؤلف في هذا الباب وهو :
Jean Juster : La Condition legale des Juifs sous les rois Wisigoths (in : Etudes offretes à P.F. Girard, Paris, 1913, t. II, pp. 275-335.

(٥٠) Forum Indicum, L. IX.

(٥١) هذا هو الوارد في مخطوطتين لا تينيتين منشورتين في Forum Indicum كذلك في الترجمة الأسبانية لهذا القانون في : Fuero Juzo

حواشي الفصل الثاني

(١) لن يجد القارىء فيما يلي سوى وصف شديد الايجاز عن فتح اسبانيا على يد العرب ، وقد عالج المؤلف الموضوع فى تفصيل أكثر مما هو عليه هنا فى كتابه

Dozy : Recherches sur l'histoire de la literature de l'Espagne pendant les moyen age 3eme, ed., t. I, pp. 1-83.

وسيرى القارىء هنا دراسة عن فتح العرب لاسبانيا فى :

(ا) حوليات ايزيدور الباجى

(ب) الحوليات اللاتينية الخاصة بشمال اسبانيا :

(ح) الأخبار العربية ·

(د) كتاب اخبار مجموعة ·

(هـ) الكونت بوليان ·

(و) قصة أولاد غيطشة ·

(ز) النصوص المتعلقة بامتلاك الأراضى بعد الفتح الاسلامى ·

أما الأخبار الخاصة بآخر ملك قوطى على اسبانيا فقد جمعت فى :

J. Menendez Pidal : Leyendas del ultimo Rey Godo (Revista de Archives, Bibliothecas y Mueseos, Madrid, 1901-2.

كذلك يمكن مراجعة كتاب :

Eduardo Saaveara : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892 ؛

كما يجد القارىء قائمة كاملة باسماء مراجع اخبار هذا الفتح فى كتاب :

Alfonso : Fuentes de la historia Espanôla, Madrid, 1919, p. 14-30.

اما الظروف التى تم فيها للغرب فتح اسبانيا فقد درست دراسة نقدية وان شابها كثير من التحيز فى : J. J. Tailhan : Notes et recherches المطبوعة فى نهاية طبعته عن :

La chronique riméo des Derniers rois de Tolede et la conquête de l'Espagne par les Arabes (Pari , 1885)

وذلك عن حوليات القوطى المجهول المنسوبة لايزيدور الباجى ، وانظر على الخصوص صفحة ٦٦ وما بعدها منه · اما المؤلفون العرب الذين أشاروا الى فتح العرب لأسبانيا فهم صاحب اخبار مجموعة وابن القوطية وابن عبد الحكم وابن عذارى وابن خلدون وابن الأثير والنويرى والمقرى والقلقشندى [صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ٥/٢٣٨ وما بعدها] · ويجب أن نشير الى « فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ، وهو الكتاب الذى جمع بين دفتيه الأخبار والقصص العربية المتعلقة بهذا الفتح ، كما ان هناك طبعة عربية — مع ترجمة قشتالية — لهذا الكتاب قام بها :

J. de Gonzalez : Fath-l-andaluci, Historia de la conquista de l'Espagna, aragl (Argiers, 1889).

(٢) فيما يتعلق بيوليان راجع : Dozy : Recherches, t. I, p. 57.

(٣) تذكر الرواية انها كانت تدعى « فلورندا » وكانت — حين رآها لذريق — تسبح قرب جسر سان مارتن المسمى بحمامات الكهف ، ولا يزال بطليطلة على شاطىء نهر تاجه غير بعيد عن جسر سان مارتن .

(٤) يطلق العرب على Carteya نفس الاسم الذى يطلقونه على Carthagene والظاهر أنهم كانوا حتى القرن الثامن للميلاد يقولون قرطاجنة Cartayena وذلك بدلا من قرطاجة Carteya اما فى القرن السابع عشر فكان لا يزال على أطلال قرطاجة برج يسمونه « كرتيانا » أو قرطاجنة ، اما اليوم فيسمى Torre de Locadilo ، انظر فى تحقيق ذلك :

Caro, : Antiguedades de Seville, fol. 123, Col. 4 ; Floréz : Espagna Sagrada, IV, p. 24 et Barrantes Maldonado : Illustracione de la casa de Niebla (Memorial historico espanol, t. IX, p. 369) ; cf aussi Savedra : Estudio sobre la invasion de los arabes, p. 65 ; Lafuenta y alcantara : Ajbar Machumia, p. 25C

هذا وقد ورد اسمها العربى فى كتاب ابن عبد الحكم : فتوح (طبعة تورى ، ص ٢٠٦) .

(٥) هو الجد الثامن للمنصور الحاجب المشهور .

(٦) راجع ابن القوطية : افتتاح الاندلس ، ص ٢٢٦ ٢٣٦ ، وابن عذارى : البيان الغرب ١١/٢ ، ٢٧٣ ، وترجمته ، ص ١٤ ، ٤٢٥ .

(٧) هى المسماة Logo de la Janda وتسميها اخبار مجموعة بالبحيرة فقط ، راجع لفونتا القنطرة ص ٢٥٧ ، تحت كلمة : "Lago"

(٨) يسمى هذا النهر اليوم باسم Salado وهو يصب فى بحر غير بعيد عن رأس جبل طارق بين البقاع وبين كونيل ، انظر :

Dozy : op. cit., t. I, pp. 305-307.

نقلا عن الادريسى : صفة الأندلس ، ص ١٧٧ ، راجع أيضا القنطرة : اخبار مجموعة ص ٢٥٤ ، الذى يشير الى وادى بكة ووادى السليط ، وانظر أيضا المؤلفات التى اشار اليها Sanchez Alonso : Fuentes de la historia espagnola, nos. 340 à 354

(٩) هو صاحب كتاب اخبار مجموعة ، راجع :

Dozy : Recherches, t. I, p. 46.

(١٠) Dozy : op. cit., t. I. Ch. I.

(١١) راجع المقرى : نفح الطيب ١/٢ .

(١٢) يجد القارىء النص العربى للمعاهدة المبرمة بين تدمير وبين عبد العزيز بن موسى فى الضبى : بغية الملتمس ، ص٢٥٩١ رقم ٦٧٥ ، وفى الحميرى : الروض المعطار تحت كلمة « تدمير » ، هذا وقد طبعها الغزيرى لاول مرة فى كتابه :

Bibliotheca arabo-Hispana Escurialensis (Matrite, 1770) t. II, p. 106.

كذلك نشرها « كودرا » فى مقدمة طبعته للضبى ، شرحه ، ص ٢٢–٢٤ (من المقدمة) وكذلك مع منطوقها :

Ramero : Historia de Muracia Musulmano (Zaragoza 1905), nr 11-37.

وفى هذا للكتاب سيرى القارىء ترجمة المعاهدة مع دحض نقد طويل للترجمات

والتعليقات التى اقترحها من سبقوه فى هذا المضمار ، كذلك نشر نص هذه المعاهدة :
Simonet : Crlstomatla Arabigo-espanola, p. 84.

(١٣) انظر فيما يتعلق بالقدرة الحقيقية للنقود فى القرن الثامن كتاب :
Leber : Essai sur l'appreciation de la Fortune privée au moyên-age.

(١٤) Leovigild : De habitu Clericorum (Esp-Sagr., t. XI, p. 523).

(١٥) انظر فيما بعد الفصل العاشر من الترجمة العربية من هذا الكتاب . (المترجم)

(١٦) Urbs erat interea Francorum inhospita-turmis, maurorum votis adsociate magis.

كما يقول أرموند دى ايجل (٦٧/١) فى معرض كلامه عن برشلونة ، ويذهب الأستاذ أمارى الى القول بأن حالة الصقليين أيام الحكم الاسلامى كانت احسن حالا من حال الشعب الايطالى تحت حكم اللومبارديين أو الفرنجة ، انظر :
Storia dei Musulmani di Sicila, Vol. I, p. 483.

(١٧) راجع المقرى : نفح الطيب ١٧/٢ .

(١٨) Chronique rimée des derniers rois de Tolede (ed. Taihlan), p.29, Vers. 103, "cum reginam Spaniae in Coniugio copulatam".

(١٩) Jackson : Account of morocco, p. 248 ; Account of Timbucto, p. 219.

(٢٠) انظر القرار الثانى من مراسيم مجمع طليطلة السادس عشر المنعقد سنة ٦٩٣ م كما انه حوالى نهاية القرن السادس للميلاد قام « ماسون » أسقف « ماردة » فهدى كثيرا من الوثنيين الى المسيحية ، انظر :
Paulus Emeritensis : De Vita, pp. Emiritensium, p. 358.

(٢١) قام أحد المؤلفين الاسبان ممن كتبوا فى القرن السابع عشر أيام فيليب الرابع بتناول هذا الموضوع بقوله « ليس من العجيب أن يتخلى سكان البوجار بتلك السهولة عن دينهم القديم ، فالذين يسكنون الآن تلك الجبال انما هم المسيحيون القدماء ، وليس فى عروقهم قطرة واحدة من دم دخيل عليهم ، بل هم رعايا ملك كاثوليكى ، ومع ذلك فنظرا لقلة المسلمين ونظرا للاضطهاد الحائق بهم فانهم يجهلون كل الجهل ما ينبغى عليهم فهمه للحصول على النجاة الأبدية ، اذ لم يبق لديهم من الملة المسيحية سوى معالم طفيفة ، أفهل يظن أحد اليوم — وقد أصبح أعداؤهم سادة على بلدهم — أن يتأخروا عن نبذ عقيدتهم واعتناق ديانة المنتظر الا اذا رغب الله راجع :
Pedraza : Historia ecclesiastica re Granada, fol. 95 V.

(٢٢) انظر المادة السادسة من مرسوم المجلس الثانى عشر المنعقد بطليطلة .

(٢٣) Vita Johannis Gorziensis, c. 129.

(٢٤) Marina, Ensayo, II, 5 seq.

(٢٥) Jamson : Apologeticus, II, c. 8.

(٢٦) Alvaro, Epist., XIII, c. 3 ; Jamson : op. cit., c. 24.

(٢٧) Samson : Apolg. II, c. 2.

(٢٨) كانت هذه الكاتدرائية فى سنة ٧٤٧ م (= ١٣٠ هـ) فى يد المسيحيين ، هذا وقد درس تلك الناحية صاحب أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢٩) راجع رحلة ابن جبير (طبعة رايت ودى خويه) ص ٢٦٢ـ٢٦٣ ، ورحلة ابن بطوطة (طبعة دفريميرى وسانجونتى) ١/١٩٨ ٠

(٣٠) راجع الاصطخرى : كتاب المسالك والممالك (طبعة دى خويه) ، ص ٦١ ٠

(٣١) قدرها المؤلف دوزى فى سنة ١٨٩٢ بما يقرب من مليون فرنك أو ٤٤٠٠٠ جنيه استرليني ٠

(٣٣) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥١ـ٢٥٢ ، وترجمته ص ٢٧٦ـ٢٧٧ ٠

(٣٢) راجع الرازى فى المقرى : نفح الطيب : ١/٣٦٨ ، وابن عذارى : البيـــان المغرب ، ٢/٢٤٤ ، ٢٤٥ ، وترجمته ص ٣٧٨ـ٣٧٩ حيث يذكر أيضا هذه العبارة لكن فى شيء من الايجاز ، وقارن ذلك بما جاء فى المقرى ، شرحه ، ص ٣٥٩ ٠

(٣٤) Journal Asiatique, IV eme serie, t. XVIII, p. 515.

(٣٥) وقد حدث فى مرة من المرات أن بلغت الجزية المفروضة على نصارى قرطبة ١٠٠٠٠٠ دينار ٠

(٣٦) ابو اسماعيل البصرى : فتوح الشام ، ص ١٢٤ ٠

(٣٧) Euloge : Mem. Sanctr., L. II.

(٣٨) Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. 5.

(٣٩) هذا خطأ فى تفسير اسلام من أسلم ، وأن اسلامه كان لخوفه من الجزية ، فالاسلام صريح فى معاملة من يؤثر البقاء على دينه وذلك بدفعه الجزية وهى مبلغ ضئيل جدا ، ويعفى منها الشيخ والمرأة والطفل والعاجز ورجل الدين ، ثم أنه لم يعرف فى الأحكام الاسلامية ما يدنس شرف المرء الذى لعله استمد ما يقوله هنا من سامسون : نفس المرجع ، ج ٢ ، ف ٣ ـ (المترجم) ٠

(٤٠) De Toqueville.

(٤١) انظر الأبيات الواردة فى ابن عذارى : البيان المغرب ٢/١١٤ ، وترجمته ١٨٣ـ١٨٤ ٠ وهى الأبيات المذكورة فى ابن حيان ، ورقة ٦٤ ب ، والتى طبعها دوزى فى Notices sur quelques manuscrits Arabes, pp. 258-9.

ومن الملاحظ ان العرب لم يطلقوا أبدا على المسيحيين هذا النعت المهين ٠

حواشي الفصل الثالث

(١) سنطلق هذا اللفظ من الآن فصاعدا على العلوج وأبنائهم ٠

(٢) انظر ابن أبى زرع ، روض القرطاس (طبعة تورنبرج) ص ٢٣ وذلك فيما يتعلق بالقوم الذين سكنوا « العدوة » من الأندلس الى فاس

(٣) كانت هذه الناحية تسمى قديما « شقندة » ، انظر المقرى : نفح الطيب ، ٨٩٩١ ، وكذلك فيما يتعلق بطالوت بن عبد الجبار ٠

(٤) انظر أخبار مجموعة ص ١٢١ـ١٢٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٦٨ـ٧٠ ، وترجمته ص ١٠٥ـ١٠٩ ٠

(٥) انظر ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط باريس) ورقة ٢١٣ ب ــ ٢١٤ ب ، وابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٠ـ٢٥١ ، ٢٧٦ ؛

(٦) يقصد دوزى بذلك رجلا اسمه الضبى ٠

(٧) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٦ ، ٢٧٨ ، ونفح الطيب ٢١٦/١ ٠

(٨) ابن القوطية وعبد الواحد المراكشى ، ص ١٢ ، وترجمته ص ١٥ وما بعدها ٠

(٩) راجع أخبار مجموعة ص ١٢٠ ــ ١٢١ ٠

(١٠) فيما يتعلق بمؤسس المذهب المالكى راجع على الخصوص بروكلمان : تاريخ لأدب العربى ١٧٥/١ـ١٧٦ ، وكذلك :
Goldziher : La Dogma et la loi de l'Islam, trad., pp. 43-44.

وكذلك ما كتبه عنه فى الدائرة ، ونضيف الى ما ذكره المؤلف فى المتن أعلاه ، كتاب استاذنا المرحوم أمين الخولى عن مالك فى مجموعة أعلام الاسلام ٠ (المترجم) ٠

(١١) ابن القوطية ، الافتتاح ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٩ ٠

(١٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان (طبعة دى سلين) ٦٥/١ :
Weil : Geschichte der Chalifen, II, 42-43.

(١٣) انظر ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٩ ، وطبقا لما يرويه هذا المؤلف نرى أن الفقيه القرطبى زياد بن عبد الرحمن اللخمى كان أول من نوه بمالك بن أنس عند هشام وذلك فى السنة الثالثة من حكم هذا الأمير ، ويذكر المقرى : نفح الطيب ؛ ٢٥٤/٢ كيف أنه كان من جراء العلاقات التى قامت بين المدينة المنورة والأندلس أن ساد مذهب مالك هذا القطر ، وكان سكان الأندلس والمغرب قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعى ، راجع عنه ما كتبه فنسنك فى الدائرة ٠

(١٤) كان يحيى من قبيلة مصمودة البربرية وكانت تتبع بالولاء قبيلة بنى ليث العربية كما كان جده احد أصحاب طارق ، انظر ابن خلدون : العبر ، ١/٢٩٧ ، أما اسمه الكامل فهو أبو محمد يحيى بن كثير بن أوسلاس (أو أوسلاسن) الليثى المصمودى ، واليه يرجع الفضل فى نشر موطأ مالك بن انس فى المغرب ، راجع بروكلمان ١/١٧٦ ، وهناك اشارات عنه فى الضبى بغية الملتمس (طبعة كودرا) رقم ١٤٩٧ ، ص ٤٩٥ـ٤٩٨ ، وابن الفرضى : تاريخ الأندلس ، ٢/٤٤ـ٤٦ ، رقم ١١٥٤ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان (القاهرة) ٢/٢٨٥ـ٢٨٧ ، ونفح الطيب ، ١/٤٦٥ـ٤٦٧ ٠

(١٥) انظر ابن خلكان ، نفس المرجع والجزء والصفحات ٠

(١٦) يخطىء دوزى فى تفسيره لشخصية يحيى بن يحيى ويحاول أن يفسر هذا الأعتداد بأنه زهو وكبرياء ، والواقع أن يحيى كان له من علمه وفقهه ما يؤهله لأن يكون فى مقدمة رجال الفكر والفقه ذوى الثقافة الواسعة والعلم العظيم فى عصره حتى الآن ٠ من هنا كان الفارق الكبير بينه وبين السيد الرومانى فى العصور الوسطى (المترجم) ٠

(١٧) راجع نفح الطيب ، ١/٤٩١ ، ويذكر هذا المؤلف ان مؤدب الحكم كان يدعى « سوار بن طارق » ٠

(١٨) انظر اخبار مجموعة ، ص ١٢٨ ٠

(١٩) شرحه ص ١٢٥ـ١٢٦ ، والبيان المغرب ، ص ٨٠ ، وترجمته ص ١٢٧ـ١٢٨ ٠

(٢٠) المراكشى المعجب ، ص ٢٣ ، وترجمته ص ١٦ ٠

(٢١) التاريخ الوارد فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٧٣ ، وترجمته ، ص ١١٤ ، هو سنة ١٨٩هـ ، ويلاحظ أن النويرى ، ص ١٨٤ ، اذ نص على سنة ١٨٧ ، ولتحقيق ذلك راجع الكامل ٦/١٢٨ـ١٢٩ ، Annales, pp. 165-166. هذا وقد جاء فى التوفيقات الالهامية ، ص ١٩٥ أن أول يناير ٨٠٥ هو الأربعاء ٢٥ محرم سنة ١٨٩ هـ ، وسنعتمد على هذا الكتاب فى رد جميع التواريخ الميلادية التى يذكرها دوزى الى ما يطابقها من السنوات الهجرية ٠ (المترجم) ٠

(٢٢) أما هذا الشخص فاسمه الكامل هو عيسى بن دينار بن واقد الغافقى ، راجع أيضا ما كتبه الضبى فى بغية الملتمس ، رقم ١١٤٤ ، ص ٣٨٩ ـ٣٩٠ ٠

(٢٣) ذكر هذا الاسم ابن القوطية ، غير أن ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٧٣ ، وترجمته ص ١١٤ ، وابن الأثير : الكامل ٦/١٢٩ ، والنويرى ، ص ١٨٥ يجمعون على تسميته بمحمد بن القاسم القرشى المروانى ، وهو عم هشام بن حمزة لأبيه ٠

(٢٤) ورد اسمه فى ابن القوطية هكذا « برنت » دون ضبط ، وفى أخبار مجموعة يرسم « بزنت » ، أما ابن الابار فيسميه « يزنت » وربما كان « يزفتو » الذى يعادل Jacinto فى الاسبانية ، ونحن نعرف أن العرب كالرومان كانوا يحبون أن يطلقوا على عبيدهم أسماء الأحجار الكريمة راجع فى ذلك :

FRAEHEN : /bn Foszlans und derer araber Berichte, uber die Russen Alterer (Zeit, XXXIX).

(طبعة بيترسبورج ١٨٢٣) وكذلك الحال فى المغرب حيث كانت كل النساء السوداوات ـ سواء كن حرائر أم جاريات ـ يسمين بعنبر وياقوت ولؤلؤ الخ ، وهذا ما يراه دوزى ولكنا ترجح أن يكون اسمه هو « برلنت » وهو ما اعتمدناه فى الترجمة هنا وفيما يلى من الصفحات (المترجم)٠

(٢٥) راجع ابن القوطية ، ٢٢ أ من مخطوط باريس ، Extraits, p. 200. وابن الأثير : الكامل ١٢٩/٦ ، Annales, pp. 166-167. والنويرى : ص ١٨٥ ، وانظر أيضا ما ورد عن يحيى فى ابن خلكان والمقرى .

(٢٦) وذلك باغراء شخص يدعى أصبغ بن عبد الله بن ونسوس ، كما يسميه ابن عذارى ، وقد أشار الى هذه الثورة كل من ابن الابار وابن الأثير والنويرى وابن خلدون .

(٢٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٤/٢ ، وترجمته ١١٦ ، وابن الاثير : الكامل ١٣٧/٦ ، Annales, p. 171. والنويرى ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢٨) Isidore de Beja, c. 49, 62, 69 et 77.

(٢٩) هكذا يسميها القزوينى ، راجع Cosmographie, II, 366. ويسميها ايزيدور الباجى ، فصل ٤٠ باسم "URBS REGIA"

(٣٠) كان البربرقد استقروا منذ أمد بعيد فى الضواحى المجاورة وفى أملاك المهاجرين اكثر من استقرارهم فى المدينة نفسها .

(٣١) ابن القوطية ، ٣٠ أ ، من مخطوط باريس ، و Extraits, p. 196.

(٣٢) وردت الاشارة الى هذا الشاعر فى بغية الملتمس للضبى ، ص ٤٢٨ ، رقم ١٢٨١ راجع Fagnan : Extraits inedits, p. 196, note 2.

(٣٣) Ann. Bertin ; ad annum 809 et 810 (Monumenta Germaniae).

(٣٤) نزيد على ما قاله المؤلف ما جاء فى بعض المراجع العربية من ان السلطان كتب الى صاحب الثغر الأعلى ، يأمره بأن يرسل اليه مستغيثا من جيوش الكفرة وتحرك العدو ، ولم يكن فى ذلك شىء من الصحة ، وانما كان ذريعة اتخذها لتبرير ما هو مقدم عليه . (المترجم) .

(٣٥) الموضوع القريب الذى يشير اليه دوزى فى المتن هو المعروف بالجارين . (المترجم) .

(٣٦) المرجع فى ذلك ابن عذارى وابن الأثير .

(٣٧) ابن القوطية والنويرى .

(٣٨) راجع ابن القوطية ، ورقة ٢٠ أ - ٢١ ب من مخطوط باريس ، وابن عذارى : البيان المغرب ٧١/٢-٧٢ ، وترجمته ، ص ١١١-١١٢ وابن الأثير : الكامل ١٠٨/٦-١٠٩ ، ١٣٥-١٣٧ ، والنويرى ، ص ١٨٥-١٨٦ ، ويلاحظ أن التاريخ الوارد فى ابن عذارى خطأ ، وقد حدث فى سنة ٦١١ م أن دبر احد ملوك الفرس نفس المكيدة للقضاء على بعض أعدائه أنظر فى ذلك :

Coussin de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, t. II, pp. 576-578.

***

حواشي الفصل الرابع

(١) أسهب مؤلف أخبار مجموعة ، ص ١٢٩ وما بعدها ، فى الكلام عن عسكر الحكم المرتزقة ، راجع أيضا ص ١٠٩ من نفس الكتاب فيما يتعلق بعرافة عبد الرحمن بن معاوية وهو السلطان الذى ابتدع نظام العرفاء الذين كانت تحت امرة كل منهم عرافة تشمل مائة فارس ، انظر :

Dozy : Supplement aux Dictionnaires arabes, t. II, p. 117, Col. 2.

وكذلك البيان المغرب ، ٨١/٢ ، وترجمته ص ١٢٨ . وقد تناول لفظ « الخرس » بالبحث كل من النويرى ، ص ١٩٤ ، وابن الاثير : الكامل ٢٦٨/٦ (= Annales, p. 195). راجع ايضا الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٩٦ ، ونفح الطيب للمقرى ٢٢٠/٢ ، وانظر عن كلمة « الخرس » : Dozy · op. cit., t. I, p. 362. Col. I.

(٢) راجع النويرى ، ص ١٩٠ ، وابن الاثير ، ٢٠٩/٦ .

(٣) من العجيب أن المؤرخين العرب لا يختلفون اختلافهم فى تحديد تاريخ حادثة هامة كحادث ثورة الربض الجنوبى من قرطبة ضد الحكم الاول ، وهم يتفقون جميعا على القول بأنها جرت فى رمضان ، غير أن بعضهم يجعلها سنة ١٩٨ هـ (= مايو ٨١٤ م) ، ويؤخرها آخرون الى سنة ٢٠٢ هـ (= ٨١٨ م) وأخيرا فان ابن الابار لا يكتفى بذكر سنة ٢٠٢ بل يسمى اليوم وموقعه من الشهر فيقول ان الثورة جرت يوم الأربعاء ٣ رمضان ، وعلى الرغم من هذه الشهادات التى ننزلها منزلة الاحترام الا أن المؤلف يعتقد ان الثورة حدثت سنة ١٩٨ هـ وها هى ذى حججه :

(أ) بناء على ما ذكره ابن الأبار وابن عذارى فان هناك فريقا كبيرا من الثوار راح يفتش له عن ملجأ فى طليطلة التى كانت وقتئذ ثائرة على الحكم ، » وهذه الاشارة تنطبق تماما على سنة ١٩٨ هـ ، لأن طليطلة كانت فى الواقع فى ثورة ابان تلك الفترة ولم تكن كذلك سنة ٢٠٢ هـ منذ أن عاد الحكم فتملك طليطلة سنة ١٩٩ ، انظر البيان المغرب ٧٦/٢ ، وترجمته ص ١٢٠ وقد بقيت هذه المدينة بقية عهد هذا الأمير مطيعة له .

(ب) ان سنة ١٩٨ هـ التى يشير النويرى وابن الاثير الى حدوث الثورة فيها كأمر مؤكد نستنبطها من مؤرخ أقدم من هذين الا وهو ابن القوطية ، الذى وان لم يعينها بالذات الا أنه يقول أن حديث الحكم مع طالوت كان بعد سنة من الثورة ، ثم انتاب المرض الحكم بعد تلك المقابلة فلزم فراشه سبع سنوات مات بعدها ، فكأنه يشير بذلك الى شبوب الثورة قبل موت الحكم بثمانى سنوات ، ويتفق المؤرخون جميعا على أن الحكم مات سنة ٢٠٦ هـ .

(ج) أن سنة ١٩٨ هـ مؤكدة بشهادة المؤرخ المقريزى الذى لم يبحث فقط فى الوثائق العربية الاسبانية بل وفى الحوليات المصرية فقد اشار الى أن قدوم الاندلسيين الى الاسكندرية كان سنة ١٩٩ هـ (راجع كتاب الخطط ، طبعة فييت ، ج ٣ ص ١٨١ ،

القاهرة ١٩٢٢) ، فقد هاجمهم فى هذه السنة بالذات حاكم المدينة الذى عزلوه ، كما أنه فى حوالى نهاية سنة ٢٠٠ سار ضدهم عبد العزيز ومن المحتمل أن تكون كل هذه التواريخ مخطئة ٠

(٤) راجع النويرى ، ص ١٩٠ــ١٩١/أ وابن الاثير : الكامل ، ٢٠٩/٦ــ٢١٠ ، Annales, pp. 177-178.

(٥) أورد ابن بطوطة ، ص ٥٥ و ٥٦ هذا الاسم بالجيم المعجمة ، أما دوزى فقد ترجمه بالحاء المهملة ٠

(٦) اخبار مجموعة ، ص ١٣٠ــ١٣١ ، وابن الابار : الحلة السيراء ص ٤٠ ، والمراكشى : المعجب ، ص ١٣ ، وترجمته ص ١٦ نقلا عن ابن حيان ٠

(٧) راجع فى هذا ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٢٢ أ ، ب ، من مخطوط باريس ، Extraits, p. 204.

(٨) يسميه ابن عذارى فى البيان المغرب ٧٨/٢ ، وترجمته ، ص ١٢٣ بعبيد الله بن عبد الله البلنسى ، ويكنيه بصاحب الصوائف ، ويذكر نفس المرجع أنه قد صحبه أسحق بن المنذر القرشى ٠

(٩) البيان المغرب نفس الجزء والصفحة وكذلك ترجمته ٠

(١٠) راجع البيان المغرب ، نفس الجزء والصفحة ، وترجمته ص ١٢٣ــ١٢٤ ٠ والنويرى : ص ١٩١ ، والكامل لابن الاثير ، ٢١٠/٦ ٠ Annales, p. 1/3

(١١) لم يذكر دوزى اسم هذا الشيخ ولكنه يسمى بعبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث (المترجم) ٠

(١٢) نزيد على ما قاله المؤلف دوزى فى المتن أعلاه ، ما رواه ابن القوطية الافتتاح (طبعة مجريط سنة ١٨٦٨) ص ٥٢ من أن جزارا من أهل الاسكندرية ضرب وجه رجل مسلم من أهل الاندلس بكرش ، فأنف أصحابه لذلك ، وحمل هو بالسيف على اكثرهم فلما بلغ الرشيد الخبر اخرج هرثمة بن أيمن الحاجب ليستصلح امرهم فابتاع المدينة منهم بمال كثير ، ثم خيرهم فى النزول حيث شاءوا فاختاروا جزيرة اقريطش ٠ (المترجم)

(١٣) يرجع اصل أبى حفص البلوطى الوارد فى المتن الى فحص البلوط المعروف اليوم Campo de Calatrava

(١٤) الحلة السيراء لابن الابار ، ص ٤٠ ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ٧٩/٢ ، وترجمته ص ١٢٥ حاشية رقم ١ ، وقد درس مارينو جميع هذه الحوادث دراسة وافية فى Mariano Gaspar Remiro : Cordobeses musulmanes en Alejandria y Creta (in Homenaje à d. Francisco Codera Zaragoss, 1904, pp. 217-233).

وانظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية ، وراجع ما كتبه جيزى تحت كلمة « اقريطش » وتسيبولد تحت اسم « أبو عمر البلوطى » وشمتز تحت الحكم الأول والمراجع التى أوردها (كذلك يجب أن نضيف كتاب المقريزى : الخطط ، طبعة فييت ، القاهرة ، ١٨١/٣ــ١٨٥ ٠ المترجم)٠

(١٥) راجع البكرى
Description de l'Alfrique Septenterionale (ed. de Slane p. 115-116).
وابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢١ــ٢٣ ، ٢٥ ، ٧٠ــ٧١ ٠

(١٦) الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ص ٧٢ ـ ٧٣ ؛ وترجمته ص ٩٠ ـ ٩١ ، اما هذا القاضى فهو ابو الفرج بن كنانة الكنانى ٠

(١٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٩/٢ ، وترجمته ص ١٢٥ ٠

(١٨) النويرى ، ص ١٩ ٠

(١٩) ابن القوطية : الافتتاح ، ٢٣ ا من مخطوط باريس (وانظر أيضا فى :
Extraits inedits, p. 202.

والمراكشى : المعجب ، ص ١٤ وترجمته ص ١٧ ٠

(٢٠) كل ما سبق ماخوذ من ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٢٣ ا ـ ٢٤ ا من مخطوط باريس Extraits. pp. 201-203. ومن قصة أوردها المقرى : نفح الطيب ١/٩٠٠ ٠ (راجع أيضا النويرى ، ص ١٩٢) يظهر خلق طالوت خير ظهور فى يوم أحسن من هذا اليوم ، لكن يجب ان نذكر أن القصة الاكثر ثبوتا هى قصة ابن القوطية ٠

(٢١) انظر ابن القوطية : الافتتاح ٠ ورقة ٢٤ ا (مخطوط باريس) ،
Extraits inedits, pp. 203-204.

وابن عذارى : البيان المغرب ، ٨٢/٢ ، وترجمته ص ١٣٠ ٠

(٢١) انظر ابن القوطية ، شرحه ، ورقة ٢٤ ب ، ٢٥ ا Extraits, p. 204-205. واخبار مجموعة ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٤١ ٠

(٢٣) ابن عذارى البيان المغرب ، ٧٣/٢ ـ ٧٤ ، وترجمته ص ١١٥ ـ ١١٦ وترجمته ، اما المقرى : نفح الطيب ٢٢٠/١ فقد اقتبس خمسة ابيات فقط من هذه القصيدة ، راجع ايضا اخبار مجموعة ، ص ١٣٢ـ١٣٣ ، وابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٢٣ ا ، Extraits inedit, p. 231. حيث ذكر البيت الأخير فقط ، وانظر ابن الابار : الحلة السيراء ص ٤١ ٠ وابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٧٠/٢ ٠

***

حواشي الفصل الخامس

(١) ابن عذاری : البیان المغرب ، ٩٣/٢ .. وترجمته ص ١٤٨ ، والمقری : نفح الطيب ٢٢٣/١ و Euloge : Memoriale Sanctorum, L. II, c 1.

(٢) راجع أخبار مجموعة ، ص ١٣٦ ، وابن عذاری : البیان المغرب ، ٩٤/٢ وترجمته ص ١٤٩ ٠

(٣) راجع المقری : نفح الطيب ، ٢٢٣/١ ٠

(٤) راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٨٦/٢ ٠

(٥) الخشنی : كتاب القضاة بقرطبة ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، وترجمته ص ١٠١ـ١٠٢ ٠

(٦) نفس المرجع ، ص ٩٥ـ٩٦ ، وترجمته ص ١١٦ ـ ١١٧ ٠

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٢٨٦/٢ ٠

(٨) الخشنی : كتاب القضاء بقرطبة ص ٩٥ ـ ٩٦ ، وترجمته ص ١١٦ ـ ١١٧

(٩) البيان المغرب لابن عذاری ، ٨٣/٢ ، وترجمته ص ١٣١ ٠

(١٠) انظر ترجمة زرياب فی الطيب ، ٨٣/٢ ، وما بعدها ، وكل ما سبق مستمد منه ، وراجع ايضا ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٠٢٩ ، ب ، Extraits inédits, pp. 213-4.

(١١) الخشنی : كتاب القضاة بقرطبة ، ص ١٢ ، وترجمته ص ١٣ـ١٤ ٠

(١٢) نفح الطيب للمقری ٢٢٥/١ ٠

(١٣) البيان المغرب لابن عذاری ، ٩٤/٢ ـ ٩٥ ، وترجمته ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ونفح الطيب للمقری ، ٢٢٤/١ ـ ٢٢٥ ٠

(١٤) الخشنی : كتاب القضاة ، ص ١١ ، وترجمته ، ص ١٣٦ ٠

(١٥) انظر خطاب لويس التقی الی نصاری ماردة فی مجموعة : Espagna Sagrada, t. XIII, p. 416.

(١٦) راجع ابن عذاری البيان المغرب ، ٧٦/٢ ، ٨٥ ، وترجمته ص ١٢٠ ١٣٥ـ١٣٦، والبويری ، ص ١٩٨ ٠

(١٧) راجع ابن عذاری : البيان المغرب : ٨٥/٢ـ٨٦ ، وترجمته ص ١٣٥ـ١٣٦ ، والكامل لابن الاثير ٢٩٣/٦ـ٢٩٤ ، Annales, 206-206 ، والنويری ، ص ١٩٧ـ١٩٨٠

(١٨) راجع ابن عذاری : البيان المغرب ، ٨٦/٢ ـ ٨٧ ، وترجمته ص ١٣٦ ـ ١٣٨ ، والكامل لابن الاثير ، ٣١٣/٦ ـ ٣٢١ ، ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، Annales, pp. 208-209. والنويری ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ٠

***

حواشي الفصل السادس

(١) Euloge : Memoriale Sanctorum (in Schot. Hispania illustrata, t. IV, p. 248; Alvaro Indiculu Luminosus (Esp. sagr. XI, p. 225)

(٢) Euloge : op. cit., l. II, c 2, 3 ; l. III, C.I., alvaro : Ibid., pp. 225, 273.

(٣) Samson : Apologeticus (Esp. Sagr.), XI, L. II, c. 6.

(٤) جاء فى مخطوط الفارو (ص ٢٧٣ ، نشره فلوريز) هذه العبارة التالية :
el dum eorum versibus et fabellis mile suis delectamus.
وبدلا من mile قراها فلوريز mille دون ان يلاحظ انه لابد فى هذه الحال من أن يكتب المؤلف eorum بدلا من suis ، على أن الصحيح هو millsiis.

(٥) Alvaro : op. cit., 274-275. ونزيد على ما ذكره دوزى فى المتن اعلاه ، ما جاء فى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الحالى « ومع ذلك فقد تاتى للنصرانية ان تاخذ بثارها حين قام الكردينال اكسمناس واحرق جهرا ثمانين الف مجلد عربى بغرناطة ، كما صدر قرار كنسى باعتبار اللغة العربية لغة جافة لشعب غير مؤمن محتقر » ولا تعليق لنا على هذا الا ان ندع القارىء يتدبر بين الامرين (المترجم) .

(٦) كان من الامور الجديدة عند اهل قرطبة ما حمله اليهم ايولوج من نفارة سنة ٨٤٨ م الا وهو اتيادة فرجيل واهاجى هوراس وجوفينال ، انظر فى ذلك :
Alvaro : Vita Eulogii, c. 9.

(٧) Alvaro : Vita Sulogii, c. 4.

(٨) شرحه ، الفصل الثانى وقارنه بما جاء فى :
Sharon Turner : History of the Anglo Saxons, Vol. III, p. 655.

(٩) Isidore de Bija c. 36 ; Euloge : Mem. Sanct., L. II, c. I ; Apologia martyrim, u. 314.

(١٠) Euloge : Epistola ad Wiliesindum, p. 330.

(١١) Alvaro : Indic. lumin, p. 273, Samson : Apolog. L. II c. 4,

(١٢) هذه صورة من صور الجهل المطبق بالاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام من جهة وبالكراهية التى تعمى وتصم من ناحية اخـرى ، وهى تدل على الدرك الاسـفل الذى انحدرت اليه عقلية الدين كانوا معتبرين مرشدين ومعلمين للشعوب فى العصور الوسطى فى الغرب من رجال الدين ، وكان الكثيرون منهم ومن غيرهم من ذوى الاغراض الدنيئة لا يألون جهدا فى نشرها والترويج لها وتسميم عقول الناس الذين كان الجهل الفكرى يطمس على عقولهم فاخذ العامة ــ وهم معذورون ــ هذه الأقوال البذيئة على انها حقائق وما هى الا ضلال ، وويل لقوم كان مرشدوهم مضلليهم ، وهداتهم مفسديهم ، فلا عجب أن سميت تلك الحقب من التاريخ بالحقب المظلمة . ولقد ظهر فيما بعد بين الغربيين من نددوا بهذه الأفكار الفجة واظهروا ما فيها من الخلل ، وكان هناك الكثيرون من اهل تلك الحقب من يقبلون على هذه المزاعم القبيحة الخاطئة ويذيعونها بين الناس ، ومن ثم فان دوزى يرى أن السبب الذى حمل هؤلاء الرحال على اعتناق مثل هذه الافكار السيئة عن الرسول الكريم يرجع الى جهلهم المطبق ، كما يأخذ عليهم ــ كما ياخذ كل فاهم للتاريخ ــ انه كان

من الجدير بها إلا يقبلوها لأنهم كانوا يحتكون بالمسلمين احتكاكا كان أولى بأن يرشدهم الى الصواب : ونضيف نحن من جانبنا ان ما يعلق به « ايولوج » فى كتابه :
Eu-oge : Apolog. Martyrum 512-313.
على كلام صاحب مخطوطة « بامبلونة » ، انما يدل على منتهى السفسطة والجهل من رجل نصب نفسه مدافعا عن قضية كان هو الخاسر فيها أمام محكمة التاريخ ، وكان الأجدر بايولوج ان يمسك عن تعليقه الذى يقول فيه « تلك هى معجزات نبى المسلمين » لأنه تعليق دل على أنه يؤمن بهذه الترهات وانه يريد أيصالها الى أذهان الناس فى الغرب المسيحى ، مما يفضح تعصبه الأعمى المضل ، وما نملك الا أن نقول أنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور • (المترجم) •

(١٣) ALVARO : Indie. Lumin, pp. 252-253.

(١٤) ويقصد بذلك يوم الجمعة •

(١٥) ALVARO : Op. cit., p. 270.

(١٦) هكذا جاء فى نفس المرجع ، ص ٢٧٠ ، وحسبنا أن ندلل على الافك ما ادعاه « الفارو » بما ذكره المؤلف « دورى فى المتن أعلاه من ان الفارو نسب الى السيد المسيح عليه السلام قولا لم يقله ، ونضيف الى ذلك أنه اذا كانت الجرأة فى الوضع والتدليس قد وصلت بهذا الرجل المتزمت فى تعصبه والقسيس الذى اجترأ على الكذب على المسيح ذاته فنسب اليه ما لم يقله فكيف يمكن تصديقه فيما يدعيه حول النبى العربى ومبادىء الاسلام ؟ (المترجم) •

(١٧) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ٢/٢٨٦ •

(١٨) هذا ما يقوله الفارو فى Apol. Marty p. 311. ونعلق فى هذه الترجمة العربية فنقول أن النظرة العابرة للاسلام فى كل تاريخه توضح معاداته الصريحة للشرك وعبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وفى القران الكريم ايات كثيرة تندد تنديدا عنيفا بعبادها والمتوسلين بها والمقدمين لها القرابين ، بل لقد دعا الاسلام الى تحطيمها ، وكان هذا هو ما كرهته قريش وحاربته من أجله حربا لا هوادة فيها ، كما أن الكتاب العزيز حافل بالهجوم على الشيطان ، ولا نرى داعيا للاطالة فى مسالة واضحة وما كلام هؤلاء المفترين فى هذا الموضوع سوى ضرب من الهذيان الذى لا جدوى من مناقشته (المترجم) •

(١٩) Euloge et Alvaro, passim.

(٢٠) ان هذه الأقوال والاتهامات لا نجد لها مصدرا عربيا أو مسيحيا الا ما أشار اليه دورى من أنها وردت فى كتاب القسيس المتعصب « ايولوج » Mem-Sanct. p. 250. وغنى عن البيان أن « أيولوج » ــ كما ذكر المؤلف قبل هذا بقليل ــ كان يتعمد الاساءة الى الاسلام والى رسوله عليه الصلاة والسلام ، وينسب اليه من الترهات ما هو برىء منها • (المترجم) •

(٢١) Euloge · Mem. Sanct., p. 250 in fine.

(٢٢) اذا كان هذا قد ورد فى نفس المرجع السابق « لأيولوج » فى ص ٢٤٧ • فبديهى أنه مثل آخر من افتراءات كتاب العصور الوسطى المسيحيين على الاسلام وتعاليمه • وكان هؤلاء هم الجماعة الوحيدة التى تعرف الكتابة الى حد ما ، ولكنها تجهل الحقائق الناصعة أو تتجاهلها عن قصد لغرض فى نفسها ليس بالكريم ولا الشريف ، وما تحسب أحدا من المسيحيين ممن لهم صلة بالمسلمين ودينهم الا وهو يعرف أن الاسلام وضع الجزية =

عن رجال الدين وعن كثيرين غيرهم من أهل الكتاب ، انظر ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حسن حبشى الطبعة الثانية ، (المترجم).

(٢٣) اعتمد المؤلف فى هذا على ما جاء فى عبارة وردت فى :
Leovigild · De Haoitw Cievecorum (Esp. SAGR., XI, p. 513).
ويضيف المترجم انه غنى عن البيان أنها أفتراءات على المسلمين ، فقد أعفى العرب دخولهم اسبانيا الكثيرين من الجزية وفى مقدمتهم القسس ورجال الدين • (المترجم) •

(٢٤) • Leovigild : Op. cit., Loc. Cit.

(٢٥) آيات الانجيل التى يشير اليها دوزى هى الآيات ١٦ ـ ٤٢ من الاصحاح العاشر •

(٢٦) Euloge : Mem. Sanct. p. 240.

(٢٧) Euloge : Op. cit., p. 249.

(٢٨) ايولوج : نفس المرجع ، ص ٣١٣ (وراجع المزامير ١/٨٣ ـ ٧) (المترجم) •

(٢٩) Euloge : Epist. Ad. Williesindum.

(٣٠) Alvaro : Vita Eulogiu, c.2. ونضيف الى ما اشار اليه دوزى أن القديس « زويل » هذا قد استشهد فى قرطبة زمن دقلديانوس ، وبنى له اجانبيوس كنيسة دفنت بها جثته ، وتوجد ترتيلة من أجله فى كتاب صلوات قديم ، كما أن ايولوج نفسه دفن فى هذه الكنيسة •

(٣١) Alvaro : op. cit., c. 2.

(٣٢) اقتبس ايولوج قطعاً من هذا الكتاب فى مؤلفه Mem-Sanct. 241-242.

(٣٣) Euloge : Memor. Sanctr., p. 267.
Alvaro : Vita Eulogii, c. 2.

(٣٥) Ibid., c. 3.

(٣٦) Eulogue : Mem. Sanctr. p. 265-266.

(٣٧) Ibid. "Specil decoris et Venustate corporis nimum florens"

(٣٨) Docum., Marty, p. 325

***

حواشى الفصل السابع

(١) Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. I ; Lane : Modern Egyptians, II, p. 266-269 ; Mision historial de Marruecos, p. 46 ; Lyon : Travels in Northern Africa, pp. 108-109.

(٢) Euloge : Mem. Sanctr., II, c. I ; Indic. lumin., pp. 225-227.

(٣) فيما يتعلق بهذا الطبيب راجع ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ، ٤٢/٢ ، وصاعد الطليطلى : طبقات الامم (طبعة شيخو) ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٧٨ ٠

(٤) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ١٣٢ ، ١٣٣ = Extraits, pp. 220 221.

(٥) Eulogue · Mem. Sanct. II, c. I.

(٦) Cf. Euloge : Mem. Sanctr., pp. 242-243 ; Alvaro : Indie. Lumin., pp 227-228.

(٧) Euloge : mem. Sanct. pp. 237-8 ; Ibid., II, c. 2. ; Alvaro : Indic. lum., p. 237-8 ; Martyrologe d'Usuad (Esp. Sagr., t. X, p. 379).

(٨) Euloge : mem. Sanct. II. c. 4.

(٩) Euloge : Mem. Sanct. II. c. 4.

(١٠) Euloge : Mem. Sanctr. II, c. 5, 6

(١١) Euloge : Mem. Sanct. pp. 243 245, 246, 248-9.

(١٢) Euloge : Mem. Sanct., p. 243 "Plerique fideluim et hue proh. dolor etiam sacerdotum.

(١٣) Ibid., p. 239.

(١٤) دأب ايولوج والفارو على تسمية القتلى بجنود الرب الذاهبين لمحاربة العدو الكافر

(١٥) Euloge : Mem. Sanct., L. II, C. 15 ; Alvaro : Indic. lumin., pp. 243-244.

(١٦) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، مخطوط باريس . ورقة ٣٥ ١ ــ ب ، وكذلك Extraits inedits, pp. 225-6. والخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ، ص ١٢٢ ، وترجمته ص ١٥٩ــ١٦١ ٠

(١٧) Euloge op. cit., L. I, c. 2. وابن القوطيــة ، كتــاب الافتتــاح ، ورقــة ٣٥ ١ ٠ Extraits, p. 225 والخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ، ص ١٢٠ ــ ١٣١ ،

(١٨) فيما يتعلق بعبد الله بن امية راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٩٤ ٠

حواشى الفصل الثامن

(١) Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. 14, c. 15.

(٢) Alvaro : Epi t., XIII, c. 3.

(٣) Cf. Euloge : Mem. Sanct., L. II, c. 15.

(٤) Euloge : Mem. Sanct., L. II, cfl 14, 15, Epist., IV.

(٥) Alvaro : Vita Eulogii, c. 4.

(٦) Euloge : Epist., IV.

(٧) Euloge : Docum. Martyr., p. 321.

(٨) فقد كتب الى الفارو يقول : Luctum nòn amitto quotidianum.

(٩) وعنوان هذه الرسالة هو Documentum martyriale

(١٠) ذلك هو الكتاب الاول والفصول الستة الاولى من الكتاب الثانى .

(١١) Isidore de Seville : Sentent., L. IV, c. 13.

(١٢) Alvaro : Vita Eulogii, c. 9.

(١٣) Euloge : Mem. Sanctr., pp. 266-271 ;Epist.; t. I, III., Alvaro Vit a Eulogu.

(١٤) وكان موته ليلة الخميس ٣ من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ .

(١٥) انفرد ابن القوطية ، ورقة ٣٢ ا ـ ٣٤ ب ، بذكر هذه القصة ، راجع أيضا Extraits inedits, pp. 219-225. أما بقية المؤرخين المسلمين فلم يشيروا ابدا الى الاحداث التى صحبت اعتلاء محمد العرش .

***

حواشي الفصل التاسع

(١) ابن عذرای : البيان المغرب . ١١٤/٢ ، وترجمته ، ص ١٨٣ ، راجع ايضا ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٢٧١/٢ .

(٢) Euloge : Mem. Sanctr., L. III, c. 5.

(٣) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٣٠ = Extrait، inednts, p. 216.

(٤) البيان المغرب ١٠٩/٢ ، وترجمته ص ١٧٥ ــ ١٧٦ .

(٥) Euloge : op. cit., L. III, c. 5.

(٦) Euloge : op. cit., L. II, c. I, 2.

(٧) Euloge : op cit., L. II. c. 17, 8. II. c. I, 2., alvara, Vita Eulog. c. 12.

(٨) Euloge : op. cit., L. II, c. 2. حيث يذكر أن اسلام قومس كان بدافع رغبته فى الاحتفاظ بعمله الذى وعده به السلطان ، لكن ينبغى أن نرجع عليه ما ذكره ابن القوطية فى الافتتاح ، ورقة ١٢٥ (مخطوط باريس) = Extraits inedits, p. 225.

(٩) Eu oge : op. cit., L. II. c. 2. والخشنى : كتاب القضاء بقرطبة ، ص ١٣٢ ، حيث يسميه « حمامة هذا المسجد » ، والظاهر أن قومس قد حافظ على اسمه النصرانى ، أما ابنه الذى كان يضطلع بمهمة الكتابة والذى مات سنة ٩١١ م (= ٢٩٩ هـ) فقد تسمى بعمر ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ،، ١٥٣/٢ وترجمته ص ٢٤٦ بعمر بن قومس الكاتب .

(١٠) Euloge : Epist, p. 330.

(١١) أعتقد أن هذا هو ما ينبغى أن ينطق به الاسم الذى كتبه ابن عذارى فى البيان المغرب ، ٩٧٢ ، وترجمته ص ١٥٤ ، اذ انه وارد فى وثيقة لاتينية سنة ٩٠٨ م ، راجع Villanueva : Viage Literario à las iglesias de Espagna, t. XIII, p. 233.
ومن المحتمل أن تكون نفس الكلمة Suintile وهو اسم أحد ملوك القوط أو « كلمة » Chin'ila الواردة فى الوثيقة رقم ٩١٢ ، راجع فى ذلك التحقيق : Espagna Sagrad, t. XXX VII, p. 316.

(١٢) كان هذان القائدان اللذان يشير اليهما المؤلف فى المتن أعلاه ، هما قاسم بن العباس وتمام بن أبى العطاف قائد الفرسان . (المترجم)

(١٣) راجع البيان المغرب ، ٩٧/٢ ، وترجمته ص ١٥٤ .

(١٤) كان ذلك فى نهاية شوال ٢٣٩ هـ (= مارس ٨٥٤م) .

(١٥) يذكر ابن عذارى فى البيان المغرب ، نفس الجزء والصفحة أن « غشون » هذا هو أخو : « أرذون » الاول ، ولكن ليست لدينا اية وثيقة لاتينية تؤكد هذا القول .

غير انه من الثابت انه كان يتولى « برزد » كونت اسمه غشون ، انظر فى ذلك :
Florez : Reymas, t. I, p. 79; et Espagna sagrada, t. XVII, p. 31, 119.

ويشير ابن خلدون فى كتاب العبر ٤/١٣٠ ، الى ان ملك نفارة أرسل هو الآخر جماعة من الجند لمساعدة طليطلة ·

(١٦) هو ابو القاسم عباس بن فرناس ،راجع عنه ما ذكره الضبى فى بغية الملتمس رقم ١٢٤٧ ، ص ٤١٨ ، وهذه الابيات واردة فى قصيدة ذكرها ابن عبد ربه فى العقد الفريد ٢٧١/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١١٤-١١٥ ، وترجمته ص ١٨٣ - ١٨٤ ·

(١٧) هذا بلا شك اسم زعيم نصرانى ، بينما كان موسى قائد العلوج ·

(١٨) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٩٦/٢ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ١١٥ وترجمته ص ١٥٣ وما بعدها ، و ١٨٢ - ١٨٤ ، وابن الاثير : الكامل ، ٤٨/٧ ، وكذلك : النويرى ، ص ٢٠٥-٢٠٦ . Annales, p. 232. وابن خلدون كتاب العبر ، ٤/١٢٠-١٣١ ·

(١٩) Euloge : Mem.. Sanctr., l. III, c. 10.

(٢٠) Ibid., L. III, c. 5.

(٢١) انظر الكتاب الثالث من Mem. Sanctr. ، وكذلك Apol. Martyr.

(٢٢) Alvaro : Vita Eulogii, c. 10.

(٢٣) بنى هذا الدير على جبل كثير النحل ، ومن ثم سمى بهذا الاسم ويعنى « صخرة الشهد » انظر : Euloge : Mem. San. L. III, c. II.

(٢٤) ومع ذلك فان راس أوريليوس كانت قد ضاعت منذ سنوات عدة ، ولذلك وضعوا مكانها رأس زوجته متاليا . انظر : Acta Sanctor. July, VI, p. 462.

(٢٥) Aimoin : De Translatione ss Martyrum (Esp. Sagr.), t. X, pp. 534-565.

(٢٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٩٨-٩٩ ، وترجمته ص ١٥٧ ، والنويرى ص ٢٠٦ ، وابن خلدون : كتاب العبر ، ٤/١٣٠ ·

(٢٧) الشعر لعباس بن فرناس وهو وارد فى نفح الطيب ، ١/١٠١ ·

(٢٨) Alvaro : Vita Eulogii, c. 13-16.

(٢٩) Samson : Apologeuus II, c. 0.

(٣٠) فى هذه الفترة بالذات كانت الحملتان الاولى والثانية على اسبانيا وقد قام بهما النرمنديون الذين تطلق عليهم المراجع العربية اسم : المجوس وقد درسهما دراسة وافية مفصلة Dozy : Rechercnes, 3eme ed. t. II, p. 250-285.

وانا لنحيل القارىء على هذا الكتاب ، كما نحيله على مقال « المجوس » فى دائرة المعارف الاسلامية ·

وقد اهتم مؤلف هذا الكتاب « دوزى » بهذه الفترة ودرسها دراسة وافية ·

***

حواشي الفصل العاشر

(١) انظر كتب الرحلات فى هذا الموضوع وقد ورد بالتفصيل فى :

C. Rochfort, Scott : Excursions in the mountains of Ronda & Grenada ; De Custine : L'Espagne sous Ferdinand VII (Lettres Nos. 50 et 51) ; S. S. Cook : Sketches in Spain, chs. I et XV ; Ford : Gatherings from Spain (1846), Ch. XVI ; P. Merimée : Lettres adressées d Espagne, no III et l'ouvrage de Roca.

(٢) De Rocca : Memoirs sur la guerre de Français en Espagne, p. 174-259.

(٣) وهى التى عرفت فيما بعد بولاية Regio وعاصمتها أرشذونة ، راجع فى تحقيق ذلك ما كتبه Dozy : Recherches I, I, 317 et suiv. اما فيما يتعلق بارشذونة فراجع تسيبولد فى دائرة المعارف الاسلامية وكذلك المراجع المذكورة هناك .

(٤) Sebastien : Chron. (Esp. Sagr.), t. XIII, c. 26.

(٥) راجع النويرى تحت سنة ٢٥٩ هـ (طبعة جاسبين راميرو) ص ٢٠٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٣/٢ ، ١٠٤ وترجمته ص ١٦٥ .

(٦) على من يريد التوسع فى هذه الناحية مراجعة : Dozy : Recherches t. I. p 211. كذلك ما كتبه ليفى بروفنسال فى الدائرة تحت كلمة « سرقسطة » والمراجع المذكورة هناك .

(٧) واسمه الكامل عبد الرحمن بن مروان بن يونس ، راجع عنه وعن ثورته ابن عذارى . البيان المغرب ، ١٠٢/٢ـ١٠٤ ، وترجمته ص ١٦٣ ، ١٦٧ ، وابن الاثير : الكامل . ١٢٧/٧ ، = Annales, p. 243 . وابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ١٣١/٤ ، والضبى : بغية الملتمس رقم ١٠٤٥ ، ص ٣٥٩ .

(٨) راجع الادريسى ، ص ٢٦٥ .

(٩) هو سعدون الرمادى السرنباكى ، راجع ابن عذارى البيان المغرب ١٠٢/٢ ، ١٠٤ .

(١٠) كان من جراء هذا التحالف ان تالف المؤرخون على نعت ابن مروان بالجليقى .

(١١) توجد هذه القلعة بين Cuidal-Real وبين معسكر الدور ، ويذكر صاحب مراصد الاصلاع أن العرب ينطقونها « كركى » وهو نفس الرسم الذى يكتبه Pelage d'Oviedo, c. II. ، انظر ايضا روض القرطاس ، ص ١٠٧ ، ومع ذلك فقد أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ، ١٠٥/٢ وبالرسم الوارد بالمتن ، اى « كر كر » . وأخطأ = راجع .

الادريسى ٢/٢٩ ، اذ سماها « كراقرى » ، انظر فيها ياقوت : المعجم ٤/٢٩ وابن الفرضى ١/١٩ ، ٢٤٤ .

(١٣) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٣٧ أ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٠٢ – ١٠٥ ، وترجمته ص ١٦٢/١٦٩ ، وابن خلدون : العبر ٤/١٣١ ، والكامل لابن الاثير ، ٧/١٩٩ ، ٢١٥ = Anna‹es, p. 252-253.

راجع ايضا المقتبس لابن حيان ورقة ١١ أ ، ب ، وكذلك :

Chronicon Albendense (Esp. Sagr.,) t. XIII, c. 62.

(١٢) ابن عذارى : البيان ، ٢/١٠٦ ،وترجمته ص ١٧٠ .

***

حواشي الفصل الحادى عشر

(١) يذكر ابن خلدون فى العبر ، ١٣٤/٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٨/٢ ، وترجمته ص ١٧٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة : مادة عمر بن حفصون ، سلسلة نسب حفص الكاملة حتى يوصلاه الى الفونسو الذى يسميه ابن خلدون « بالقومس » اعتمادا منه على ابن حيان ، كما أن أسماء أبناء الفونس وأحفاد أولاده ، هى أسماء قوطية أو رومانية ، لكنها بدلت للاسف فى المخطوطات ، فأبو حفص يدعى عمر ، راجع كذلك الاشارة القصيرة التى أوردها الضبى فى بغية الملتمس . رقم ١١٦١ ، ص ٣٩٣ .

(٢) انظر طبعة المؤلف دوزى لكتاب ابن عذارى : البيان المغرب ٤٨/٢ وملاحظاته ، وكذلك حاشية مسيو دى سلين فى Histoire de Berberes, t. I. p. XXXVII. ومن المحتمل أن تكون ثمة صلة بين نهاية الأسماء بالواو والنون وبين الـ On التى هى مألوفة فى الكلمات الاسبانية .

(٣) راجع الاحاطة لابن الخطيب ، مادة « عمر بن حفصون » .

(٤) وكان اسمه « محمد بن أفلح» ، انظر الافتتاح ، ورقة ٣٧ أ ـ ٣٨ أ .

(٥) اختلفت الأقوال فى تحديد موقع بوبشترو بالضبط ، وقد لخص تسيبولد فى الدائرة كل ما يدور حول هذه المسألة حيث يقول « اذا اتبعنا ما يقوله الغزيرى وكونديه كان مكانه مكان أرغونة أو وشيقة الواقعة فى أقصى الشمال الشرقى من ولاية غرناطة ، أما دوزى فيرى فى كتابه Recherches, t. I, pp. 323-327. انه بقايا أطلال الحصن المذكور اعلاه بالمتن المعروف اليوم باسم el Castillon قرب « تيبا » غرب « نتريكويرا » فى وادى هورش ، أما سيمونيه فكان أدق فى بحثه اذ قال انها هى Estebanetz Calderon الواقعة بين انتيكويرا و « ارداليس » على مسيرة مرحلة ونصف من الشمال الشرقى من كراتراكا الحالية ، انظر

Simonet : Histoire de los Mozarabes de Espana, p. 513 et suiv.

وكذلك « دى كاسترو » فى ترجمته الاسبانية لهذا الكتاب « تاريخ مسلمى اسبانيا » ٤٢١/٢ـ٤٣٦ ، حيث يطيل فى تحقيق موقع بوبشترو .

(٦) كان اسمه عامر بن عمر .

(٧) كان اسم هذا الحاكم الجديد الذى لم يذكره دوزى هو عبد العزيز بن العيار (المترجم) .

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٦/٢ . ١٠٧ ، وترجمته ص ١٧٠ـ١٧١ ، وابن خلدون . العبر ، ١٣٣/٤ ، والنويرى ، ص ١٢٩ ، وابن الأثير : الكامل ، ٢٥٢/٧ = Annales, p. 257.

(٩) البيان المغرب ، ١٠٦/٢ـ١٠٨ ، وترجمته ص ١٧٠ـ١٧٤ ، والنويرى ، ص ٢٠٩ ، والعبر لابن خلدون ، ١٣٢/٤ .

(١٠) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٣٨ ب و ٣٩ أ .

(١١) البيان المغرب ، ١١٧/٢ ، وترجمته ص ١٨٨ .

(١٢) شرحه ، ١١٧/٢ ، وترجمته ص ١٨٧ـ١٨٩ ٠

(١٣) وكان اسمه الحارث بن حمدون الرفاعى ٠ (المترجم) ٠

(١٤) ابن عذارى : شرحه ، ١٠٩/٢ ، وترجمته ص ١٧٤ـ١٧٥ ٠

(١٥) شرحه ، ١١٧/٢ ، وترجمته ص ١٨٧ـ١٨٨ ٠

(١٦) شرحه ، ١٢٣/٢ ، وترجمته ص ١٩٧ ، وراجع ايضا نفس الجزء والمرجع ص ١١٧ وترجمته ص ١٨٩ ٠

(١٧) نفس المرجع والجزء ، ص ١١٨ ، وترجمته ص ١٨٩ ٠

(١٨) البيان المغرب ، ١١٧/٢ ــ ١٢٠ ، وترجمته ص ١٨٧ـ١٩٢ ، وأما ابناء مطروح الثلاثة فهم حرب وعون وطالوت ٠

(١٩) نفس المرجع والجزء ، ص ١٢١ ، وترجمته ص ١٩٣ ــ ١٩٤ ، وراجع ايضا ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٦٧/٢ ، والنويرى ، ص ٢١١ ، وينفرد هذا الكتاب الأخير بذكر حصار ابن حفصون لطليطلة ٠

(٢٠) راجع مقدمة دوزى لطبعته لابن عذارى ، ص ٤٤ـ٤٦ ٠

(٢١) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٢ أ ــ ٤ أ ، وهناك نسخة من تاريخ ابن حيان تتعلق بعهد عبد الله طبعها المستشرق الاسبانى الأستاذ ميلخر انتونيا ٠

***

حواشي الفصل الثاني عشر

(١) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٣٧ ب ٠

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٣٧ ب ، ٣٨ أ ٠

(٣) انظر مهمة هؤلاء الرسل السبعة فى Espagna Sagr., III, pp. 361-377.
وقد كانت هذه المهمة فى وادى الفجة وذلك فى عصر الكنيسة الأول ، راجع أيضا :
Lectionarium Compultensa (Esp. Sag. III, 380-384).

(٤) تقع البيرة فى الشمال الغربى من غرناطة على مقربة من المكان الذى يقوم به اليوم Pinos Puente راجع مقال تسيبولد عنها فى الدائرة الاسلامية ٠

(٥) راجع ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة (مخطوط جيانجوس) ، ورقة ٥ أ ، كذلك ينسب الى حنش الصنعانى هذا تأسيس المسجد الجامع فى سرقسطة ٠

(٦) Dozy : Recherches..., t. I, pp. 339-340.

(٧) Samson : Apology., L. II, c. 4.

(٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ورقة ٥ أ ٠

(٩) ابن الخطيب : نفس المرجع والورقة ٠

(١٠) ليست لدينا أية تفصيلات عن هذه الحرب التى يتكلم عنها الشاعر الاسبانى العبلى والتى يشير اليها فى البيتين اللذين نقتبسهما فى المتن واللذين سيردان بعد قليل ٠

(١١) واسمه عبد الرحمن بن أحمد المعروف بالعبلى لأن أصله يرجع الى « عبلة » القريبة من Guadix راجع الادريسى ، ص ٢٥١ ، وترجمته ص ٢٤٦ ، وكذلك ياقوت : معجم البلدان ١١٤/٦ ٠ (المترجم)

(١٢) شرحا لما ذكره المؤلف نقول ان اسمه الكامل هو سوار بن حمدون القيسى ، وهذا هو الاسم الذى سماه به ابن عذارى فى البيان المغرب ١٢٧/٢ ، وترجمته ، ص ١٩ ٠ (المترجم)٠

(١٣) منيد هذا هو جد سوار الرابع وزعيم القيسيين ، وقد أقام فى Maracena فى اقليم Albalote الواقع شمالى غرناطة ، وكان أحفاده لا يزالون يسكنونها أيضا انذاك ٠

(١٤) هو جعد بن عبد الغافر كما جاء فى ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٨٠ (المترجم) ٠

(١٥) هو سعيد بن سليمان بن جودى ، راجع عنه الضبى بغية الملتمس ، رقم ٧٩٥ ، حاشية رقم ٢٩٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٨/٢ــ١٣٩ ، وترجمته ، ص ٢٢١ ، حاشية رقم ١ والمصادر المذكورة فى ابن الابار وابن الخطيب ٠

(١٦) فيما يتعلق بالحمراء راجع :
J. F. Simonet : Description del Reimo de Grenada, 1861, p. 30 et seq.

(١٧) انفرد ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٦/٢ ، وترجمته ، ص ٢٠٢ .. يذكر موت سوار ٠

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٨٣ ٠

(١٩) يستطيع المرء أن يجزم بأن البيت الاخير من هذه الأبيات تهب منه انفاس شاعر جوال ، لاسيما واننا نلمس فيه رقة الفارس وروح التقدير التى عنده تجاه المرأة ٠

(٢٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٢٢ ا ـ ٢٣ ب ، ٤٠ ب ـ ٤٩ ا ، ٩٢ ب ـ ٩٤ ا ، وابن الأبار : الحلة السيراء ص ٨٠ ـ ٨٧ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، مادة سوار مخطوط الاسكوريال ، أما فيما يتعلق بسعيد بن جودى فراجع :
Dozy : Notice : sur quelques manuscrits arabes, p. 258.
حيث يشير المؤلف الى أن مخطوط ابن حيان قد روجع كثيرا فى تصحيح الأبيات المطبوعة فى كتابه Notices ، راجع ايضا البيان المغرب ، ٢ : ١٣٨ ، وترجمته ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ٠

حواشي الفصل الثالث عشر

(١) كل البيانات الواردة فى هذا الفصل مستمدة من ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٤٩ ب ـ ٥٦ ب ، ١٦٣ ـ ١٦٥ ، وأخبار هذه الحوادث المشار اليها فى المتن اما موجزة شد الايجاز عند غيره من المؤرخين العرب أو غير مذكورة بالمرة ٠

(٢) راجع اخبار مجموعة ، ص ١٦ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٨٩/١ ، ولقد كانت اشبيلية ايام الرومان اهم بلد فى اسبانيا ، يشهد بذلك شعر Ausone أوزون حيث يقول :

Iure mili post has memorabere nomen Hiberum Hispalis aequoreus quam prae.erlabi.ur amnis submittit cui tota suos Hispania fasces.

وفى بعض الطبعات توجد كلمة Emerita بدلا من Hispalis غير أن عبارة aequoreus ... amnis يقصد بها نهر الوادى الكبير قرب اشبيلية ٠

(٣) انظر الرازى ، الترجمة الاسبانية فى :
Memorias de la Academia de la Historia, Vol. VII, p. 56.

(٤) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١١٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٠

(٥) يتردد هذا الاسم كثيرا فى وثائق شمال اسبانيا ، انظر على سبيل المثـــال
Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 469.

(٦) راجع الرازى فى ترجمته الاسبانية ، ص ٥٦ ٠

(٧) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٣ ٠

(٨) كان حصن بنى خلدون لا يزال موجودا حتى القرن الثالث عشر الميلادى ويسمى باسم سادته القدماء لأنه طالما ورد ذكر « برج ابن خلدون » فى وثائق الفونس العاشر ، انظر فى ذلك :
Espimosa : Historia de Sevilla, t. II, fol. 4, Col. I fol. Col 16, 2, fol. 17 Col I.

وهذه الوثيقة الأخيرة واردة ايضا فى :
Memómórial Historico Espanola, I, p. 14.

(٩) وهى bourgada الواقعة على بعد ميلين من الغرب من اشبيلية ، راجع الطبعة الثالثة من Dozy : Recherches, I, p. 308 et suiv. وقارن ذلك بما جاء فى ابن الابار ، تكملة الصلة ، ص ٢٤٥ ، رقم ٢٩٢ ، حاشية رقم ٣ وياقوت : معجم البلدان ، ٥٦/٤ ، وكذلك انظر اخطاء وتصويبات دى سلين فى :
De Slane : Histoire des Berberes, t. II, p. 185.

(١٠) يقصد السالطان عبد الله ٠

(١١) هو الاقليم الواقع بين اشبيلية ولبلة ٠

(١٢) انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٩ ب ٠

(١٣) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦٣ ، اما التاريخ الوارد فى ص ٥٥ ب فغير صحيح ٠

(١٤) وكان يعرف بالريوشى ٠

حواشي الفصل الرابع عشر

(١) فى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب وردت عبارة « خمس مرات » بدلا من خمسين مرة الواردة فى الأصل الفرنسى ٠

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٦ ب ــ ٥٩ ب ٠

(٣) وقد انتهى أمره بالاستسلام للخليفة الناصر ومات فى قرطبة ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٥ ٠

(٤) انفرد البيان المغرب ١٤٠/٢ وترجمته ص ٢٢٤ بذكره من بين الثوار فى عهد عبد الله وقد قتله وصيفه Galindo جالندو ٠

(٥) هو جد تغالبة سرقسطة ، أما فيما يتعلق بأولويات ثورته وتفصيلها فراجع :
Dozy : Recherches ..., I, p. 217.
انظر أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ١٤٣/٢ ، وترجمته ص ٢٢٧ ٠

(٦) يسميه ابن عذارى فى البيان المغرب ١٤٣/٢ ، وترجمته ص ٢٢٤ بعمر بن مضيم اليترونى

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ ٠

(٨) ابن حيان : المقتبس من تاريخ الاندلس ، ورقة ١١٧ ــ ب ، ١٩ ، ١١٠٠ ٠

(٩) ابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ ــ ١٣٦ ٠

(١٠) Dozy : Recherches, II, p. 277.

(١١) البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ ٠

(١٢) راجع مقال ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية مادة « شنت مريه » ، و « المغرب » والمراجع المذكورة هناك ٠

(١٣) كانت كنيسة كوربو Corbeaw قائمة عند رأس جبل وتسمى اليوم برأس سانت فنسانت ، انظر الادريسى ، ص ١٧٣ ، ١٨٠ ، وترجمته ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ . انظر أيضا
Espagna Sagrada, t. VIII, pp. 187 et suiv.

(١٤) البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ ٠

(١٥) شرحه ، نفس المرجع والجزء ص ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٢٣ ٠

(١٦) هو سعيد بن مستنة راجع البيان المغرب ، ١٢٧/٢ ، ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٠٤ ، ٢٢٥ ٠

(١٧) البيان المغرب ، ١٢٦/٢ ، ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٠٢ ، ٢٢٥ ٠

(١٨) نفس المرجع والجزء والصفحة ، وترجمته ص ٢٢٤ ، أما فيما يتعلق بحصن النتلون القوى فراجع مراصد الاطلاع ١٥٥/٣ ٠

(١٩) شرحه ، ٢/١٤٠ـ١٤١ ، وترجمته ص ٢٢٥ ، أما أسماؤهم فهى : المنذر وابو كرامة هابل ، وعامر وعمر ابناء حرير بن هابل ٠

(٢٠) واسمه الكامل ؛ عبيد الله بن امية ، راجع البيان المغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته ص ٢٢٣ ٠

(٢١) راجع ابن حيان : المقتبس .. ورقة ٣٢ أ ، اما فيما يتعلق بالشاعر أبى القاسم عبيد بن محمد فراجع الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٨٧ـ٢٢٨ ، وترجمته رقم ١١٣٥ ٠

(٢٢) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٤٥ أ ، والبيان المغرب ، ١٣٩/٢ ، وترجمته ص ٢٢٢ـ٢٢٣ ٠

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٧ أ ـ ٢٣ ب ٠

(٢٤) ابن حبيب : تاريخ (مخطوط اكسفورد) ورقة ١٥٨ ، وقد أورد هذه العبارة ذاتها ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، وراجع عن استجة مقال تسيبولد فى دائرة المعارف الاسلامية ٠

(٢٥) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٣٩ ب ـ ٤٠ ب ٠

(٢٦) يقصد بذلك ابن حفصون ٠

(٢٧) راجع دائرة المعارف الاسلامية ٠

(٢٨) نص ابن عذارى فى البيان المغرب ، ١٥٦/٢ وترجمته ص ٢٥٢ على أن هذا المسمى ابراهيم بن خمير كان أحد قواد فرسان عبد الله ٠

(٢٩) يعنى الجيش الذى فيه ابن حفصون والذى كان يعتزم أن يهاجم به ابن مستنة ٠ (المترجم)

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦٨ أ ـ ١٦٩ أ ٠

(٣١) Samson : Apologet., c. 5, 9.

(٣٢) راجع الادريسى فى الاصل العربى من Description de l'Espagne, p. 205. وترجمته ص ٢٥٣ ، انظر ايضا ٠ Dozy : Recherches, t. I, p. 316.

(٣٣) ابن حيان : المقتبس ورقة ٧٠ أ ، ٧٧ ب ٠

(٣٤) شرحه ، ورقة ٦٩ ب ٠

(٣٥) شرحه ، ورقة ٧١ أ ٠

(٣٦) نفس المرجع والورقة ٠

(٣٧) شرحه ، ورقة ٧٨ أ ٠

(٣٨) شرحه ، ورقة ٧٠ أ ـ ٧٠ ب ، ٧٧ ب ٠

(٣٩) شرحه ، ورقة ٧٠ أ ، ٧١ أ ، ٧٧ ب ٠

(٤٠) راجع أخبار مجموعة .. ص ١٥١ ، أما فيما يتعلق بتمثال العذراء الذى كان منصوبا فوق باب قرطبة ، فانظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٩/٢ ٠

(٤١) تاريخ بن حبيب (مخطوط أوكسفورد) ص ١٥٧ . [وللأسف لم نستطع فى ترجمتنا العربية هذه الرجوع الى النص العربى ، ومن ثم فكل ما هو وارد هنا لابن حبيب مترجم عن الفرنسية — المترجم] ، وقد الف هذا الكتاب أحد تلاميذ ابن حبيب واسمه ابن أبى الرقاع انظر فى ذلك دوزى Dozy : Recherches, t. I, pp. 29-30. اما فيما يتعلق بهذا الكتاب بالذات فانظر البحث المطول الوارد فى :
F. Pon Boignes : Essayo bibliografico sobre los historiadores y geographos arabigo Espagnioles (Madrid, 1896), p. 32 et suiv.

راجع دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ابن حبيب .

(٤٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٧٧ ب

(٤٣) اخبار مجموعة ، ص ١٥١ ، والنويرى ، ص ٢١٢ .

(٤٤) تاريخ ابن حبيب ، ورقة ١٥٧ .

(٤٥) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٢/١١٧ ، وترجمته ص ١٨٨ .

(٤٦) تاريخ ابن حبيب ، ورقة ١٥٨ .

(٤٧) نفس المرجع ، ورقة ١٥٩ ، وتشير العبارة الأخيرة بوضوح الى أن مسيحى ابن حفصون كانوا شديدى الاحترام للبقعة التى كانت تقوم فيها كنيستهم من قبل احتراما يمنع من تلطيخها بدماء القتلى .

(٤٨) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٧٠ أ .

(٤٩) راجع اخبار مجموعة ، ص ١٥٠ .

(٥٠) فيما يتعلق باحترام الأمير عبد الله للنساك ، راجع الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ص ١٦٩ .

(٥١) اورد هذه الأبيات ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٦٠ ، وترجمته ص ٢٥٧ .

(٥٢) ابن حيان المقتبس . ورقة ١٨ ب ، ٧٠ ب .

(٥٣) ابن حيان : نفس المرجع ، ورقة ٧٠ ب — ٧١ أ

(٥٤) يقصدون بذلك ابن حفصون .

(٥٥) ابن حيان ، المقتبس ، ورقة ٧١ ب .

حواشي الفصل الخامس عشر

(١) اى « البقر » بالاسبانية ٠

(٢) النهير الذى يشير اليه المؤلف يسمى بنهر « الفوشكة » ٠ (المترجم) ٠

(٣) تبعا للقاعدة التى اقرها مجمع نيقية فان الاحتفال بعيد الفصح لعام ٨٩١ م كان ينبغى أن يقام يوم ٤ أبريل ، لكن لما كان المؤرخون العرب يشيرون الى أن وقعة بلاى هذه حدثت سنة ٢٧٨ هـ ، وهى السنة التى يعادل أولها ١٥ أبريل ٨٩١م فمن الأرجح أن يكون الاندلسيون قد احتفلوا بعيد فصحهم تبعا لنظام مواطنهم Migetius ميجيتيوس ، وهو النظام الذى اشار اليه البابا ادريان الاول واستنكره فى خطاب بعث به الى المطران اجيل ، راجع نص هذا الخطاب فى مجموعة :
Espagna Sagrada, t. V, p. 532, c. 6.

(٤) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، اية ١٥٩ ٠

(٥) البيانات الواردة بهذا الفصل مأخوذة عن ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٧١ ب ٨٠ أ ، ولولا هذا المؤرخ ما عرفنا شيئا عن هذه الناحية ، هذا وقد نقل ابن عذارى فى البيان المغرب ٢/١٣٦ ، وترجمته ص ٢٠٢ ، رواية شديدة الاختصار عن وقعة بلاى ، وقد نقلها عن كتاب « بهجة النفس » ٠

***

حواشي الفصل السادس عشر

(١) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٧٧ أ ٠

(٢) النويري : تاريخ الاندلس ، ص ٢١٢ ٠

(٣) ابن حيان : شرحه ، ورقة ٨٢ أ ـ ب ٠

(٤) نفس المؤلف والمرجع ٠ ورقة ٨٠ ، ٨٢ أ ٠

(٥) يذكر ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٣٩/٢ ، وترجمته ، ص ٢٢١ : ان الامير عبد الله قبل فى بيت يهودية كانت خليلة له ٠

(٦) الورد فى اللغة بفتح الواو وسكون الراء هو الخيل الأحمر الضارب الى الصفرة ٠ (المترجم)

(٧) وردت هذه القصة فى المقرى : نفح الطيب ، ٣٦١/٢ كما وردت الاشارة الى هذا الشاعر فى الضبى : بغية الملتمس رقم ١٣٨٦ ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ ٠

(٨) المقتبس : شرحه ، ورقة ١٢ أ ، ١٢ أ ـ ب ، ٢٢ أ ، ٤٧ ب ، ٤٨ أ ، ٩٢ ب وابن الخطيب ، ص ٢٥٩ ٠

(٩) راجع ابيات ابن قلزم (هكذا يسميه الخشنى فى قضاة قرطبة ص ١٥٠ـ١٥١) فى البيان المغرب ، ١٤٣/٢ ، وترجمته ، ص ٢٣٥ ٠

(١٠) كان طالب بن مولود من « مورور » وكان قتله سنة ٢٨٧ هـ (= ٩٠٠ م) على يد ابن أبى عبده بشهادة ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٣/٢ وترجمته ص ٢٣٠ ، وكان ـ كما راينا ـ حليف أعلاج اشبيلية ٠

(١١) يقع حصن القرط قرب شريش ، انظر فى ذلك :
Maldonado : Illustraciones de la casa de Niebla (Memorial historico espanol, t. IX, p. 96).

(١٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٩ ب ، ـ ٦٢ أ ، ٨٤ أ ـ ٨٧ أ ٠

(١٣) المقتبس ، ورقة ٦٢ أ ـ ب ٠

(١٤) راجع ابن عذارى ، البيان ، ١٨٢/٢ ، وترجمته ص ٢٠٥ ٠

(١٥) نفس المرجع ، ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، وترجمته ص ٢٠٥ـ٢٠٧ ، وابن حيان المقتبس ، ورقة ٦٢ ب ٠

(١٦) ابن حيان المقتبس ، ورقة ٩٠ ب ٠

(١٧) نفس المؤلف والمرجع ، ورقة ٨٢ ب ٠

(١٨) Vita Bastiae Argenteae, c. 2.

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٢/٢ . وترجمته ص ٢٣٠ اما فيما يتعلق بـ Canteta la Reol لمعروفة فى العربية باسم قنيط » فراجع .
Simonet : Description del Reino de Grenata, p. 128.

(٢٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٩٥ ، ب .

(٢١) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٩٥ ، ب .

(٢٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٤ ب . ١٩٥ .

(٢٣) ابن خلدون : العبر ، ١٢٥/٤ .

(٢٤) ابن القوطية : افتتاح الاندلس ، ورقة ٤٥ أ ، وابن حيان : المقتبس ، ورقة ٦٢ ب ، ٦٣ أ : وابن عذارى : البيان المغرب ١٢٩/٢ ، وترجمته ، ص ٢٠٧ .

(٢٥) ابن حيان . شرحه ورقة ٩٨ ب ، ١٠٢ ب .

(٢٦) يقصد بذلك فجيل بن ابى مسلم .

(٢٧) انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠٢ ب .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته ص ٢٠٧

(٢٩) لم يكن لأحد السلاطين ما كان لعبد الرحمن من الرزراء فقد بلغوا ذات مرة ثلاثة عشر وزيرا انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠ ، كما ان ابن عذارى فى البيان المغرب ، ١٥٦/٢ ، وترجمته ص ٢٢١ . يذكر اسماء اربعة وزراء له .

(٣٠) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٤٥ ب ـ ٤٧ أ ، ولقد نقل ابن حيان فى المقتبس ورقة ٩٦ أ وما بعدها هذه القصة مع تحوير بسيط ، كما اننا نراه يخطىء فيدرجها تحت سنة ٢٨٧ هـ ، بدلا من ٢٨٩ هـ .

(٣١) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ٤٧ أ .

(٣٢) فيما يتعلق بهذه الجارية ، انظر ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ٢١١٤ ، والمقرى : نفح الطيب .. ٩٧/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٣٢/٢ ، وترجمته ص ٢١١ .

(٣٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣٤) اورد هذه الابيات صاحب البيان المغرب .

(٣٥) اورد ابو عامر السالمى صاحب درر القلائد مقطوعة نسبها الى قمر ، انظر المقرى : نفح الطيب ، ٩٧/٢ ، ويشتم من هذه المقطوعة روح التشوق الى وطنها ، غير انه يتضح لنا ان تلك الابيات لرجل وليست لامراة ، ونزيد على ما قاله دوزى فنورد هذه الابيات التى تقول فيها سواء صحت نسبتها اليها أم لم تصح :

آها على بغـدادها وعراقهـــا   وظبائها والسـحر فى أحداقهـــا
ومجالها عند الفرات باوجـــه   تبدو أهلتها على اطواقهـــــا

متبخترات فى النعيم كأنمـــــا خلق الهوى العذرى من أخلاقهـا

نفس الفداء لها ، فأى محـــاسن فى الدهر تشرق من سنى اشراقها

(٣٦) فيما يتعلق بابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، انظر ما جاء عنه فى دائرة المعارف الاسلامية والمراجع الواردة هناك ٠

(٣٧) هو ابن عبد الله محمد بن يحيى القلفاط ، راجع عنه الضبى : بغيـــة الملتمس ، رقم ٢١٤ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، والمقرى : نفح الطيب ٢/١٩٩ ٠

(٣٨) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٨ ب ـ ١١ أ ، ٩٧ ب ـ ٩٨ أ ،، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٣٠ـ١٣٢ ، وترجمته ص ٢٠٧ـ٢١٢ ٠

***

حواشي الفصل السابع عشر

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ورقة ٤٧ أ .

(٢) ابن القوطية : نفس المرجع والورقة ، وابن حيان : المقتبس ، ورقة ٤ أ ، ٩ ب.

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٤٥ـ١٤٦ ، وترجمته ص ٢٣٤ .

(٤) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ١٤٦ ، وترجمته ص ٢٣٥ .

(٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ٢/١٤٨ ، وترجمته ص ٢٣٩ ، وكذلك الحاشية رقم ٢ الواردة به .

(٦) نفس المؤلف والمرجع والجزء ص ١٤٩ ، وترجمته ص ٢٥١ .

(٧) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠٢ ب ، ١٠٤ أ ـ ب ، ١٠٥ أ ١٠٦ ب ، ١٠٧ ب .

(٨) هو أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي .

(٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٢ ب ، ١٣ أ ، ٩٤ ب ، ٩٥ أ ، وابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٤٧ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢/١٤٣ وترجمته ص ٢٢٩ ، ومخطوط ميا » في Dozy : Recherches, t. I, p. 220.

(١٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٣٢ أ ، ٨٩ ب ، ٩٤ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢/١٤٥ـ١٤٧ ، وترجمته ص ٢٣٢ـ٢٣٧ .

(١١) ابن عذارى : شرحه ، ٢/١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وترجمته ص ٢٣٧ ، ٢٤٥ .

(١٢) انظر الشعر الوارد في المقتبس ، ورقة ١٠٥ أ .

(١٣) قدم نشترشتين صورة موجزة عن حكم عبد الله بن محمد في دائرة المعارف الاسلامية فراجعها هناك .

(١٤) Dozy : Introduction à la Chronique d'Ibn Adhari, pp. 47-50.

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٦٢ ، وترجمته ص ٢٦٠ .

(١٦) كان مولده في رمضان سنة ٢٧٧ هـ (= يناير ٨٩١ م) ، راجع في ذلك ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٦٢ .

(١٧) البيان المغرب ، ٢/١٦٢ـ١٦٣ ، وترجمته ص ٢٦٠ـ٢٦٢ . وراجع البيتين اللذين اقتبسهما المقرى في نفح الطيب ٢/٥٠٨ .

(١٨) كان ذلك عام ٩١٠ م أو العام الذي يليه . انظر البيان المغرب ، ٢/١٥٣ ، وترجمته ص ٢٤٦ ، و ٢/١٥٠ ، وترجمته ص ٢٤٢ ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٩٧ . اما التاريخ الذي ذكره البيان ٢/١٣٢ ، وترجمته ص ٢١٢ وهو سنة ٢٨٨ هـ (= ٩٠١ م) فهو تاريخ مغلوط .

(١٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩١ ب ٠

(٢٠) حدث فى أثناء حصار الوادى سنة ٨٩٦ م (= ٢٨٣ هـ) أن انضم كثير من فرسان السلطان ومشاته الى العدو رغبة منهم فى الحصول على أجر أعلى ، انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٨٨ ب ، كما أنه حدث فى أثناء حصـار « لورقة » أن هـرب الكثيرون من جيش السلطان وجيش ديسم (انظر نفس المرجع ورقة ٨٩ أ) ، كما انه جاء فى سنة ٨٩٧ م اثنا عشر جنديا طنجيا من جنود ابن حفصون يعرضون أنفسهم ليكونوا فى خدمة قائد السلطان (نفس المرجع ، ورقة ٨٩ أ) ، ثم انه فى السنة الأخيرة من حكم عبد الله هرب جميع جند طنجة الذين كانوا فى خدمة هذا الامير (وربما كان ذلك لعدم تسلمهم ما تأخر من رواتبهم) وانضموا الى قوات ابن حفصون وحليفه سعيد بن هذيل من المنتلون ، ثم لم يلبث أن نشب عراك شديد بينهم وبين أصدقائهم الجدد فى بوبشترو ، وقتل جل البربر ، اما الذين بقوا بعد هذه النكبة فقد عادوا الى معسـكر السلطان ٠

(٢١) ابن خلدون : العبر ، ١٣٦/٤ ٠

(٢٢) انظر الأبيات الشعرية الواردة فى ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠٥ أ ، ب ٠

(٢٣) Vita Beatae Virginis Argenteae (Espagne Sagrada, t. X, c. 2, 3).

(٢٤) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٣/٢ وترجمته ص ٢٢٩ ٠

(٢٥) انظر مقدمة البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ٠

(٢٦) نفس المرجع ١٦١/٢ ، وترجمته ص ٢٥٩ ٠

(٢٧) ابن خلدون : العبر ١٣٧/٤ ٠

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦٤/٢ــ١٦٥ ، وترجمته ص ٢٦٤ــ٢٦٥ ٠

(٢٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٨١ أ ٠

(٣٠) أخطأ جامع البيان المغرب حين زعم أن مالقه كانت عاصمة ولاية رية فى تلك الحقبة ، انظر : Dozy : Recherches, t. I, pp. 319-320.

(٣١) هؤلاء السبعة ــ كما يذكرهم البيان المغرب ــ هم : عكاشة بن محصن صاحب وادى بنى عبيد الله ، وسلمة بن هرام صاحب بميلة ، ومنذر بن حريز صاحب بفتريرة وأفلح بن عروس صاحب بكور ، وفحلون بن عبد الله صاحب سسانة ٠

(٣٢) البيان المغرب ، ١٦٦/٢ ــ ١٦٩ ، وترجمته ص ٢٦٦ ــ ٢٧١ ٠

(٣٣) نفس المرجع والجزء ، ص ١٣٣ــ١٣٤ ، ص ١٦٩ ، وترجمته ص ٢١٢ــ٢١٥ ، ٢٧٢

(٣٤) نفس المرجع والجزء ، ص ١٣٤ــ١٣٥ ، وترحمته ص ٢١٥ــ٢١٦ ٠

(٣٥) فيما يتعلق باستسلام طليطلة راجع البيان المغرب ، ٢١٧/٢ــ٢٢٤ ، وترجمته ص ٣٣٤ــ٣٤٤ ٠

(٣٦) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٨٤ ، وترجمته الاسبانية ص ٢٢٧ــ٢٢٨ ٠

(٣٧) نفس المرجع ، ص ١٨٧ــ١٨٨ ، وترجمته الاسبانية ص ٢٣٣ــ٢٣٤ ٠

(٣٨) نفس المرجع ، ص ١٨٧ـ١٨٨ ، وترجمته ص ٢٧٤ ، أما فيما يتعلق بموقع « طرش » فراجع نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٣ حاشية رقم ١ .

(٣٩) أخبار مجموعة ، ص ١٦٢ ، وهناك عدة قصائد فى هذا الكتاب وضعت فى تلك المناسبة .

(٤٠) البيان المغرب ، ١٧١/٢ ، وترجمته ص ٢٧٤ .

(٤١) نفس المرجع والجزء ، ص ١٧٦ ، ٢٧٧ ، وترجمته ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

(٤١) شرحه ، ص ١٧٣ .

(٤٤) نفس المرجع والجزء ، ص ١٧٨ ، وترجمته ص ٢٨٤ ، ولم يكن موت ابن حفصون الا فى سنة ٣٠٦ هـ (= ٩١٨ م) كما يشير الى ذلك ابن عبد ربه فى العقد الفريد ٣٧٤/٢ ، وابن خلدون : العبر ، (طبعة بولاق) ١٣٥/٤ .

حواشي الفصل الثامن عشر

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٧٨/٢ ، وترجمته ص ٢٨٤ ، هذا وقد كان استسلامه عقب سقوط حصنه القوى فى أوبيدة UBEDA بالبيرة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ١٨١/٢ـ١٨٣ ، وترجمته ص ٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع والجزء ، ص ١٨١ـ١٨٢ ، وترجمته ص ٢٨٨ـ٢٨٩ .

(٤) شرحه ، ص ١٨١ ، وترجمته ص ٢٨٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ١٨٩ ، وترجمته ص ٢٩٨ـ٢٩٩ ، وابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ .

(٦) راجع فيما أخذه عليه ابن عذارى كتابه البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، وترجمته ص ٣٠٥ .

(٧) نفس المرجع والجزء ، ص ٢٠٤ ، وترجمته ص ٣١٧ ، حيث يسهب فى تفاصيل موت سليمان .

(٨) شرحه ، ص ٢٠٦ـ٢٠٨ ، وترجمته ص ٣١٩ـ٣٢٢ .

(٩) Vita Beatae Virginis Argenteae (Espagna Sagrada), t. X, c. 4 (à la fin).

(١٠) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٠٩/٢ـ٢١٠ ، وترجمته ص ٣٢٣ـ٣٢٤ ، وابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٣٨١/٢ ، وابن خلدون ، ١٣٥/٤ .

(١١) البيان المغرب ٢١٠/٢ ، وترجمته ص ٣٢٤ـ٣٢٥ .

(١٢) شرحه ، ص ١٩١ ، وترجمته ص ٣١٠ . وكان حصنا ابن مستنة يسميان ـ كما يقول البيان المغرب ـ « علية » و « ربرش » ، وحصنا بنى الملهب ، « قزديرة » و « أشبر جيزة » .

(١٣) البيان المغرب ١٩٢/٢ ، ٢٠٤ ، وترجمته ص ٣٠٢ ، ٣١٧ .

(١٤) شرحه ، ص ١٩٦ ، وترجمته ص ٣٠٧ ، وهؤلاء الثوار هم : عبد الرحمن بن وضاح ، ويعقوب بن أبى خالد التويرى ، وعامر بن أبى جوشن وغيرهم .

(١٥) ابن القوطية : الافتتاح . ورقة ٤٧ ب .

(١٦) ابن القوطية : نفس المرجع والورقة ، والبيان المغرب ١٧٥/٢ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٩٥ وترجمته ص ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣١٦ .

(١٧) البيان المغرب ، ٢٠٤/٢ ، وترجمته ص ٣١٦ .

(١٨) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦ ب ، ١١٧ • والبيان المغرب ، ٢/٢١٠ـ٢١١، وترجمته ص ٣٢٦ ، ويلاحظ ان هذا المؤرخ الأخير يسمى هذه الاسرة الثائرة بأسرة بنى الشيخ » •

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١١ ، وترجمته ص ٣٢٧ ، وكانت هذه الحملة بقيادة أحمد بن الياس •

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٤ ـ ٢١٥ ، وترجمته ص ٣٣١ـ٣٣٢ • ومما يلاحظ أن هذا الخضوع كان فى جمادى الثانية سنة ٣١٧ هـ ، أى فى يوليو ٩٢٩ م •

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب • ٢/٢١٥ وترجمته ص ٣٢٢ـ٣٢٣ •

(٢٢) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢١٤ ، ٢١٦ـ٢١٧ . وترجمته ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ـ٣٣٥ • هذا وقد استنزل ابن مروان واقاربه من قرطبة ووكل اليه قيادة الجند » •

(٢٣) هذا هو رسمه الصحيح وليس Algodor راجع فى ذلك :
Dozy : Corrections, p. 57.

(٢٤) هكذا يرسمها ابن عذارى فى البيان لمغرب ، راجع ترجمته ص ٣٣٦ ، حاشية رقم ١

(٢٥) سنفصل فى الجزء التالى أمر حملة راميرو الثانى هذه •

(٢٦) فيما يتعلق باستسلام طليطلة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٧ـ٢٢٤ ، وترجمته ص ٣٣٤ـ٣٤٤ •

(٢٧) البيان المغرب : ٢/٢١٠ ، وترجمته ص ٣٢٥ •

***

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٤٧٣٦

I.S.B.N 977-01-5637-X

هذا الكتاب يتضمن فترة غير قصيرة من تاريخ أسبانيا الاسلامية منذ أن دخلها العرب حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ومجئ المرابطين، مع الاهتمام بوجه خاص بالملك الأسطورى الشاعر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية.

يجمع المستشرقون والمؤرخون على أن ظهور كتاب «تاريخ مسلمى أسبانيا» للعالم الهولندى البارز «رينهرت دوزى» الذى تقوم دار بريل بطبعه، والذى أوشكت ثلاثة أرباع قرن تمضى على ظهوره - هو خطوة كبيرة للالمام بفترة من تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى، وكان تاريخ تلك الحقبة مقبورا فى الظلام الدامس.

لم يكن الأمر قاصرا على أن يبحث هذا الموضوع بأكمله، بل لأنه كان عملا تدعمه دعما قويا أسس علمية جادة كل الجد، لأنه خلاصة العديد من مطالعات دوزى ذى القدرة على مابذله من جهد انتزع الاعجاب به حتى اليوم، وذلك برجوعه فى مادته إلى الأصول الأولى فى الحوليات العربية واللاتينية والاسبانية، والتى كان معظمها لايزال غير منشور ومطويا رهن المخطوطات المبعثرة فى أوربة وكانت هذه الأصول قادرة على القاء شئ من النور على تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى فى شبه جزيرة ايبريا.

٥٠ قــرشــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب